الألف كتاب
الثاني
١٢٦

العثمانيون في أوربا

تأليف: بول كولز
ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



العثمانيون في أوربا

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

العثمانيون في أوربا

تأليف

بول كولز

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

THE OTTOMAN IMPACT ON EUROPE

by

PAUL COLES

مقدمة المترجم

صدر كتاب كولز هذا الذى نقدم اليوم ترجمته الكاملة للعربية ضمن سلسلة (مكتبة الحضارة الأوربية) Library of European Civilisation وهذا لا يخلو من دلالة إذ أن هذا يعنى أن العثمانيين يشكلون عنصرا من عناصر الحضارة الأوربية الحديثة والمعاصرة ، وهو ما يثبته هذا الكتاب ·

ــ والأستاذ الدكتور كولز ، كان يشغل حال تأليفه كتابه هذا ، وظيفة أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة براد فورد ولهذا فهو لا يقدم لنا تاريخا تقليديا ، يكتفى بعرض الأحداث زمنيا بشكل ممل ، وانما هو يقدم لنا تاريخا حضاريا ثقافيا، يهتم بالفكرة ، وهو شغوف بالمقارنة والتحليل واستخلاص النتائج ، وربط الماضى بالحاضر ·

ــ والكتاب وثائقى من الطراز الأول ، وهو زاخر بالصور ، الرسوم المعاصرة للأحداث (١٠٩ رسم وصورة) وكان نقل هذا العدد الكبير للطبعة العربية أمرا مرهقا ، ومع ذلك سعينا الى طبع هذه الصور نظرا لأهميتها ·

ــ وفى ثنايا الكتاب يستخدم المؤلف الفاظ : الترك ، والعثمانيين ، والمسلمين ، على نحو تبادلى ، فهو مثلا يقول

طورا : هاجم الترك فينا ، وطورا تراجع العثمانيون عن أسوار فينا ، بل انه فى الباب الأخير يجعل عنوانا لاحدى فقراته : تراجع الاسلام ، وهو يقصد تراجع العثمانيين ، لهذا فقد فضلت توحيد اللفظ الدال ليكون هو اللفظ الوارد فى عنوان الكتاب (العثمانيون) الا اذا كان السياق يقتضى غير ذلك عندئذ استخدمت لفظ الترك .

ـ وهـذا الكتـاب فى جانب منه ، صفحة من تاريخ المسلمين فى شرق أوروبا ، فى بلغاريا ، وفى رومانيـا ، فى يوغسـلافيا وفى تشيكوسـلوفاكيا وفى شـمال شرق اليونان ، وفى ألبانيا ، وفى المجر ، وهم مسلمون بالملايين، عمى تاريخهم الكتاب الغربيون ، وأهمل تاريخهم الكتاب العرب . وهؤلاء المسلمون فى أوروبا ، هم من أهل البـلاد الأصليين ، انهم ألبان وتشيك ويوغسلاف ، ومجر وبلغار ... وليسـوا أتراكا من الناحيـة العرقيـة ، وان تثقفوا بالثقافة التركية .

ـ وقد قسم المؤلف كتابه الى خمسة فصول ، هى :

١ ـ ظهور القوة العثمانية .

٢ ـ بنية الدولة العثمانية .

٣ ـ الحروب ضد الغرب (١٥٢٠ ـ ١٥٨١) .

٤ ـ الأس العثمانى .

٥ ـ بداية النهاية .

وسنعرض فى الصفحات التالية بعض أهم الأفكار التى وردت فى هذه الفصول .

ـ يتناول المؤلف فى الباب الأول ، الظروف التاريخية لظهور القوة العثمانية ، وهـو بمثـابة تمهيـد بين يدى الموضوع ، خاصة بالنسبة للقـارىء الغـربى الذى يفتقد المعلومات عن التاريخ الاسلامى ، فيبين أن انطلاقة الشعوب التركية المونغولية خلال الفترة التى تبدأ منذ حوالى ١٠٠٠

للميلاد ، عندما وصلت لمنطقة الشرق الأوسط استوعبتها الحضارة الاسلامية العريقة • وقد شكلت هذه الهجرات موجات أثرت على أوروبا ، كالموجة الهندية الأوربية ، فالتركية المغولية ، فالموجة التركية مرة أخرى • ثم يتعرض لمعلومات معروفة مطروقة عن امارة أرطغرل وتوسعها ، مبينا جهود أورخان فمراد الأول فى اقرار الدولة والانتقال بها الى مرحلة الاستقرار والعقلانية •• ويعرض المؤلف لمبررات اتخاذ العثمانيين لعقيدة السنة مذهبا ، وما نتج عن ذلك من تسامح دينى ، ويؤكد أن دعم الحكام العثمانيين للمذهب السنى أدى الى ازدهار النظم التعليمية ، ثم يتحدث عن التنظيمات العسكرية العثمانية بايجاز •

ويؤكد المؤلف أن أورخان هو الذى قاد شعبه فى أول فتح لهم فى أوربا ، وأن الترك كانوا منذ سنة ١٣٥٠ يتحركون فى أوروبا كغزاة مستقلين وكمستوطنين •

ثم يتعرض المؤلف بشىء من التفصيل للأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية فى مناطق شرق أوروبا قبل قوعها تحت السيطرة العثمانية ، فهذا الفصل اذن كما سبق أن ألمحنا ، تمهيد بين يدى الموضوع ، وان كان لا يخلو من تحليلات غير مألوفة كقوله ان العثمانيين بتمركزهم فى شرق أوروبا منذ القرن الرابع عشر هم الذين حموا بيزنطة من السقوط على يد امبراطورية الصرب التى كانت قد بلغت أقصى اتساعها على عهد ستيفان دوسان ، وكانت القسطنطينية هى غاية الصرب ، لولا اصطدامهم بالعثمانيين فى أوروبا الذين حالوا بينهم وبين بغيتهم • تحليل جدير بالتأمل ، وافكار غير مألوفة فى الكتابات العربية عن أوربا ، وعن الدولة العثمانية ، على سواء •

— أما الباب الثانى فعن بنية الدولة العثمانية ، والمؤلف لا يغرق فى استخدام المصطلحات العثمانية ، كما ينحو كثيرا نحو الدراسة المقارنة ، وتعرض كثيرا للأفكار الاسلامية ، وقد أخطأ فى فهم بعضها وقد علقنا على ذلك فى

حينه ، وتعيد التعليق هنا • وان كان لابد من أن يقع هذا الباحث وغيره من الغربيين في بعض الأخطاء عندما يتناولون تاريخنا • وعلى أية حال فقد كان من الواضح أن الأخطاء التي وقع فيها صاحبنا ، كانت غالبا عن سوء فهم لا سوء طوية • فالمؤلف يفيض في أهمية علماء الدين السنة كمشرعين محترمين ، يلقون تأييدا من السلاطين ، ويورد نصوصا تضع الشريعة الاسلامية في مكان حفي ، ويذكر أن الرسول عليه السلام كان يقر الاعراف المحلية طالما لم تكن تتعارض مع شرائع الدين الحنيف ، ولكنه يورد نصا يذكر أن أحد فقهاء المسلمين امتنع عن أكل البطيخ لأنه لم يجد طريقة اكله في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم • ولا نجد لهذا أصلا ، وان تصرف بعض المتعنتين على هذا النحو ، فليست هذه سنة الرسول، ولا روح الاسلام وبالتالي فليس من مبرر لسوق مثل هذا للدلالة على جمود علماء المسلمين • ورغم أن المؤلف في الباب الرابع ، وهو مع الكتاب لبه ، وفي الباب الخامس ، عن بداية نهاية الدولة العثمانية ، يتحدث مشيدا بسماحة الاسلام وتسامحه مع الأديان الأخرى ، وبتفضيل الرعايا المسيحيين في البلقان وغيره حكم المسلمين على حكم الكاثوليك ، الا انه يذكر في هذا الباب الثاني ، شيئا عن عدم تسامح الاسلام مع الأديان الأخرى ، والواقع أن الآيات القرآنية التي تحض على التسامح والدعوة والمجادلة بالحسنى خير دليل على سماحة الاسلام • وليس ثمة مقارنة بين ما شهده المسلمون من عنت بعد سقوط غرناطة في أيبيريا ، وبين التسامح الذى لقيه النصارى تحت حكم المسلمين في شرق اوربا او في أيبيريا•

وعند حديث المؤلف عن المسئولين الرئيسيين في الدولة العثمانية يذكر أنهم أربعة ، الصدر الأعظم وقاضي العسكر والدفتردار والنشنجي ، ثم يذكر أن للرقم أربعة دلالة صوفية ، ولا ندرى رقما مقدسا في الفكر الاسلامي ــ ولعل هذا كان من بين أفكار أهل البدع ، ولكن أساسه منعدم في الفكر الاسلامي النقي •

ويذكر المؤلف ان العثمانيين لم يستخدموا القوة لاجبار أحد على التحول للاسلام ، حتى الرقيق - كما يذكر مؤكدا بالأدلة أن الرق في ظل الدولة العثمانية ، وعند المسلمين عامة ، يختلف في وضعه وطريقة معاملته عما هو معروف لدى الأوروبيين ، فقد كان الرقيق في رحاب الدولة العثمانية متمما ، بل ان كل من تسنموا ذروة السلطة في هذه الدولة كانوا رقيقا في الأصل -

ويربط المؤلف بين الصراع الذى دار في الدولة العثمانية بين السنة من ناحية وأصحاب البدع (من ناحية أخرى) وحركة الاصلاح الديني في أوروبا حيث كان صراع بين الراغبين في العودة الى المسيحية في نقائها الأول من ناحية ، وأصحاب البدع (الكاثوليك) من ناحية أخرى، وتلك فكرة عظيمة ، جديرة بأن يحققها أحد الباحثين ويسهب فيها تفصيلا -

ويبدو أن المؤلف لا ينظر باحترام لفرق الدراويش ويسميهم الهراطقة وأورد صورة لأذكارهم التي تتخذ شكل الرقص (انظر الصور في هذه الترجمة) ومما يذكر أن شيوع هذه الخرافات في الدولة العثمانية كان أحد أسباب رفض الحركات السلفية الاسلامية لأسلوب الحياة العثماني -

والواقع أن الخلفيه الثقافية الاجتماعية للمؤلف تجلت أكثر ما تكون وضوحا في هذا الفصل ، حيث يقارن بين الأرستقراطية الأوربية والارستقراطية العثمانية ، وحيث يتعرض لأساليب السلاطين في الموازنة بين القوى العسكرية المختلفة ، وحيث يتعرض للدور السيء للدراويش في الحياة العثمانية -

هذا ما يمكن أن يسمح به المجال في الحديث عن بعض افكار هذا الباب ، الزاخر بالتحليلات الاجتماعية -

ـ أما الباب الثالث ، فيتناول فيه المؤلف الحروب العثمانية الأوروبية في الفترة من ١٥٢٠ الى ١٥٨١ وكان اختيار عام ١٥٢٠ كبداية للفترة الزمنية راجعا الى اهتمام المؤلف بسليمان القانوني ، كما أن تحديد عام ١٥٨١

كنهاية للفترة التي يتناولها في بابه هذا ، راجع الى أن هذا التاريخ كان ذا دلالة بالنسبة لكل الأطراف ، فقبيل هـذا التاريخ انصرف العثمانيون للحروب صوب الشرق لصد التهديد الشيعي للعالم الاسلامي •• وفي هذا الفصل يتحدث المؤلف فيكثر من السلب والنهب كسمة عثمانية ، ويستخدم المـؤلف في هـذا البـاب كثيرا من المصطلحات التي ألفهـا المشتغلون بعلم الاجتماع ، خاصة عند حديثه عن (المجتمع) الاسلامي في مقابل (المجتمع) المسيحي و (المؤسسـات) العثمانية ••• وما الى ذلك •

ويتناول المؤلف الصراع العثماني الأوروبي في جبهتين هما : شرق أوروبا ، وحروب البحر المتوسط •

ومن المعلومات الطريفة التي تناولها ، في هذا الباب أن العثمانيين استقبلوا في كثير من بقـاع شرق أوروبا وجزر البحر المتوسط استقبال الفاتحين وان أهل البـلاد كانوا يفضلون حكمهم على حكم الهيسبرج او الطليان •

ويذكر المؤلف من المعلومات ما يؤكد أثر العثمـانيين في نجاح الحـركة الاصـلاحية البروتستنطية في أوروبا ، وكيف أن البروتستنط كانوا يعتبرون انفسهم كالمسـلمين (محطمي اوثان) • وانها لعمري لمعلومات جديدة ، جديرة بالتأمل والتدبر •

ـ اما الباب الرابع ، فهو من الكتاب لبه ، اذ عنـونه المـؤلف بعنـوان الكتـاب كله ، وهو (الأثر العثمـاني) ويستفتح المؤلف هذا الفصل بالقول بانه رغم أن العثمانيين فيما يقول معظم المؤرخين الأوربيين ، كانوا مصدر الازعاج الأساسي لأوروبا خاصة ، حتى سنة ١٥٧١ ، اذ أدت هزيمة العثمانيين في معركةليبانتو الى تخفيف وطأتهم على أوروبا، الا أن كولز يرى أن « الوجود العثماني في أوروبا قد أسهم في تطور أوروبا بشكل عظيم ، وزامنه » أي زامن هـذا التطور ويناقش المؤلف في هذا الباب عدة قضـايا عامة ، فهل كان العثمانيون بسيطرتهم على طرق التجارة الشرقيـة

عبر مصر وسوريا ، سيما فى توجه البرتغاليين والأسبان للكشوف الجغرافية ؟ ويخلص بنتيجة عجيبة غير مطروقة فى الكتابات العربية عن أوروبا ـ اذ يؤكد أن محاولة البرتغاليين خنق التجارة العثمانية ، هي التي أدت بالعثمانيين الى الوصول الى أوروبا الدانوبية لفتح الطرق البرية للتجارة •

وهل ظلت أوروبا المسيحية بمعزل عن الاسلام ، بمعنى ان الحدود الفاصلة بين المجتمعين الاسلامى والمسيحى ظلت قائمة ، ويرى كولز ان وصول جحافل سليمان القانونى الى فينا ، قد جعل هذه الحدود الثقافية ـ ان صح هذا التعبير ـ غير قائمة ، ثم يتعرض كولز بعد ذلك للتأثيرات العثمانية فى مناطق بعينها ، هى : البلقان وأوروبا الدانوبية ، والمناطق التى حكمها الهبسبرج ، ويتعرض للصراع بين المسلمين والكاثوليك فى البحر المتوسط •

والمؤلف خلال هذا يثير قضايا فائقة الأهمية ، نشير لبعضها هنا مجرد اشارة •

ان تطور فكرة التسامح الدينى فى أوروبا ، ما هى الا تأثير اسلامى لا يحتاج للجاج ، فهو يقارن بين ما حاق بالمسلمين فى الأندلس ، وما كان يتمتع به غير المسلمين فى ظل الدولة العثمانية •

والمؤلف يرى أن الوجود الاسلامى فى البحر المتوسط ، والضغط العثمانى على شرق أوروبا ، وسقوط ممتلكات جنوة والبندقية ، قد أثر فى صياغة تاريخ هاتين الدولتين (جنوة والبندقية) فقد أدى الى توجه اقتصاد جنوة توجها غربيا للعمل فى الميدان الأسبانى والبرتغالى ، كما ادى بالاضافة لعوامل اخرى لسقوط الطبقة الوسطى فى جنوة واحتلال الارستقراطية كما أدى لتغير اجتماعى واقتصادى كبير فى البندقية •

ويؤكد المؤلف في هذا الباب أن الضغط العثماني خاصة في عهد سليمان القانوني ، قد أسهم في انفصال فرعي الهبسبرج ، وبالتالي كان هو - أي سليمان - عن غير قصد ، المسئول عن تطور امبراطورية النمسا التي لعبت دورا خطيرا في التاريخ الأوروبي الحديث •

ويشير المؤلف الى ان خروج المسلمين من أسبانيا ، كان عملا كنسيا . لم يلق ترحيبا من الأسبان ويسوق لذلك أدلة وأمثلة منها أن الحكومة الاسبانية اضطرت في كثير من الحالات لجلب جنود من المانيا والنمسا لقمع ثورات المسلمين في أسبانيا نظرا لرفض ملاك الأراضي الأسبان التعاون معها في هذا الصدد •

ومن خلال هذا الباب تتضح الجهود الكنسية الاعلامية التي تظهر للناس في أوروبا عقائد المسلمين بطريقة خرافية كاذبة ، مستخدمة في ذلك حتى الفن •

(انظر الصور الملحقة بالباب الرابع) •

ويشير المؤلف على استحياء في هذا الباب الى أن كثيرا من الأفكار الاسلامية قد أثرت في النهضة الأوروبية •

انها أفكار جديرة بالتأمل والدراسة خاصة أنها صادرة عن باحث غربي ، ليس ثمة احتمال في انحيازه للمسلمين ، قد أصدر كتابه كما سبق أن اشرنا ضمن سلسلة عن مكونات الحضارة الأوروبية •

- وفي الباب الخامس الموسوم باسم (بداية النهاية) يتعرض المؤلف لتحليلات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية لتفسير بداية انهيار الامبراطورية العثمانية ولعل أروع تحليلاته وأكثرها جدة ، هي التحليلات الاجتماعية والنفسية •

انه يفسر انتصارات العثمانيين المذهلة في أوائل القرن السادس عشر ، بتناحر أوروبا واستغراقها في صراعات بين الأسرات الاوروبية الحاكمة كذلك الصراع الذي حدث بين

الهبسبورج ، وأسرة فالوا الملكية الفرنسية ، وصراعات دينية ، تمثلت بشكل واضح في ظهور البروتستنطية وتحدى الكاثوليكية لها • وفي المقابل ، فان أوروبا عندما تخلصت على نحو ما من صراعاتها تلك ، بصلح أوجزبرج في سنة ١٥٥٥ الذي وضع حدا ولو الى حين لصراع ديني مرير ، وبمساعدة كاتو كمبرسيس التي أنهت الحروب الايطالية ، فانها ــ أي اوروبا ــ قد استطاعت أن تتصدى للمد العثماني ، أو على الأقل لم تتح للعثمانيين مزيدا من التقدم •

وحدث أن عادت اوروبا لصراعاتها في القرن السابع عشر ، ممثلا في حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ ــ ١٦٤٨) وكان يمكن أن تؤدى هذه الحروب الى كارثة باجتياح العثمانيين لأوروبا ، لكن لحسن حظ اوروبا ، كانت الامبراطورية العثمانية في هذه الفترة قد بدأت تعاني من مشاكل داخلية •

ورغم أن المؤلف يركز على العوامل الاجتماعية في تفسير الأحداث ، ويذكر انه لم يعد لائقا بالمؤرخين ان يجعلوا الفرد هو قطب الرحى في تفسير الأحداث التاريخية ، الا انه يعود فيقول ان العامل الفردى يعد من اكثر العوامل فعالية في تفسير الانهيار العثماني ، فبعد سليمان القانوني ، لم تشهد الامبراطورية سوى سلاطين غلبت عليهم نزواتهم وعكفوا في غرف الحريم لا يبغون عنها حولا ، ثم يعود فيقارن هذا الوضع ، بما كان عليه الحال في أوروبا ، فيذكر أن نمو البيروقراطية الديوانية (أجهزة الحكم) الأوروبية كان حائلا يحول بين ممارسة الحكام الأوروبيين لنزواتهم حتى ولو كانوا حكاما مجانين او تعوزهم الخبرة ، ثم يعود فيقول ان الدولة العثمانية أيضا كانت تمتلك أجهزة حكم قوية ، لكن هذه الأجهزة كان عمادها الرقيق السلطاني وهذا جعل القرار في يد السلطان وحده ، ولم يكن من ضير في هذا اذا كان السلطان كفؤا كسليمان، ولكن

الحكام الذين أتوا بعده لم يكونوا بمثل كفاءته • ويتعرض المؤلف للفكر السياسي الاصلاحي في الدولة العثمانية منذ أوائل القرن السابع عشر ، ويقارنه بالفكر السياسي الأوروبي كعادته ، فيذكر أنه منذ أوائل القرن السابع عشر ، والمفكرون العثمانيون ، يحسون ان هناك شيئا ما يجرى على غير ما يرام ، فقد كتب خوجه بك القاضي المسلم المشهور لمراد الرابع مذكرة يبرر بها التدهور بالتخلى عن الكتاب والسنة ، ويطالب بالعودة الى نهج السلف الصالح • ومن الطبيعي ألا يحسن كولز ، فهم هذا ، كغيره من المؤلفين الغربيين ، فهو يتهم العودة للكتاب والسنة على أنها دعوة لعدم التجديد ، وهذا في الفكر الاسلامي غير صحيح ، فالدعوات السلفية الاسلامية ، هي أيضا دعوات تجديد ودعوات تنقية ، ودعوات عودة للأصول الأولى في نفس الوقت •

ثم يبدع المؤلف في التفسير النفسي والاجتماعي للجمود الذى حاق بالطبقة الحاكمة العثمانية في القرن السابع عشر ، فيذكر أن الانتصارات العظمى التى حققها العثمانيون في القرن السادس عشر ، كانت مبهرة لدرجة ربطت المجتمع العثماني عندها ، فلم يستطيعوا تطورا ، ولم يكونوا راغبين في تغيير أساليبهم الحربية والفكرية والادارية القديمة ، لسبب بسيط وهو أنها ارتبطت في عقولهم بالنصر ، ولم يدركوا – أى العثمانيون – ما ألم بالدنيا من تغير •

وكان مراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠) قد بدأ حركة اصلاح كان يمكن أن تؤتى ثمارها لولا موته الباكر •

ومن الأفكار الهامة التى تعرض لها المؤلف في هذا الفصل تاكيده على ان العثمانيين لم يجبروا أهل البلاد الأوربية التى فتحوها على الاسلام ، وهذا يفسر لنا أن اسلام أهل البانيا وغيرهم من سكان شرق أوروبا في رومانيا وبلغاريا واليونان (سالونيكا) ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا قد كان رغبة وحبا لا قسرا وقهرا والواقع أن تاريخ المسلمين

فى شرق أوربا وحاشرهم أيضـــا ، فى حاجة الى دراســة متأنية • هم مسلمون من أهل البلاد ، وليسوا تركا ، وان تثقفوا بالثقافة التركيــة • ولعل الكثير من المعلــومات عن مسلمى شرق أوروبا ، والتى بثها المؤلف فى أكثر من فصل من فصول كتابه هذا ، كانت أحــد الدوافع الـكامنة وراء اصرارى على ترجمته •

ويقول المؤلف : « ان المسلمين السنة كانوا يطبقون مبدأ التسامح الدينى مع المسيحيين » • ما أروع هذا ! • ولكنه يعود فيقول ان جمــاعات الدراويش بذلت جهـودا لادخال المسيحيين للاسلام بالحسنى •

وفى المقــابل يحدثنــا المـؤلف عن مؤامرات المــاليين اليونانيين ، واليهود ـ خاصة ، على المسلمين واسهامهم فى تجويعهم ••• انه جزاء سنمار • ليس من هدف هذه المقدمة تقديم عرض كامل بكل افكار الكتــاب وسرده التــاريخى ، وانما هى مجرد اشارات لبعض أفكاره ، وهى فى جملتهــا أفكار وتعليلات جديرة بالنظر •

وعلى الله قصد السبيل


أوروبا والعثمانيون
البحر الأسود
مراكش

مقدمة المؤلف

يذكر لورد آكتون ان التاريخ الحديث يبدأ تحت وطأة الفتوح العثمانية • وليس هذا الكتاب الا تفصيلا يؤكد حكم لورد آكتون هذا ويبين أغواره •

ومن ناحية التتابع الزمني ، كانت هذه الفتوح قد انطلقت منذ منتصف القرن الرابع عشر ، عندما اقتحم العثمانيون أوروبا ، وتغلغل خطرهم في الوعي الاوربي ، بشكل حاد ، حتى أواخر القرن السابع عشر ، فكما كان فشل حصار فينا الثاني (١٦٨٣) ومعاهدة كارلوفتس (١٦٩٩) تمثلان علامتين على بداية تراجع العثمانيين ، تراجعا اكيدا وان طال أمده وبطؤ — عن فتوحاتهم الأوربية ، ففي المقابل ، كانت السنوات الممتدة من العشرينات الى الثمانينات في القرن السادس عشر ، تلقى اهتماما خاصا اذ كان التهديد العثماني فيها قد بلغ ذروته ، خطورة وكثافة •

لقد انشعب العثمانيون أثناء زحفهم ليعملوا في مسرحين حربيين متسمين بالضخامة ، هما : منطقة شرق الدانوب والبلقان وأوروبا البحر الأسود ، من ناحية ، وحوض البحر المتوسط من ناحية اخرى • وكانت التطورات في هذه

المناطق تحكم تتابع القصة • وعلى هذا فان كتابنا هـذا ، في الأساس ما هو الا دراسة في تاريخ المواجهـة (تاريخ الحــدود frontier history ولأن المعــركة غالبا ما تتخطى منـاطق الصراع المبــاشر ، كان من الضرورى استحضار النتائج المترتبة على ذلك بشكل واسع •

ولم يكن ثمة مناص من الاهتمام بالحروب ، كظاهرة طفت على سطح الروايه التاريخية • وعلى اية حال ، فانني حاولت تنسيق هذه المادة التاريخيـة المتعلقـة بالحــروب ، باعتبارها سجلا لمجتمعات يناقض بعضها بعضــا ، وتناولت هذا من خــلال عمليــات التعــارض والتضارب والتداخل والتغير •

ولقـد قامت الأنسة جوانا باراس ، خبيرة المعلـومات بجامعة برادفورد ، بطبع نسخ عديدة من مسودات هـــذا الكتــاب ، وراجعت عــديدا من المراجع ، بسرعة معجزة ودقة • وقـد أفادني نقـدها لتدارك عديد من الأخطاء في التركيب اللغــوى ، والى اسـتبدال بعض الاســـاليب غير المناسبة • كما أنني ممتن للعناية للسيد رونالد دافيدسون هوستون Davidson Houston في مؤســه Thames Dudson لجمعه الصور والرسوم التوضيحية وتخيره للمناسب • كما كان السيد Stanley Baron محررا صبورا اذ قدم عديدا من المساعدات •

الفصل الاول

ظهور القوة العثمانية

كان انطلاق الشعوب التركية والمونجولية من السهوب الأوراسية Eurasian Steppe ، هو الملمح الذى سيطر على العالم خلال الفترة التى بدأت منذ حوالى سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد - وسواء كان انطلاق هذه الشعوب تسللا هادئا وئيدا ، ام عروا ، فان هؤلاء البداة البرابرة قد أثروا فى كل العالم المتحضر ، فى الغالب الأعم • اذ لم ينج من السيطرة السياسية لغزاة الاستبس (السهوب) هؤلاء ، سوى المناطق الفقيرة وما حولها ، كاليابان والغرب الاوربى الوسيط ، تلك المناطق التى نادرا ما كانت تستحق عناء الفتح • ولا يمكننا مقارنة فتوحات هذه الشعوب التركية والمونجولية من حيث مداها الجغرافى الواسع ، وبعضها البشرى العميم ، الا بفتوحات القبائل والجماعات ذات الحضارة البرونزية ، التى ازدهرت فى الحقبة الممتدة بين القرنين الثامن عشر والخامس عشر قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) حيث استخدم رجال هذه الحضارة البرونزية عربات تجرها خيول •

لكن الحضارة الاسلامية العريقة ، ذات الجذور الضاربة عمقا فى منطقة الشرق الاوسط ، قد برهنت على قدرتها على استيعاب وامتصاص هذه العناصر المقتحمة • وعلى الرغم من ذلك ، فقد استفادت المجتمعات الاسلامية ــ رغما عن معاناتها الشديدة ــ من وصول هؤلاء البداة اليها غزاة ومتسللين ، اذ نجم عن ذلك اختلال العلاقات التقليدية فى

المجتمعات الاسلامية . ومن المسلم به أن تحولات داخلية بعيدة الأثر ، كان لابد من حدوثها في المجتمع الاسلامي — قبل قبول التعايش والتكيف بين الحكام الأتراك الجدد ، وشعوب الشرق الأوسط الأعرق حضارة — بشكل مرضى ، قل هذا الرضا أم كثر . لقد تواكبت الشجاعة العسكرية الفائقة لهؤلاء الغزاة الذين اعتنقوا الاسلام مع رغبتهم فى الدعوة اليه (الاسلام) بطرق جديدة قادتها الحركة الصوفية (١) . وادى هذا لتوسع خريطة العالم الاسلامى توسعا ملحوظا ، اذ وصل الاسلام الى مناطق لم تكن تدخل ضمن حدوده التقليدية فمن ناحية ، نجده يتخذ سبيله الى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ، ومن ناحية أخرى اتخذ سبيله الى آسيا الصغرى وشرق أوروبا . وقد أثرت هذه الموجة العارمة المتمثلة في الغزو التركي ، في أوروبا . فحول سنة ١٠٠٠ للميلاد كان ما يطلق عليه اصطلاحا مد السهوب ، قد تغطي ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرنا من التفاعل المستمر ، حيث كان طوال هذه الفترة ، يتم دفع القبيلة اثر القبيلة من أواسط آسيا لتتخذ طرقها صوب الغرب بحثا عن مراع أفضل . ولقد كانت النتيجة المتوقعة هي ظهور موجة عرقية وثقافية ولغوية عبر آسيا ، كما حدث طوال مراحل التاريخ ، التى شهدت الموجة الهندية الأوربية فالتركية المتولية ، فالموجة التركية كرة أخرى ، وكلها موجات وهجرات لغوية وثقافية وعرقية تتجه غربا ، وبينما كانت اللغات تتغير ، فان التكوينات الأساسية ، اقتصادية ، وسياسية ، وعسكريه ، والتى كان قوامها الفروسية المتحدية — كان لا يعتريها طوال هذا الوقت تغيير ، الا ببطء ممعن . ومع هذا فقد اتخذت المفارق عن الأساليب والطرائق المتحضرة سبيلها ، كثيفة ، الى قبائل السهوب هذه ، خلال تلك الفترة . اذ أن الملاقات الوثيقة بين هذه

---

(١) يستخدم المؤلف هذا اللفظ فى أكثر من مكان فى بحثه هذا بمعنى التنظيمات التى يقوم عليها بعض الدعاة لجمع المريدين والأتباع ، لا بمعنى الجماعات العازفة عن أمور الدنيا — (المترجم) .

القبائل المتبدية والمجتمعات الحضرية والزراعيـة ، عادة ماتكون جذابة بالنسبة للجماعات البدوية التي تتقبل بشغف وقبول حسن ما تقدمه هذه المجتمعات من غلال ومنسوجات ومصنوعات معدنية ، لتسد احتياجات بيئاتها قليلة المطاعم ، التي كان قوام اقتصادها رعيا وصيدا • وقد أدى الاحتكاك التجارى المستمر والتجـارب المكتسبة من العمـل كجنـود مرتزقة في الجيوش المتحضرة الى أن زادت معـرفة هـذه القبـائل المتبربرة بثراء ومغـريات وأعاجيب الحضـارات الجنوبية ، فازدادت في اعين أولئك الخيالة المتاة القـادمين من السهوب ، جاذبية الصين والشرق الأوسـط وبيزنطة •

ولقد كان تسلل الجماعات المتبدية الى مناطق الاستقرار أسهل ما يكون فى الشرق الاوسـط حيث تتـداخل الأراضى الزراعية مع المراعى الجافة على نحو ما ، وفى هذه الظروف يستطيع البداة أن يستمروا فى ممارسة أساليبهم وطرائقهم فى العيش على هامش المجتمعات المستقرة اذ كانوا ينتظرون حتى نهاية الحصـاد ، فيطعمون قطعانهم عـلى ما يتبقى فى الحقول من بقايا النباتات الجافة ومن خشاش الارض • كما كانوا يحققون ذاتهم ويحصلون رخاء وترفا من خلال تكوين علاقات تجارية مع هـذه المجتمـعـات او من خـلال فرض الاتاوات على الزراع أو أهل الحضر • وعلى هذا فان الخط الفاصل بين الاستبس (السهوب) والأرض الزراعية قـد أضحى غير واضح ، وبدات الجماعات الناطقـة بالتركيـة تتسلل بشكل مكثف بين السـكان الايرانيين • وقـد اعتنق هؤلاء الترك الدين الاسلامى وتمثلوا بالعادات والأخـلاق الاسلامية، وان لم يفقدوا هويتهم تماما فى العالم الاسلامى، فقد كان شعورهم بالتفوق والتسلط مرتبطا لديهم بفخرهم ببراعتهم العسكرية وشجاعتهم الفائقـة ، مما أبعدهم عن الاندماج الكامل فى المجتمعـات الأخـرى ، فقـد احتفظوا بلغتهم ، وبحظ وافر من التوجه الحربى لسكان السهوب • وثمة عاملان عارضان يسرا دخول الترك فى العالم الاسلامى كأمة متميزة متفتحة ، واعانا على نجاحهم كقـوة عسـكرية

وسياسية في الشرق الاوسط ، أولهما ، يتمثل في حقيقة أن الترك عندما ظهروا كعنصر هائل القوة في حياة الاسلام السياسية ، كان الحكام الشيعة يسيطرون في اكثر من مكان، وعلى هذا فعندما اعتنق الحكام والقادة الترك الاسلام مالوا الى اختيار المذهب السني ليؤكدوا استقلالهم عن السلطات الشيعية الواقعة بالقرب منهم (١) ، بالإضافة الى ان العقيدة السنية كانت تمثل عصور العظمة الاولى في التاريخ الاسلامي خاصة في عهد الخلافة الراشدة ، وكانت لا تزال هي عقيدة أغلبية المسلمين - لهذا فان مسلمين كثيرين كانوا يعتبرون دخولهم في طاعة الترك هجرا للبدع ، واحياء لسنن السلف • أما العامل الثاني فكان يتمثل في فكرة المسلمين عن الجهاد (الحرب المقدسة) وهي تلك الحروب التي يشنها الغزاة باعتبارهم حماة العقيدة ، والذين ينظرون لبلائهم في ساحة الوغى كواجب مقدس ، فالرباط والغزو انطلاقا من ثغور الاسلام كان يسبغ على دور الترك شرفا يتلاءم تماما مع تراثهم الحربي • ورغم ان الطمع في الغنائم والاسلاب والرغبة في تحقيق الذات ، كان يمثل عند الترك حافزا أقوى من التقوى والجهاد في سبيل الله (١) ، الا أن فكرة الحرب المقدسة جعلت من الميسور للمحاربين الترك ان يحتلوا في عالم الاسلام مكانا حفيا ، وجعلت المسلمين في المناطق الحضرية ينضمون الى أجهزة الحرب التركية ضد جيرانهم من الهندوس والمسيحيين •

لقد شغل احراز الترك للسيطرة السياسية على العالم

---

(١) الواقع أن عقائد السنة بما فيها من بساطة ووضوح هي التي جعلت الترك – وهم بدائيون في الأساس – يعتنقونها ، كما أن الستر والتعقيد في عقائد غير السنة ، قد تسرب الى معظمه من عقائد غير اسلامية ، ولما كان الترك قبل الاسلام على الوثنية في الغالب الأعم ، فانه قد كان اعتناقهم للسنة النقية طريقا طبيعيا – (المترجم) •

(٢) يميل الكتاب الغربيون لتفسير حركة الجهاد الاسلامي منذ فجر التاريخ الاسلامي ، تفسيرا اقتصاديا • والواقع ان المبالغة في هذا خروج عن الموضوعية التاريخية ، فرغم عدم انكار العامل الاقتصادي الا ان ترجيح حركة المسلمين من الرغبة في الجهاد ونشر الدين وكسب ثواب الله (سبحانه) فيه خروج عن الموضوعية والكتاب المسلمون الذين يلحون على هذه الرغبة أكثر من أن يحصيهم حصر – (المترجم) •

الاسلامي مساحة زمنية امتدت من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر ، ثم انقطع التطلع التركى لهذه السيطرة السياسية في فترة الغـزو المغـولى الذى بداه جنكيزخان (١٢٠٦ ـ ١٢٢٧) ثم كان احياء هذه السيطرة السياسية التركية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فكان وصول الموجات التركية الزاحفة الى الشرق الأوسط قدمه من مناطق السهوب قد احدث تدميرا قاسيا لاقتصاد البلاد ، واشاع الفوضى السياسية فى هـذه المنطقة التى تشـمل من العالم قلبه • ومع هذا ، فقد أدى ذلك الى انتشـار الاسلام أكثر مما أدى الى اعاقته •

لقد نتج عن الحروب المتتالية فى قلب العالم الاسلامى ، سيل دائم من الجند المدربين الذين كانوا شغوفين بحروب المعارك لتحقيق الكسب المادى ولفرض العقيدة الصحيحة على العالم المسيحى • كما كان الاضطراب الذى سـاد فى قلب العالم الاسلامى والذى يمكن تشبيهه بدوامة هائلة تبتلع كل شىء فى الهواء ـ يمتص المقاتلين من منـاطق السـهوب (الاستبس) ويجلبهم الى قلب العـالم الاسـلامى ، ويدفع الفائض منهم عبر الحدود •

وهكذا توفر التركيب الأساسى من القوى الاجتماعيـة مما يتيح فرصا ضخمة امام اى أسرة حاكمة مسلمة يكـون لديها القدرة عـلى جلب الاسـتقرار السـياسى فى الشرق الاوسط ، واخضاع هذه الطاقات المتحمسـة لارادة ـــواحدة ، وتأسيس جهاز حرب لا مثيل لقوته لاعلان الحـرب ضد الغرب المسيحى •

وفى الواقع ، فاننا نجد أن السلطة المطلقة والموحدة لم تقم ابدا ، وان كان توحيد السـلطة على نحو جزئى فى يد السلاطين العثمانيين ، يعطينا دليلا على عظمتهم ويفسر لنـا نجاحهم • فقبل قدوم العثمانيين للشرق الأوسط كان عدم الاستقرار والثورات المستمرة هما سمة هذه المنطقة ، بما نتج عن هذا من تخريب لمناطق التى تمثل بالنسبة للعالم

الاسلامي قبله ، فقد عاني العراق وسوريا بفظاعة قبل قدوم العثمانيين . وفي الوقت الذي عانت فيه مناطق العالم الاسلامي الهامة ، وجدنا منطقة الأناضول (١) التي كانت أقل قيمة ، قد أصبحت أقل اضطرابا ، وأصبح لها اهمية كبيرة ، فان انتقال المركز الاقتصادي للعالم الاسلامي الى الأناضول ، تلك المنطقة الملصقة ببيزنطة ، وذات المداخل المؤدية للعالم المسيحي الغربي – قد مهد لظهور قوة اسلامية في هذه المنطقة صار في مكنتها أن تنظم وتشن هجوما شرسا ومتصلا عبر حدود الاسلام الغربية .

لقد كانت الأناضول أو اسيا الصغرى واحدة من الولايات الرومانية الثرية ، وقد سقطت في هوة الفوضى السياسية ، كما حدث للامبراطورية الرومانية ذاتها ، فقد أصابتهما – الامبراطورية والولاية – الملاريا والأوبئة ، خاصة الطاعون ، وهاجمها الفرس والعرب في القرنين السابع والثامن للميلاد غير أن الامبراطورية البيزنطية الغنية قد أحيت في القرن التاسع ما اندثر من هذا الازدهار ، فمنذ القرن التاسع للميلاد ازدهرت الأناضول في ظل الرقابة الامبراطورية المباشرة لتصبح معين قوة بيزنطة ورخائها . لقد كانت الأناضول تنتج من الفاكهة والحبوب والزيتون واللحوم ما كان يكفي الامبراطورية كلها ، كما كان الفلاحون الأناضوليون هم عصب الجيوش البيزنطية ، وخلال القرن العاشر ، تعرضت الأناضول لضغط القبائل القادمة من سهوب تركستان الجافة ، فكانت المعركة الساحقة الماحقة التي لاقتها القوات البيزنطية على أيدي هؤلاء الغزاة في معركة منزيكرت (ملاذكرد) سنة

---

(١) كان العرب يطلقون على هذه المنطقة اسم بلاد الروم ، أو أرضروم ، وحتى بعد فتح القسطنطينية أطلق على العثمانيين اسم الروم ، وكذلك كان يطلق على السلاجقة من قبلهم – (المترجم) .

انظر : عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ، ١٩٧٤ ، ص ٣٦ .

١٠٧١ (١) ، فاتحة عهد جديد ، شهد تقلصا وانحسارا فى الحدود البيزنطية ، بشكل مستمر ، نتيجة لغارات أمراء الحدود الأتراك ، الذين أسبغ عليهم سلاطين السلاجقة ألقاب (الغزاة) باعتبارهم ادوات ضاغطة على الحدود البيزنطية ، وقد حقق السلاطين السلاجقة نجاحا أوليا فى كفاحهم لتجميع عدد القبائل التركية الشرسة فى تحالف عريض تحت سيطرتهم .

وخلال القرن الثالث عشر ، عمت الاضطرابات على نحو ما ، كلا من السلطنة السلجوقية والامبراطورية البيزنطية - فلم تكن بيزنطة قد أفاقت من أحداث سنة ١٢٠٤ ، عندما استجاب المشاركون فى الحملة الصليبية الرابعة لاستدعاء البنادقة فاستولوا على القسطنطينية ونهبوها ، واعقب هذا تمرد ولايات اليونان والبلقان وانشقاقها ، واكتملت سلسلة الكوارث والمصائب التى حاقت بالدولة البيزنطية بانتشار الطاعون يحصد سكانها حصدا فى أواخر الأربعينات من القرن الثالث عشر .

وفى نفس الوقت ، فان جهود السلاطين السلاجقة لفرض النظام على القبائل التركية قد ذهبت أدراج الرياح بسبب ما قام به المغول من سلب ونهب اذ كان المغول قد بدأوا فى شن غارات بربرية قاسية وخاطفة ، وأعدوا الحملات ، وجيشوا الجيوش، موجهين اياها الى آسيا الصغرى مما أدى الى اضعاف قوة السلاطين السلاجقة ، مما مهد لازالتها تماما .

وقد أدى هذا الى تحرر زعماء الثغور (غزاة الحدود) من آخر قيود السلطة المركزية ، ومما زاد من قوة هذه الامارات (المشيخات) الضغط على الحدود البيزنطية ، واستمدت

---

(١) منزيكرت اسم مدينة بأرمينية بالقرب من بحيرة وان ، وعندها وقعت المعركة ، وقد حل العار بجيش رومانوس الرابع ديوجينس ، البيزنطى ، الذى كان يقود جيشا الى الساحل السلجوقى عمدا ، وقد وقع الامبراطور أسيرا فى أيدى السلاجقة ، ثم افرج عنه .

السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٢ م . ص ٨٣٢ ـ (المترجم) .

للانطلاق في شرق أوروبا ، طالما كانت الظروف الجغرافية مواتية . وكانت الامارة التي أسسها أرطغـرل (توفى في سنة ١٢٨١) في الداخل ، مظاهرة لمدينة بروصة(١) المطلة على بحر مرمرة ، من بين هذه الامارات المتعـددة (امارات الغزاة ، والغزاة جمع غاز ، وهو لقب الأمير) التي انبثقت عن بقايا الأنظمة السياسية الكبرى والعريقة في الاناضول، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر .

وكانت امارة أرطغرل هذه هي أصل الدولة العثمانية وهـذه الامارة ـ عـلى صـغرها ـ كانت تحظى بميزتين ، أولهما أنها من الناحية الجغرافية ، كانت بعيدة عن منطقـة الغزو المغولي ، كما أنها من ناحية أخرى كانت بعيـدة عن الامارات التركية القوية، في جنوب الاناضـول ، وجنـوب غربه . وثانيهما ، أن امارة ارطغرل تلك، كانت هي الامارة التركية الوحيدة التي كانت بمثابة رباط ، يواجه المناطق البيزنطية التي لم تفتح بعد ، فسـائر الامارات التركية ، خلا امارة أرطغرل هذه ، كانت قد وصلت في امتدادها الى الساحل ، وعلى هذافقد كانت امارة أرطغرل ذات سحر خاص بالنسبة للمغامرين واللاجئين والجند المرتزقة ، الذين اسال لعابهم فرص الحصول على الغنائم كما كانت ذات سحر خاص بالنسبة للدراويش الباحثين عن المريدين ، وذات سحر خاص بالنسبة للزراع التواقين المحصول عـلى ارض يزرعونها ، والذين انسابوا أمام المغول هاربين لا يلوون عـلى شيء . وبينما كانت الامارات التركية الأخـرى في حالة نزاع بين بعضها والبعض الآخر ، لتقسيم أراضي الدولة البيزنطيـة التي تم الاستيلاء عليها فعلا ، كان الحكام الترك في امارة أرطغرل مازالوا قادرين على تقديم مسـاحات شـاسعة من الأراضي ، أو اتاحة فرص الغنـائم ، لـكل من ينضوي تحت لوائهم .

---

(١) بروصة أو بورسة هي اسكي شهر ، وفيها ولد عثمان بن ارطغرل الذي ينتسب له العثمانيون ـ (المترجم) .

تلك الجاذبية الاجتماعية ، وهذه النزعة التوسعية ، قد مكنت العثمانيين من مد سيطرتهم في آسيا الصغرى ، واقتحام البلقان ، في آن واحد - وكان معنى انشاء دولة عثمانية ذات كيان مهيب ، استمرار التوسع ، بالاضافة الى ترويض جموح الغزاة (المحاربين) ليصبح المجتمع داخل هذه الدولة أكثر استقرارا وعقلانية • وكان هذا التحول من انجاز السلطانين : أورخان (١٣٢٦ ـ ١٣٦٢) ومراد الأول (١٣٦٢ ـ ١٣٨٩) ، كما كان استيلاء العثمانيين على المدن الكبرى ـ كما حدث لبروسة في سنة ١٣٢٦ ، ونيقية في سنة ١٣٢٩ ، ونيقوميديا في سنة ١٣٣٧ ، وادريانوبل(١) في اوروبا في سنة ١٣٥٤ ـ قد ارسى الامبراطورية على دعائم استقرار حضرية • وقد كان لتشجيع العثمانيين لمذهب المذهب السني ضد اصحاب البدع وعناصر الدراويش غير الجديرين بالثقة ، نتيجتان هامتان ، اذ ادى هذا الى التأكيد نسبيا على التسامح الديني مع الرعايا المسيحيين مما ادى الى حصر الاعتراضات والثورات ضد الحكم العثماني من قبل الفلاحين المسيحيين الارثوذكس في آسيا الصغرى والبلقان ، كما ساعد هذا على قيام اهل السنة بانشاء مدارس المساجد التي تمد بصانع علماء ، كانوا خبراء في العقيدة والشريعة كما كانوا منضبطين مهذبين ، مما اهلهم ليكونوا نواة جهاز ادارة مبسط •

على أن الأكثر أهمية في كل هذا ، هو اصلاح النظام العسكرى • لقد كانت الأداة الأولى في قوة العثمانيين هي قبائل البدو الفرسان ذات التسليح الخفيف ، مما يتيح لهذه القبائل سرعة الحركة ، وهذه القبائل هي التشكيلات العسكرية الطبيعية لشعوب السهوب المحاربة ، وقد استبدلت هذه القبائل تدريجيا بتوزيع حصص التيمار وأعيد ترتيب هؤلاء الفرسان وفقا لحصصهم من الاقطاع والتيمار والألقاب ، وقد حقق هذا الاصلاح هدفين في نفس الوقت ، اذ ربط

---

(١) ادرنة في الاطالس الحديثة - (المترجم) .

الفرسان بالسلطان رباطا لا فكاك منـه ، كما فتح شهيتهم لمزيد من الفتـوحات • وقد دعمت ووزنت هـذه القـوى المحمولة (الفرسان) بانشاء الانكشارية وهم فرق من العبيد المرتزقة من مشاة الحرس الامبراطورى (السـلطانى) يتم تجنيدهم او اجبارهم على الخدمة ، وكانوا فى الأساس من بين المسيحيين الذين تحولوا عن المسيحية من الشـعوب الخاضعة للعثمانيين • لقد كان استخدام الجند الأرقاء لتدعيم سلطة الحاكم الشخصية ، سمة من سمات المجتمع الاسلامى وتمليدا واسـع الانتشار منذ وقت باكر • فعادة ما كان الحاكم المسلم يواجه بما يهدد حكمه من قبل العامة والغوغاء ، أو من قبل قبائل محاربين يدعون حق وراثة الحكم ، لذا فان هذا الحاكم يجد فى نفسه ميلا لزيادة عدد حرسه الخاص وتسليحه ، الى أن يصبح هذا الحرس المكون من عبيده (مماليكه) الشخصيين جيشا قائما بذاته •

وقد قام الترك أنفسهم بدور الجند العبيـد فى عهـد الخليفة العباسى المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢) الذى بدأ هـــذا النظام ، وقلده عدد كبير ممن أتوا بعده ، وقد أصبح الترك الآن فى وضـع السادة ، لذا فقـد نقلوا هـذا النظام جمله وطبقوه على رعاياهم الجدد ، وطوروا التزامات ومزايا كل نوع من الخدمات والأعمال التى كان يتعين على هؤلاء الرعايا الجدد فى المناطق المفتوحة ، أن يقـوموا بها • الا أن هـذا النظام لم يتم تطويره وترسيمه حتى منتصف القرن الخامس عشر ، ففى هذا الوقت أصبحت جمـاعة العبيـد التـابعة للسلطان موردا ضخما لملء الوظائف الادارية والعسكرية • وكان نظاما التيمار والانكشارية فعالين كل منهما على حدة، ولا شك أنهما اصبحا أكثر فعالية بعد تزاوجهما والتنسيق بينهما عـلى أيدى السـلاطين العثمانيين • ذلك أن وجـود نظامين يخلق تـوترا دائما بين دعامتى الجيش العثمـانى : الفرسان الاحرار ، والمشاة العبيد ، وهو موقف يمكن للحكام

استثماره لمصلحتهم الشخصية (١) . فقد كان ثمة ضرورة اجتماعية لوجود سلطة تحكم وتحفظ التوازن وتضمن الانضباط بين هذه العناصر ، وكان هذا أحد مصادر القوة لحكم السلاطين العثمانيين المطلق . ففي مرحلة الانتقال من فصائل الفرسان البدوية الى دولة امبراطورية عثمانية ، يبدا أن حكم أورخان كان نقطة حاسمة في تاريخ هذا التطور . ولعل ابلغ رمز لهذا التحول هو النقش الخاص به (أورخان) والذى نقش في مسجده الجديد في بروسة بعد فتحها . فنص هذا النقش يؤكد على استمرارية شخصية الغازى للدولة الجديدة ، كما أنه يؤرخ اتخاذ أول امير عثماني للقب الامبراطور (سلطان) ، فهو « السلطان ابن سلطان الغزاة . الغازى ابن الغزاة - حاكم الآفاق ، وسيد العالم » .

لقد كان أورخان أيضا هو الذى قاد أفراد شعبه في أول فتح لهم في أوروبا ، فقد انتقلوا من آسيا في سنة ١٣٤٥ كجند مرتزقة في خدمة البيزنطيين، لكنهم سرعان ما انطلقوا متحررين من السيطرة الامبراطورية ، اذ انهم منذ سنة ١٣٥٠ تحركوا في اوروبا كغزاة مستقلين ومستوطنين ، فاستقروا وشغلوا الساحل الأوربي لبحر مرمرة ، وسيطروا على تراقيا Thrace المورة وفي سنة ١٣٦٢ اجبرهم الامبراطور البيزنطى على ممتلكاتهم الاوربية . ومن هذه المواقع المميزة انطلق العثمانيون لسد الفراغ الذى نتج عن اضمحلال النفوذ البيزنطى في جنوب شرق أوروبا . وبنهاية الحقبة رسخوا أقدامهم (اى العثمانيين) في بلغاريا ووصلوا للدانوب وجبال رودوب Rhodope وقد جعلهم هذا على درجة عالية من التنظيم في أول مواجهة لهم مع قوة أوربيه ، وتعني بها الصرب .

وكان تحطم وانهيار الدولتين المسيحيتين الهامتين ، الصرب ، في أواخر القرن الرابع عشر ، والمجر ، في اوائل

---

(١) المقصود أن هذا يحدث توازنا استراتيجيا في القوى للسلطة العثمانية — « المترجم » .

القرن السادس عشر ـ نجاحين يحتلان مركزا زمنيا متوسطا في التاريخ الطويل للنجاحات العثمانية في البلقان بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر • فاذا اخذنا في الاعتبار أن اى صراع لابد أن يتعرض لمد وجزر بين القوى المتصارعة، بالاضافة الى انصراف العثمانيين في أحيان كثيرة الى مشاغل أخرى ، اتسح لنا أن هذه الانتصارات العظيمة لابد ان تتلوها فتوحات مرحلية ، فانهيار الصرب هو الذى جعل نهاية بيزنطة وسقوطها ، أمرا محتوما ، كما قدم نموذجا مبدئيا للصورة التي اجتاح العثمانيون على نهجها المجر بعد ذلك • وحتى في منتصف القرن السادس عشر لم تكف العناصر التركية عن التسلل تدريجيا في اوروبا الشرقية رغم أنهم كانوا ما يزالون بعيدين عن السيطرة على كل آسيا الصغرى ، ومن هنا فان الامبراطورية الصربية الضخمة والتي كانت قوية شديدة البأس في ظاهر الأمر ، كانت أولى من العثمانيين في الاستحواذ على القسطنطينية ، والاستحواذ على الميراث البيزنطي ، وكان يبدو أنها ستكون الدرع الأوروبى الواقى في وجه المزيد من التقدم التركى •

وقد كانت مملكة الصرب القديمة مجرد دولة صغيرة تابعة لبيزنطة ، وكانت تشغل موقعا وسطا بين بيزنطة (التى كانت حدودها تضم مقدونيا الحديثة) والمجر (التى كانت تضم في ذلك الوقت ما يعرف الآن بالبوسنة وكرواتيا والشاطىء الشمالى للدانوب) وبلغاريا (التى كانت تضم وقتها نيس Nis واراض تابعة لها غربا) • على أن تدهور بيزنطة في القرن الثالث عشر سمح باعادة تكوين صربيا، وتمركزها حول عاصمة جديدة ، هى أوسكوب U kub ومن هذا المركز توسعت صربيا بسرعة تحت حكم ستيفان دوسان Dusan (١٣٣١ ـ ١٣٥٥) القمال ، الذى اتخذ لنفسه لقب قيصر الصرب والاغريق ، والحق بحكمه كلا من مقدونيا وتراقيا وابيروس Epirus وتسالى Thessaly

وجعل من بلغاريا كيانا تابعا ، ووصل بحدود ممتلكاته إلى سواحل البحر المتوسط المواجه لكورفو ، وإلى بحر ايجة عند سالونيكا ، وقد أرسى دوسان دعائم نظام سياسي وديني ، المبنى ، على النسق البيزنطي ، وأعاد تنظيم الكنيسة الصربية وأحياها لتدعم وتزيد نظام الحكم الجديد ، وكانت اللغة اليونانية هي لغة الادارة وجند للخدمة المدنية موظفين مدربين في بيزنطة ، وتوج صرحه الامبراطوري باعلان مجموعة قوانينه الشهيرة التي عرفت بتشريعات دوسان Dusanov zakonik في سنة ١٣٤٩ .

وعلى الرغم من ذلك فان ذلك الصرح الذي كان يبدو شامخا ، لم يكن في حقيقته الا شبح امبراطورية ، فقد تجلى هذا الوهن والتوتر المريعان امام الضغط العثماني المتزايد، اذ اتضح أن هذا المجتمع الذي كونه دوسان كان هشا ، منقسما على نفسه ، ولم يكن ليقوم لولا الفراغ الناجم عن تراخي الحكم البيزنطي ، فلم يكن اتخاذ امبراطورية الصرب للثقافة البيزنطية منهجا الا قناعا أخفى مؤقتا نزعات الفرقة والتشتت الكامنة في طبقة النبلاء الاقطاعيين الأنانيين ، غير المنضبطين ، والذين لا يمكن الوثوق بهم ، لكن هذا الاخفاء المؤقت ، لم يستأصل جذور هذه الفرقة وتلك التشتت ، فقد كان كثيرون من هؤلاء الزعماء الاقطاعيين والنبلاء ميالين الى السلطان العثماني ، خلال أزمة سنة ١٣٨٩ ، وحتى تشريعات دوسان كانت في حقيقتها ـ عند تأملها بامعان ـ اقطاعية في مضامينها الأساسية ، ولم تكن بيزنطية الا في شكل صياغتها . فالمراكز الحضرية ، مثل اوهريد Ohrid وسالونيكا وكافالا Kavala قاومت بشراسة الاندماج في دولة ذات كيان وحدود . وكان الصراع الاجتماعي الداخلي بين النبلاء والفلاحين قد اتخذ طابع الحدة نتيجة انتشار الطاعون بعد سنة ١٣٤٦ مما سبب نقصا شديدا في القوى العاملة ، وقد أدى هذا بالتالي إلى قسوة طلبات وتجاوزت الأوسطقراطية .

وكان حجم امبراطورية الصرب الهائل ، قد أخفى عن الأنظار حقيقة ضعفها الاستراتيجي ، فقد كانت الدولة تقوم على مناطق يخترقها طريقان متقاطعان للتجارة الدولية والمواصلات : الطريق الممتد شرقا وغربا من راجوسا (الآن دوبروفنك Dubrovia) عبر نوفيبازار Moubazar ونيس Nis وصوفيا Sofia وفيليبوس بوليس Philippolis وأدريانبول Adrianopole (أدرنه) الى القسطنطينية ، والطريق الممتد من الشمال الى الجنوب ، هو ممر موارفا Morava ـ فادر Vadar الذي يربط ملتقى الدانوب وسافا Sava عند بلجراد بيحر ايجه عند سالونيكا • وكان المحور الأساسي للامبراطورية هو منطقة تقاطع الطريقين المذكورين انفا ، مما يمكن الغزاة من الوصول الى قلب امبراطوريه الصرب بسهولة ، من الشمال ومن الغرب ، ومن الجنوب ، واذا ما حدث أن فقد القلب مثلا في هذه المنطقة ، سقطت المناطق الأخرى المعتمدة عليها ، تباعا دون أن يكون هناك مجال لمناطق أخرى يمكن اللجوء اليها لتنظيم مقاومة أو اتخاذ مواقف دفاعية أو هجومية مضادة ، بالاضافة الى أنه لم يكن ثمة ولاءات محلية عميقة يمكن للحكام الصربيين الوثوق بها عند الهزيمة •

وانطلاقا من هذا الواقع الاجتماعي والجغرافي ، كان الحل الوحيد الفعال المتاح للمملكية الصربية ، لمشاكلها تلك، هو ما لجأت اليه المجر في أوائل القرن السادس عشر ، ألا وهو انشاء جيش من المرتزقة ، لكن الموارد الصربية كانت تضيع هباء في تقاليد بيزنطي زائف ممثلا في حملات البلاط الفاخرة ، وتشييد كنائس فاخرة المباني ، وبيروقراطية تدعو للسأم • وكانت هذه الرفاهية مقبولة عندما كان السلب من المناطق الحدودية ممكنا ، مما يتيح الانفاق على العسكريين المحترفين ، ولكن غزوات دوسان ، كانت قد وصلت أقصى حدودها ، وبالتالي لم يعد من الممكن الحصول



رسم فرنسي يعود لسنة ١٥٠٠ يبين مضيق القسطنطينية وكيف هاجم العثمانيون
بالقوات البحرية والبرية في فتحها سنة ١٤٥٣



حذبه تركيه تلبسه يوضح التدرج
الذي تعرضت له ملابس
التركي بالتدريج



الزي الرسمي للمكلوك



الحصار العثماني لفيينا



في فترات توقف الضغط العثماني على أوروبا عادة ما كانت الجيوش العثمانية تخوض غمار الحروب في الشرق خاصة ضد فارس وفي الصورة نجد القائد العثماني يدخل مدينة تفليس (عاصمة جورجيا التابعة الفارسية) وذلك سنة ١٥٧٨ . وقد تقدمته كتائب الانكشارية

على مزيد من الأسلاب . وعندما وصلت حملات دوسان الى اقصاها ، وبلغ توسعها مداه ، وجدت امبراطورية الصرب نفسها ملاصقة للوجود العثماني حيث كان صدام مهول مع العثمانيين الذين اصبحوا بالعمل يشحذون عدة بين امبراطورية الصرب وضحيتها التالية بالضرورة ، ونمنى بها بيزنطة . ووصل الأمر بعد موت دوسان في سنة ١١٥٥ ان سحق العثمانيون الصرب ، نتيجة لما حاق بها من تخريب وتمزق . فقد هزم العثمانيون الصرب عند نهر ماريتس Maritza في سنة ١٢٧١ ، كما حسرت صربيا لصالح العثمانيين مناطق بلغارية شاسعة ، ومعظم مقدونيا ، ووقعت نيس Nis في أيدى العثمانيين في سنه ١٢٧٩ . وبدأ العثمانيون بعد هذا في تأكيد فتوحاتهم في البلقان باحتلال منطم لثيرتان وبلغاريا ، وفي سنة ١٢٩٦ عاد العثمانيون للتركيز على مشروعاتهم الهمة ، والتى لم تكن قد انجزت بعد ، في اسيا الصغرى ممثلة في حصار القسطنطينية ، والاجهاز على الامبراطورية البيزنطيه . وقد حارب البرجنديون وحلفاؤهم في حملة Nicopolis الصليبية سنة ١٣٩٦ لاجبار السلطان على رفع الحصار الأول عن القسطنطينية ، الا أن هؤلاء الصليبيين واجهوا الهزيمة امام القوات الاسلامية . وكان الحصار الثاني للقسطنطينية في سنة ١٤٠٢ ، الا أن العثمانيين اضطروا لرفعه عندما قام القائد المنولى تيمورلنك Tamerlane بغزو آسيا الصغرى ، وكان الخراب الذى خلفه تيمور قد شكل مشكلة خطيرة طويلة الأمد كان على العثمانيين مواجهتها باعادة تعمير مناطقهم في هذه الأنحاء . وقد شغل هذا العثمانيين ، مما أتاح لشرق أوروبا أن تجدد مقاومتها للتقدم العثماني . وقد حمل اسكندر بك Scander beg في ألبانيا ، وجون هنيادى Hunyadi في ترنسلفانيا ، ونيابة عن المجر ـ على عاتقيهما هذه المهمة . ولم يتمكن العثمانيون من اعادة حصار القسطنطينية الا بعد أن هزموا هنيادى في المعركة الثانية المعروفة بمعركة كوسوفو

Kosovo في سنة ١٤٤٨ ، فقد تمكن العثمانيون من تطويق القسطنطينية في سنة ١٤٥١ ، واستعموها في سنة ١٤٥٣ . وقد ادى سقوط بيزنطة الى موجة من اللاجئين، كما ادى الى موجة من الرعب واليأس والصدمة في العالم المسيحي . لقد اصبح بقاء المناطق الاوروبية ، التي فتحها العثمانيون ، في قبضتهم ، أمرا مضمونا ، بعد فتح القسطنطينية ، التي كانت هي القاعدة الاستراتيجية الوحيدة التي كان يمكن للعالم المسيحي استخدامها ضد العثمانيين . وبنفس القدر كانت هيمنة الامبراطورية العثمانية على سلطنة المماليك في مصر وسوريا في سبيلها للتحقيق، رغم ان القاهرة لم تكن ضمت رسميا للقسطنطينية (اسطنبول) حتى ١٥١٦ / ١٥١٧ ، عندما قام السلطان سليم (القاسي) أخيرا بتحطيم المقاومة المملوكية في ساحة الحرب. وكان سقوط القسطنطينية من وجهة نظر العثمانيين ليس مجرد نصر عسكرى عظيم ، فلم تكن القسطنطينية مدينة عادية ، بل عاصمة كبيرة ، ومركزا لشبكة مواصلات تجارية واسعة وممتدة ، وقاعدة ادارية ، غير انها تفسخت في القرون الاخيرة . وها هي بعد ان وقعت في ايدى العثمانيين أضحى من الممكن بعثها من جديد لخدمة أهداف السادة الجدد (العثمانيين) ومصالحهم . ولوقوع القسطنطينية موقعا وسطا بين آسيا وأوروبا ، أصبحت هي العاصمة الطبيعية للامبراطورية العثمانية التي تمتد ولاياتها في القارتين . فرغم استيلاء العثمانيين على مراكز حضرية كثيرة — قبل استيلائهم على القسطنطينية — أثناء فتوحات القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر ، ورغم ترسيخ دعائم الاصلاحات الادارية التي قام بها أورخان ومراد الأول ، الا ان العثمانيين كان يمكن وصفهم قبل سنة ١٤٥٣ (سقوط القسطنطينية) بأنهم في الأساس مجرد فصائل وجماعات شرقية ، يتحركون عبر الديار التي وطؤوها دون منطلق أو نقطة ارتكاز ، الا أنه بعد استيلائهم على القسطنطينية تحولت الدولة العثمانية الى واحدة من أعظم

امبراطوريات التاريخ التي التحمت فيها قوة المنتصر وجمال الفنون ، وتمثلت فيها عمليات التماسك والاندماج بشكل أكثر ما يكون وضوحا في توسيع واتقان نظام الرقيق السلطاني (عبيد البيت السلطاني) خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فتلك كانت هي الفترة التي تم فيها تنظيم ضريبة الأطفال البلقانيين ، اذ تم الحصول عليهم بأعداد كبيرة لسد حاجة الدولة الماسة للعسكر والاداريين كما أن سقوط القسطنطينية حقق للعثمانيين هيمنة على مضايق البحر الأسود وهيأ لهم مخزنا ضخما للمواد الغذائية والتموينات ، والقوى العاملة ، ممثلة في العبيد ·

فخلال أوائل القرن الخامس عشر ، كانت المستعمرات التجارية اليونانية والجنوية على شواطيء البحر الاسود تمارس التجارة المربحه مع أوروبا ، في الحبوب والخيول والرصاص والأسماك، كما تتاجر أيضا ـ اذا اتيحت الفرصة ـ في العبيد الروس ، وعندما تمركز العثمانيون في القسطنطينية خنقوا هذه التجارة ، وحولوا أسماك وغلال وأخشاب اوروبا البحر الأسود لتمويل القسطنطينية (اسطنبول) وبناء اسطول هائل · وفي سنة ١٤٧٥ استولى الأسطول العثماني على كافا Caffa، المرفا الجنوى الرئيسي، كما استولى على موانيء اخرى هامة في البحر الأسود ·

وقد أجبر تتر شبه جزيرة القرم Crimean Tartars على التعايش مع العثمانيين ، أولئك المحتلين الجدد للمدن الساحلية . والذين كان بأسهم شديدا ، فمنذ سنة ١٤٨٠ ، زادت غارات تتر شبه جزيرة القرم على بولندا وأوكرانيا للحصول على الرقيق ، زيادة كبيرة ، وكان ضحايا هذه الغارات يشحنون جماعات من موانيء البحر الأسود ، ويوجهون جنوبا الى اسطنبول ، حيث يستخدمون في تحقيق أهداف العثمانيين في جلب السرور والكبرياء وتحقيق الأغراض الامبراطوريه ·

لقد كانت بيزنطة هي روما الثانية ، ليس بالمفهوم السياسي فقط ، وانما من حيث التنظيم الاكليريكي أيضا ·

وكان عدم مقـدرة الكنيسـة اليونانية الأورثوذكسـية في الوفاق مع البابوية ، سببا كافيا لفشل قوى المسيحية الكبرى في الغـرب ، للتحرك لاسـعاف الامبراطورية البيزنطيـة المحتضرة خلال حصار العثمانيين للقسطنطينية فيما بين عامى ١٤٥١ و ١٤٥٣ • وبسـقوط القسطنطينية أصبح قدر المسيحية اليونانية الأورثوذكسية بأيدى العثمانيين • وكان تصرف محمد الفاتح (الثانى) بعد الفتح ، مقياسا لمـدى النقلة الحضـارية التى حققهـا العثمانيـون مبتعدين عن تراثهم البدوى •

لقد رأينا كيف استعان السـلاطين العثمانيـون الاول بالعلماء (علماء الدين) فى محاولة منهم لتحـويل امارات قطاع الطرق التى كانت تمارس نشاطها فى المناطق الحدودية الى امبراطورية اسلامية كبرى• وكان لهذا تأثيران غريبان، فمن ناحية ادى هـذا الى تعزيز مكان الشريعة فى الحيـاة العثمانيـة ، مما مكن علمـاء الدين من توسيع الخرق بين المسـلمين والمسيحيين ، ذلك الخرق الذى كان فى أضـيق الحدود ، خلال الحقبة الاولى من التوسع العثمـانى ، عندما كانت هرطقـات الصوفية غالبـا ما تتداخـل مع العقيـدة المسيحية ، ومن ناحية اخرى ، فانه ، مهما كان الأمر ، فان الشريعة الاسلامية نفسها كانت تدعو للتسـامح مع أهـل الكتاب ، ولا تحث الا على جدال النصارى واليهود بالتى هى أحسن ، وقد أدى هـذا الى كبح جمـاح هؤلاء الغزاة ، فلم يمعنوا فى الاندفاع المتهور ضد غير المسلمين • ولهذا ، فانه بانزواء الغزاة العظام الذين سادوا العهود العثمانية الأولى، ليحل محلهم عبيد الحرس السلطانى ، وعلماء الاسلام السنة ـ انحسر تحول المسيحيين الى الاسلام ، الا من حالات فردية اقتصرت على رافد واحد ، هو الخدمة فى الحرس السلطانى•

وكان احتمال التحول للاسـلام فى المنـاطق النائيـة والجبلية كالبوسنة حيث تفشت العقيدة المانيشية Manichean والبوجومالية Bogomilism احتمالا سهل التصور •

وفى كريت وألبانيا ، حيث أدت الحروب المحلية المتوالية ـ الى خلق روح مشابهة بروح الغزاة الفاتحين القدماء ، الى تحول ملحوظ من المسيحية الى الاسلام ، بعد القرن الرابع عشر • وقد أدى عدم انتشار الاسلام بالقدر الكافى ، الى خطر واضح ، مؤداه أن الامبراطورية العثمانية برهنت على عدم قدرتها على صبح جماهير الرعايا المسيحيين الأورثوذكس الذين انضووا تحت لوائها فى البلقان ، الا أن فتح القسطنطينية قد هيأ حلا مناسبا لهذه المشكلة ، فقد كانت المدينة قاعدة بطريارك الأورثوذكس اليونانيين، لذا فقد قام محمد الفاتح بتنصيب القس قناديوس Gennadios المشهور بعدائه المرير للكاثوليكية ، والذى كان يحظى بشعبية واسعة ، كبطريارك للأورثوذكس ، بل ان محمدا الفاتح قد اقر الامتيازات والحصانات التى كانت الكنيسة الأورثوذكسية تتمتع بها فى ظل الامبراطورية العثمانية . وزاد عليها مما جعل الكنيسة الأورثوذكسية أكثر سعادة فى عهد الدولة العثمانية منها فى العهد البيزنطى ، وتم تدعيم نفوذ البطريارك بسلطات تشريعية واسعة خاصة فى مجال قانون الأحوال الشخصية الذى طبقه على جميع رعايا السلطان المسيحيين • وفى الواقع ، فان محمدا الفاتح كان يقصن لقيام حكم ثنائى ، فرجال الدين المسيحى (الاكليروس) أصبحوا الصورة المقابلة لعلماء الدين المسلمين ، اذ كانوا يمارسون سلطة على المسيحيين ، تماثل ما يمارسه علماء العقيدة والشريعة المسلمين على المسلمين • وقد نظم السلطان علماء المسلمين تنظيما طبقيا (هيراركيا) ، وأتبعهم لنظام ادارى دقيق ، أكثر مما فعل حاكم مسلم سبقه ، وكان فى هذا متأثرا بالتنظيمات المسيحية • وهكذا ترسخت دعائم الدولة العثمانية وزادت صلاحيات سلطات السلطان الشخصية •

الفصل الثانى

بنية الدولة العثمانية

رغم أن هذا الكتاب يهتم بتأثيرات العثمانيين ــ فى عصر فتوحاتهم العظيمة ــ على أوروبا ، اكثر من اهتمامه بتاريخ الدولة العثمانية ذاتها ، الا انه من المحال ــ فى الحقيقة ــ فصل الموضوعين بعضهما عن البعض الآخر • اذ أن تكوين المؤسسات الاجتماعية العثمانية وتطورها ، يساعدنا فى فهم التأثيرات العثمانية ، من حيث طبيعتها وعمقها ومدى امتدادها •

ففى نهاية الفترة التى تدرسها وهى نهاية القرن السابع عشر ، كان المد العسكرى العثمانى الواسع المدى ــ والذى كان ملمحا مميزا للنظام العثمانى ــ قد حقق أقصى درجات نجاحه ، وفى نفس الوقت كان قد استنفد طاقاته تدريجيا • فقد كان شق من المجتمع العثمانى قد تحجر وتجمد فى نهاية هذه الفترة ، كما أن قطاعات منه قد بدأت تتأثر بثقافات شعوب مختلفة ، بصورة جعلتها تتكيف مع الثقافات السائدة فى الملكيات ذات الطابع البيروقراطى التى بدأت تسود الغرب الأوروبى ، لكن خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر جدنا أن هذه الامبراطورية (العثمانية) التى تمتزج فيها بصورة مدهشة الهمة والبصيرة الادارية بالنزوات الاجتماعية العارمة ــ كانت تختلف عن المجتمعات الأوروبية التى انفتحت عليها فى كل ما هو أساسى • وتبعا لذلك فان أى تحليل موضوعى لبنية الامبراطورية العثمانية

خلال تلك الفترة ، ينبغي أن يلقي الضوء على وجوه الخلاف والتباين •

• الاستخدام الشائع لمصطلح (بنية) أو (تكـوين) يمكن أن يعطي انطباعا بأنه لا يشمل الا ما اتصف بالديمومة أو على الأقل ماطال بقاؤه، أكثر مما يعني المؤسسات والتنظيمات التي كانت في حالة تطور سريع - وليس الأمر كذلك - ففي تاريخ الامبراطورية العثمانية ، كان التغيير دائما مسيطرا، حتى في اواخر القرن السابع عشر • لقد كان التغيير أمرا حتميا لا فكاك منه ، حيث الحوادث تترى مسرعة في حركتها، وما يتأتى عنها ، وحيث المشروعات الضخمة الملفتة للنظر ، وحيث الانتصارات والنكبات • وفي ظل هذه الظروف كان حتما أن تتغير بسرعة ، هويات الجماعات والمؤسسات ، وكان حتما أن تتعقد العلاقات فيما بينها •

وعلى هذا ، فعند فحص بنية الامبراطورية العثمانية ، فان الأمر الوحيد المفيد هو تتبع القـوى الاجتماعيـة • من حيث تكويناتها الأساسية وتفاعلاتها ، وهذا أهم من وصف اشـكال هـذه التكوينـات من الخارج ، أو تتبع الاجراءات الرسمية ، فالتـاريخ لا تصنعه اللجـان ، وانما تصـنعه ـ أكثر ـ قوى الضغط الاجتمـاعي ، ونبض المجتمع هـو الذي يصيغه وينظمه (أي التاريخ) • تلك هي العـوامل البنيوية الحقيقية •

لقد كان المجتمع العثماني يتحلق حول مؤسسة مركزية هي السلطنة ، تكيف معها ، وتشكل بشكلها • ومن الناحية التاريخية ، كانت هذه المؤسسة الملكية (او الحاكمة) تعتمد على دعائم ثلاثة : السلطان ، كقائد في المعركة ، ومشرع ، بالاضافة لوظيفته الدينية (خليفة المسلمين) ، ولقد وزع السـلاطين العثمانيون اهتماماتهم في كل هـذه المجـالات الثلاث •

لقد كان الغزو المستمر هو قانـون الحيـاة بالنسـبة للمجتمع العثماني ، فالسلاطين يظهرون في ضـوء التاريخ

العثماني المسجل كقادة للجيوش الغازية ، وحتى عندما أصبح للامبراطورية عاصمة وأضحت تحكم من خلال نظام اداري دقيق ، فانها ظلت غالبا في حروب مستمرة ، وفي رباط وعسكرة واسعة ، أكثر مما تقبله دولة بالمفهوم الأوروبي • حتى عندما وصل للسلطنة في أواخر القرن السادس عشر ، سلاطين كسولون مرفهون ، فانهم رغم هذا كانوا قادة لهم دورهم الفعال في ميادين المعارك ، فعادة ما كانوا يغادرون اسطنبول مع الجيش كل ربيع ، ويخوضون المعارك في الصيف - ومن المفيد أن نقارن بين رحلات سلاطين القرن السادس عشر العظماء، مثل سليمان القانوني (الفحص) وحكام أوروبا المشاهير المعاصرين لهم كالامبراطور شارل الخامس • فشارل لم يكن يتراجع عن التزامات منصب الجنرال (منصب القيادة) وان كانت رحلاته في الأساس لأهداف ملكية اذ كانت تهدف لتدعيم الحكومة ، واصلاح حالها ، وتدعيم الترابط بين ممتلكات الدولة المتناثرة • فقد كان شارل يتهادى من عاصمة اقليم الى عاصمة اقليم آخر ، يصحبه بقظ ، محاطا بالموظفين والحاشية ، يصغى لرعاياه . ويعقد الاجتماعات ، ويستقبل السفراء ، ويبحث في الالتماسات المقدمة له ، ويتبادل الرسائل ، وما هكذا كان سليمان القانوني ، فقد كان يقضي الشتاء في الأعمال الادارية ، ونادرا ما كان يخرج في هذا الوقت من اسطنبول ليزور عواصم الولايات ، وفي كل صيف يجد سليمان نفسه بعيدا عن عاصمته مع جيشه على حدود الامبراطورية منشغلا بالتحصينات وميادين المعارك ، ونادرا ما يقيم في المدن والمراكز الادارية ،فالمعارك والتحصينات هي مقياس التقدم عنده ، وهي أهم من المدن والمراكز الحضرية •

لقد كان الترك الأولون ، كزعماء قبائل الغزاة ، يقدرون الزعيم كواضع للقوانين (كمشرع) ، وكان الزعماء يتخذون قرارات قاطعة ، وكان هذا ضروريا لحسم أى نزاع ، وانهاء أى مناقشة ، ولتقسيم الأسلاب • فتطبيق العدالة بصرامة بالغة كان ضروريا لاستمرار تماسك هذه

الفصائل المحاربة ، لاعطاء قوة دافعة لجيوش السلب والنهب هذه • ولكن السياسة التي اتخذها حكام القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والتي كان مؤداها ، الارتباط الوثيق بعلماء الدين الاسلامي الخبراء في العقيدة والشريعة والذين كانوا يمثلون أفكار اهل السنة ـ قد غير الموقف ففي الحضارة الاسلامية ليس ثمة فاصل بين الدين والدنيا ، أو بين القانون والدين ، فقد حكم محمد (صلى الله عليه سلم) مكة والمدينة، مقرا الاعراف المحلية طالما كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يراها جيدة ، ولكنه غيرها بحكمة عندما تراءى له أن ذلك افضل (أو بوحي من الله سبحانه) ، وما سلمه محمد (صلى الله عليه وسلم) لأجيال المسلمين من بعده ، ممثلا في السنة، كان يغطي مجالات مختلفة ، كالصلاة والوضوء وتوزيع الصدقات والزكاة والصيام والحج والمعاملات والتوريث والزواج والطلاق وتحريم المسكر ، والجهاد والصيد ، والطاعة والرق (١) ، وكان من نتيجة ذلك وجود مجموعة تنظيمات وقوانين متشابكة ولكنها غير منظمة ، ولم تكن هذه القوانين كثيرة بما فيه الكفاية لتكون قانونا يأخذ شكل أحكام مرتبة (والواقع أن القرآن الكريم ما فرط في شيء ، كما أن السنة المشرفة ، قام عليها بعد هذا علماء أجلاء فرتبوها وصنفوها وحققوها) (٢) • ولقد كان لهذه التنظيمات والقواعد (الواردة في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام) من الأهمية ما يفوق القوانين كما يفهمها الغربيون ، بمعناها المحدود القريب التناول، فقد كان للسنة قوة الأوامر الدينية ، وقد لخص باحث معاصر هو د•ب• مكدونالد MacDonald هذا الوضع على النحو التالي :

« القانون الاسلامي (الشريعة الاسلامية) بأكثر معانيه تجريدا ، يتناسب مع القول القديم ، وهو علم

---

(١) لم يقض الاسلام على الرق ، وانما أوصى بمعاملته بالحسنى ، وأوجد سبلا لعتقه ، ويرغم ان المؤلف لم يقل غير هذا ولكن التنويه هنا لازم ـ (المترجم)

(٢) ما بين القوسين ، اضافة من المترجم •

كل شيء ، ما هو انساني ، وما هو الهي ... فهو (القانون الاسلامي) يتناول كل الواجبات بتفرعها ، ويعرف كل الأفعال في صيغ الواجبات ، فلا شيء يمكنه الافلات من ثقوب شباكه الضيقة ، فأحد الفقهاء الكبار في الاسلام لم يأكل البطيخ لأنه لم يجد طريقة أكله في السنة من النبي (صلى الله عليه وسلم ..) (٣) .

فتأييد علماء الدين المسلمين ، هو الذى جعل سلاطين آل عثمان يمثلون قمة النظام التشريعي والديني ، وقد استخدم السلاطين هذا من خلال سلطات واسعة ، في كل حقل من حقول النشاط الانساني ، مما أضفى عليهم وصمية دينية وقوى من مركزهم . وكان السلاطين حريصين على توسيع نطاق ذلك واستشاره ، كلما أتيح لهم ذلك ، ففي سنة ١٥٣٨ أضاف سليمان القانوني (الفاخر) لقب خليفة الى قائمة القابه الرفيعة . وفي سنة ١٦٨٣ ، وجدنا محمد الرابع ، الذى كان أقل من سليمان اهتماما بشئون الدولة ، يقطع رحلة صيده الدورية ، لكي يسافر للمجر ، لاتجاز عمل ذى طابع ديني ، وهو تقليد وزيره الأكبر قره مصطفى الرداء التقليدى الذى يجعل منه قائدا رسميا لقوات المسلمين في جهادها ضد المسيحية . واذا ما أمعنا النظر ، فان هذا النظام الثيوقراطي ، الذى طوره العثمانيون ، قد قيد من قوة السلاطين ، أكثر مما أطلقها ، اذ لم يكن في مقدور أى حاكم أن يغير الشريعة أو يتعدى عليها . وعلى هذا فان المراسيم الامبراطورية ، كانت تأويلية في طبيعتها (اجتهادية) تكيف الشريعة مع الحاجات الجديدة والظروف المتغيرة . ورغم هذه القيود فقد أمكن انجاز كثير من القوانين ، فسليمان القانوني (الفاخر) كان اداريا مميزا ذا فعالية وهي وتأثير ، اذا ما قورن بكل السلاطين . فقد أصدر كثيرا من القوانين والاجراءات والتنظيمات المفصلة

---

(٣) لا ندري لهذا أصلا ، وإن ورد مثل هذا فلا شك أنه نوع من التعنت ولا يمثل روح الاسلام السمحة ، ولا توجيهات الرسول المصطفى عليه السلام — (المترجم) .

(الفرمانات) التى تناولت حيازة الأرض وميراث الممتلكات وواجبات الموظفين العموميين واوضاع الخدمة العسكرية ، وقد عرف بين رعاياه باسم القانونى • فعلى الرغم من اعتراف السلاطين بسيادة الشريعة وخضوعهم لأحكامها ، فقد كان المجتمع العثمانى معافى من الامتيازات المكتسبة ومراكز القوى التى تحد من سلطة الحاكم على النحو الذى كان سائدا فى اوروبا ، فمبدأ المساواة المطلقة بين جماعات المؤمنين ، الجم المصالح الأسرية ، كما ان نظام التيمار يحرم توريث الاقطاعات ـ فكان أن حال ذلك دون نشأة واستفحال طبقة أرستقراطية قوامها ملكية الأراضى ، لها مصالح خاصة ، ووجاهة اجتماعية تؤهلها لمعارضة السلطة المركزية •

لقد نظم سكان المدن والقوات المسلحة فى الامبراطورية العثمانية ، بطريقة ملائمة ، فى روابط (جمع رابطة) مهنية وحرفية ، وجمعيات للتجار والصرفيين ، وروابط رجال البحر والقراصنة • كذلك نظمت الفئات الاخرى بطريقة مشابهة ، كانكشارية اسطنبول ، ومشاة المماليك فى مصر ، وحتى عنصر الدين الاسلامى الذين كانوا يمارسون كثيرا من الأمور القضائية والادارية ، وكانت كل رابطة أو جمعية من هذه الروابط أو الجمعيات بمثابة تنظيم دينى اسلامى بالاضافة لكونها تنظيما مدنيا ، فقد كان لكل رابطة مرشدها الروحى ، ولما كان السلطان يرأس ويوجه النظام الدينى ، فان هذه الروابط والجمعيات معا ، كانت تمثل أخوة لها نقاء وتأثير ، وكانت ـ اى هذه الروابط ـ فى العموم سريعة الاستجابة ومطيعة لرغبات رئيس الدولة • وقد ساعد التراث الاسلامى القوى والعميق على الاذعان المطلق للسلطان ، فرسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو القائل : « ان من طاعة الله أن تطيعونى وان من طاعتى أن تطيعوا أئمتكم » (١) وحتى اذا كان الحاكم مستبدا غير عادل ، فان ازاحته يتكفل بها الله (سبحانه)

---

(١) مسند الامام احمد بن حنبل ، باب ٦٢ ، مجلد ٣ ، ص ٦٢ ـ (المترجم) •

ولا تقع على عاتق رعاياه ، فثمة توجيه اسلامي مؤداه انه « اذا كان الحكام صالحون ويحكمونكم بالعدل فستنالون ثوابا ، أما اذا مارسوا الشر واساءوا الحكم فسينزل الله بهم العقاب ، وتكونوا أنتم بهذا راضون » . وعلى هذا في النظرية والتطبيق ، كانت ارادة سلاطين آل عثمان في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ارادة مطلقة ، تعوق أقصى آمال وخيالات الحكام الأوروبيين المعاصرين . فيمس ملاحظات سليمان القانوني لسفير النمسا في سنة ١٥٣٤ ، والتي كانت متعلقة بمملكة المجر ، والتي كانت في حالة حرب مع العثمانيين توضح وعيه (اى وعي سليمان القانوني) بما في يده من سلطة مطلقة ، لقد قال له : « هذه المملكة لي - وقد عينت فيها خادمي - لقد أعطيته المملكة ، لكنني استطيع استردادها منه اذا رغبت . ومن حقي تقسيمها ، والتصرف فيها ، وفي كل سكانها الذين هم رعاياي » .

ولقد كان محمد الثاني (الفاتح) قد ركز السلطة في يديه ، من خلال نظام حتوى كان هو واضع أسسه ، ممثلا في قانون نامه Kanounem أو القانون الأساسي ، الذي تم اعلانه بعد فتح القسطنطينية - وقد قنن هذا القانون التجارب والأعراف التي مرت بالأسلاف . ومن هذه الوثيقة نجد جواز قتل أقارب السلطان لضمان أن يتولى السلطان الجديد (خليفة السلطان الحالي) مركز السلطنة دون مشاكل . فالسلطنة كانت وراثية بين افراد الأسرة الحاكمة العثمانية وهذا أمر حاز الموافقة في سائر أنحاء الامبراطورية ، ولكن معدد الزوجات ، وعدم وجود قانون اسلامي ينص على حصر وراثة العرش في أكبر الأولاد الذكور ، خلق مشكلة ما تلبث أن تتكرر ، نتيجة ادعاء الأحقية بعرش السلطنة ، من قبل أولاد السلطان المتخلفين . ففي السنوات الأخيرة لحكم سليمان ، كانت مشكلة ولاية العهد ، مشكلة خطيرة تهدد استقرار الدولة ، مما جعل سليمان مضطرا لتنفيذ حكم الاعدام في ولديه ، مصطفى في سنة ١٥٥٣ ، وبايزيد في سنة ١٥٦١ ، لكي يؤكد أن من

سيخلفه هو ابنه سليم ، وهو ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة • فقبل موت السلطان ، كانت تثار مشاكل لا مناص من تجنبها ، وكان اغتصاب العرش أمرا قائما ، لهـذا فان السلطان الجديد كان عندما يتولى العرش ، يقوم باعدام كل اخوته وكل أولادهم الذكور ، وقد ظلت هـذه العادة حتى القرن السابع عشر ، عندما أصبح العرش (السلطنة) ينتقل الى أكبر أولاد السلطان ، وربما كان هذا بتأثير أوروبى •

وتبعا لتوجيهات القرآن (الكريم) فى سورة الشورى فى الآية رقم ٣٨ : (والذين استجابوا لربهـم ، وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون) فان قانون نامة قد قنن تأسيس مجلس الشورى المركزى ، الذى دعم فى عهد سليمان القانونى (الفاخر) ، وظل هذا المجلس راسخا لمدة قرون • وكان المسئولون الرئيسيون فى الدولة العثمانية أربعة ، هم : الـوزير الأول (الصـدر الأعظم) وقاضى العسكر Kaziasker أو نائب الأحكام (قاضى مشاور يجلس مع أعضاء المحكمة العسكرية ويحلفهم اليمين وينصحهم بالمشورة ويقوم بمهام المدعى العام • وينصـح المتهم عنـد الحاجة ، وله حق الاعتراض على الاسئلة الموجهه) والدفتردار وهـو وزير المالية والنشنجى Nichanji وهو بمثابة وزيـر للدولة • وكان المسئولون الرئيسيون فى الدولة هم هـؤلاء الاربعة لما للرقم أربعة من دلالة صوفية (١) • ولقـد كان الوزير الأول (الصدر الاعظم) هو اكثرهم نفوذا وقوة اذ يقوم بوظائف ادارية ، وأخرى متعلقة بأسرار الدولة ، وهو بهذا يماثل فى اختصاصـه ، وظيفة المستشـار فى الدول الأوربية ، كما كان للصدر الأعظم سـلطات الاشراف عـلى السياسة الخارجية والتنظيمات العسكرية ، والتدخل فيهـا جميعا، وكان على الصدر الأعظم أن يوجه الجيوش ويقودها • وقد كان هؤلاء المسئولون الأربعة يعينون من قبل السلطان، وكان يبقيهم فى مراكزهم ، رهنا بمشيئته • ولا شك انه

---

(١) لا ادرى من أين أتى المؤلف بالدلالة الصوفية للرقم أربعة ! ـ (المترجم) •

من السذاجة افتراض أن الكفاءة الادارية وحدها هي التي تمهد الطريق للمناصب العليا ، فقد كانت التكتلات (الشللية) تلعب دورا كبيرا ، فالصدر الأعظم رستم باشا ، على سبيل المثال ، والذي تم يعزل الا مرة واحدة ، ولمدة قصيرة خلال ولايته الطويله التي امتدت من ١٥٤٤ الى وفاته في سنة ١٥٦١ - كان رأسا لتكتل (ثلة) في البلاط ، كان من بين أعضائها خوريم ، عقيلة سليمان القانوني المفضلة ، والأميرة محرومة زوجته ، وشقيقة سنان باشا قبطان الأسطول في السنوات من ١٥٥٠ الى ١٥٥٤ .

وفي حكومات الأقاليم، لم يكن ثمة فاصل بين السلطتين، المدنية والعسكرية ، فادارات المدن الكبرى ، كدمشق ، او الولايات العظيمة ، كمصر ، كانت تقع على عاتق البشوات . والباشا لقب (رتبة) وليس وظيفة (منصبا) ، وهو يعني ان حاملة قد الحق بدوائر الحكام العليا في الامبراطوريه ، وأصبح عضوا في الديوان ، أي مجلس الدولة . وكان هؤلاء الموظفون الكبار ينقلون من منصب لآخر ، لمنعهم من تكوين ولاءات محلية أو تكوين أنظمة شخصية لصالحهم على أساس من العصوبية . وقد اختلف الوضع في المناطق المفتوحة في البلقان ، وهو الذي يهمنا في هذا الصدد ، حيث كان المسئولون يحتفظون بمناصبهم فترات طويلة . فأوروبا العثمانية كانت تعتبر وحدة ادارية تسمى ايالة الروملي Rumeli ، وكان حاكمها الأعلى هو البكلر بك . وخلال سنة ١٥٤٠ ، تم انشاء بكلر بيكيتين مجريتين ، عاصمة احدهما بوداء وعاصمة الأخرى تيمسفار Temesvar

وقد قسمت المنطقة خلال القرن السادس عشر الى سناجق ، أعيد تنظيم معظمها خلال القرن السادس عشر، في مجموعات من سنجقيتين أو ثلاثة لتصبح ٢٤ باشوية ، يحكم كلا منها ، كما يدل على ذلك اسمها ، موظف يحمل رتبة باشا . وعلى أية حال ، فقد كان هؤلاء الباشوات في البلقان الغربي مثلهم مثل الباشوات في سائر أنحاء الامبراطورية ، يلقبون بلقب

بك ، وقد كانوا يمنحون القطاعات Ilets كانت تسمى جفالك Tschiftliks لتأمين حراستهم الشخصية ، وتدبير أمور وتدبير أمور موظفيهم ٠

وفى بعض المناطق الجغرافية ، وفى مجالات بعينها ، نادرا ما تدخل العثمانيون تدخلا حقيقيا فى حياة رعايا السلطان من غير المسلمين ، فالاديرة الأورثوذكسية الكبرى فى اليونان ومقدنيا ، على سبيل المثال ، كان كثير منها يحكم مقاطعة واسعة ، وكان الديريون يحتفظون بحقوقهم كاملة فى ادارة أمور الفلاحين فى هذه المقاطعات ، وفى استثمار عقاراتها بالطريقة التى يرونها مناسبة ، تماما كما كان عليه حالهم فى ظل الامبراطورية البيزنطية ٠ وفى بعض المناطق اليونانية الجبلية والساحلية ، كانت هناك قرى حرة Kefalochoria تعيش آمنة ، ما أزعجها أحد ، وكان يحكمها كبار السن من أهلها ، فى مقابل دفعهم الضرائب أو تقديمهم جنودا مجهزين galiondjis للبحرية العثمانية ٠ وفى البلقان كانت اختصاصات تشريعية بعينها ، خاصة ما يتعلق بالأحوال الشخصية ، تحال بأكملها الى الاكليروس (رجال الدين المسيحى) حيث يقضون فيها تحت اشراف بطريارك المنطقة ٠ وخارج المدن الضخمة ذات المواقع الاستراتيجية ، مثل بلجراد ، التى كان فى كل منها مركز ادارى ، والتى كانت بحكم موقعها ، ذات تأثير — كان البكوات خارج هذه المراكز — يحكمون وهم دائمو الحركة ، اذ ينتقلون من قلعة الى اخرى ، ويعيشون وتابعوهم وموظفوهم كحامية عسكرية فى أرض أجنبية ٠ وعندما كانت الحكومة المركزية فى اسطنبول ترغب فى تنفيذ بعض الأعمال الهامة كاجراء احصاء ، أو تسجيل ممتلكات ، أو تجميع الدفشرمة — وهى ضريبة الأطفال فى البلقان لتدعيم العمالة فى الجيش والادارة — فانها ترسل الموظفين الرسميين من العبيد السلطانى ، مخولين بسلطات وصلاحيات خاصة ، ومزودين بضمانات ، لتنفيذ المهمة المنوطة بهم ٠

وكان انشاء هذا الجهاز الادارى يعكس فهما بارعا ومعالجة مدروسة للقوى الاجتماعية ، من قبل رجال الدولة العثمانيين ، وكما ركزنا فى الفصل الأول ، فان عمليات السلب والنهب التى كانت تقوم بها القبائل المحاربة ، والتى كانت فى حالة حركة دائبة ، هى فى الأصل أساس الجماعات التى كونت الدولة العثمانية - لقد كانت هذه القبائل أدوات غزو بكل ما فى الكلمة من معنى • وقد أوجدت هذه الظروف مبدأين تحكما فى التطور الاجتماعى العثمانى ، أولهما — أولوية الترتيبات والتنظيمات العسكرية ، وثانيهما — ضرورة توفر المرونة الحركية ، كما أن الاوامر الصارمة والفعالة فى أى جماعة تتركز أهدافها على السلب والنهب والغزو ، تعد أمرا ضروريا ، والجماعات الدائبة الحركة تستطيع أن تتكيف مع الافكار والممارسات الاجتماعية والتنظيمات المختلفة ، حتى تستطيع الحفاظ على الروابط والصلات بينها وبين الشعوب التى تنسج فيها وتستغلها • وقد لاحظ عالم الاجتماع التركى الحديث زيا جوكالب Zia Gokalp (١٨٧٦ — ١٩٢٤) انه « عندما اتخذ التكوين العثمانى الطابع الامبراطورى أصبح العثمانيون طبقة حاكمة عالمية (١) • فحضارة العثمانيين كانت خليطا من المؤسسات المستعارة ، من الترك والفرس والعرب ، ومن الدين الاسلامى ومن الحضارات الشرقية ، ثم من الحضارة الغربية فى مرحلة أكثر حداثة » •

لقد كانت المشكلة المحورية التى واجهت السلاطين العثمانيين ومستشاريهم بعد سقوط القسطنطينية ، والتى فرضها عليهم قدرهم الامبراطورى — هى ضرورة كبح جماح الطاقات العسكرية والحماس الملتهب للسلب والنهب ، اذ كان كل أولئك متوقعا من جيش شرقى ، لكن كان على السلاطين العثمانيين الا يجعلوا هذا الكبح خانقا ضاغطا تماما ، اذ من الضرورى عند تاسيس دولة تتعلق حول

---

(١) يعنى منظمة لكل الثقافات وعناصر العالم • وهذا صحيح — (المترجم) •

مركزها ، أو تكون ذات اتجاهات توسعية عدوانية في أطرافهـا ، ففي هـذا متنفس للطاقات العسكرية وللرغبة الكامنة للسلب والنهب ·

ولعل افضل مقياس لنجاحهم في هذه المهمة الشاقة ، والتي تقتضي تآليف قوى اجتماعية متضادة ومتناقضة في الأساس ـ يتمثل في معالجتهم للتحديات التي زامنت الفتوحات الكبرى في القرن السادس عشر ـ والتي أفردنا لها الباب الثالث ـ مع النمو السكاني المستمر لاسطنبول كعاصمة امبراطورية ، اذ زاد سكانها من ١٠٠٠٠٠ نسمه في سنة ١٤٥٣ الى ما يتراوح بين ٥٠٠٠٠٠و٨٠٠٠٠٠ ، نسمة في سنة ١٦٠٠ ، وهو ما يزيد بدرجة كبيرة عـن تعداد اى مدينة أوربية معاصرة ·

وكان جيل الغزاة الذين يمثلون في الأساس رأس الرمح للتوسع العثماني ـ خليطا متباينا من محبى السلب والنهب ذوى الرغبة العارمة في تملك الاراضى · وكان لابد من زيادة حجم هـذه الجماعة اذ كان للدولة العثمانية ان تستمر في توسعها ـ وقد هيأ نظام التيمار ، الأرضية الاقتصادية لزيادة أعداد أولئك المحاربين المعروفين بالسباهيين ـ وقد أمكن المحافظة على ولائهم وضمان طاعتهم بموازنة عمادها تحريم التوريث في قانون الاقطاع العثماني ، مع تهيئة الفرص بشكل مستمر لحيازة الغنائم والأسلاب عبر حدود الامبراطورية ـ فوفقا لتقديرات السفير البندقي ماركانتونيو بربرو ـ فقد كان هنـاك زهاء ٨٠٠٠٠ ـ اهى في اوروبا العثمانية في سـنة ١٥٧٣ ، و ٥٠٠٠٠ في الولايات الآسيوية ، الى جانب ١٥٠٠٠ بحضرة الباب العالى ، كعرسان في الحرس الامبراطورى ، الا ان هذه الطائفة الأخيرة ، كانت تتقاضى رواتبهـا من الخزانة اذ لم يكن لهم تيمـارات ·

وقد ظل السباهيون طبقة غير منضبطة ، وان كانت لهم قمتهم العسكرية ، الا انهم من الناحية السياسية ، غير

جديرين بالثقة . ولقمع شعبهم ، كان من الضروري ، زيادة أعداد الاداريين الرسميين العموميين وزيادة كفاءاتهم ، وكذلك انشاء جهاز من الجند المشاة تابع للبيت الحاكم ، ليكون ولاؤه للسلطان وكفاءته القتالية ، فوق كل شك . وفي مواجهة هذه المتطلبات ، طور العثمانيون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، نظام الرق (العبيد) كمؤسسة اجتماعية أساسية ، اذ كان العبيد العثمانيون يقدمون مددا من الاداريين والعساكر المطيعين الموهوبين بأعداد كبيرة ، تتناسب مع حاجة هذه الامبراطورية المظيمة .

وقد كتب الهولندي ريكوت Rycaut في القرن السابع عشر ذاكرا انه ، اذا ما تمعن الانسان في التكوين العم للبلاط العثماني فانه واجده سجنا للعبيد ، لا يختلفون عن عبيد السمن الا في انهم يمتازون بالزينة والابهة الخارجية » .

أما ادوارد جيبون Gibbon في القرن الثامن عشر ، فكان أقل موافقة لهذا الرأي السابق ، وان كان واضحا مؤكدا ، مع بعض المبالغة ، فقد كتب :

« في العصور الذهبية للحكومة العثمانية ، كان الترك أنفسهم مستثنون من كل الاعمال الجالبة للشرف ، سواء مدنية أو عسكرية ، وكانت طبقة الرقيق (العبيد) بمثابة شعب مصطنع ، ارتفع شأنه بسبب نظام تعليمي يدربهم كيف يطيعون وكيف يغزون وكيف يقودون » .

والواقع أن الرقيق في النظام العثماني في حاجة الى تحليل خاص ، لأنه كما دلتنا هذه المقتطفات التي ذكرناها آنفا ، فان فهم المؤرخين الأوربيين لهذه الظاهرة ، يعتريه غموض وتشويش ، أدى اليهما ما كانت تتسم به غارات الرقيق من وحشية ، بالاضافة لكراهة الأوربيين التقليدية للترك (العثمانيين) فالعبودية بالمفهوم العثماني لا تتشابه

على الأقل مع العبودية التى فرضها الأوربيون على عمال الحقول فى مزارع العالم الجديد فى القرن السادس عشر ، ولا تتشابه فى معظم الحالات من حيث العمل الشاق المفروض على طبقة الفلاحين فى شرق اوروبا خلال نفس الحقبة الزمنية ، فطبيعة الرق المعدلة (المحسنة) فى المجتمع العثمانى راجعة الى حقيقة أن الرقيق لم يكونوا يقومون أساسا بالأعمال التى لها مردود اقتصادى ، وانما كانوا يستخدمون لارضاء طموح السادة العثمانيين (الذين كانوا هم أنفسهم رقيقا فى وقت من الأوقات) الذين كانوا يعملون على تجميع عدد كبير من الاتباع كتمييز ودلالة على ثروتهم ونفوذهم . وكانت عروض الرقيق ملمحا مميزا للحياة الاجتماعية فى اسطنبول بشكل لا تخطئه عين . وعندما مات رستم باشا ، الصدر الأعظم ، فى سنة ١٥٦١ كان قصره يضم ١٧٠٠ عبد . أما بالنسبة لوضع سلاطين القرن السادس عشر فبالاضافة الى الانكشارية والحراس الشخصيين الحكام ، فعبيدهم كانوا يؤلفون ما بين ٢٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ ، وكان هؤلاء العبيد كثيرو العدد والمخلصون يساعدون فى تأمين السلامة الشخصية لسادتهم ، كما ان اعتبارات وقائية (احتراسية) قد أكرهت السادة على معاملة رقيقهم بشىء من الاعتبار ومراعاة المشاعر، فالرقيق فى المجتمع العثمانى كان حرسا شخصيا وخدما فى الأساس. أما رقيق السفن فكان له وضع خاص ، أما النساء المسترقات فقد لعبن دورا كمحظيات وأمهات لورثة الطبقة الحاكمة العثمانية ، فالسلطان نفسه كان فى الغالب ابنا لامرأة مسترقة ، وكان أصحاب المقام الرفيع يوجهون أمور الامبراطورية من خلال ممثلين لهم من الأرقاء التابعين لهم. وكان الرقيق الملكى (السلطانى) يدير الجانب المدنى فى حكومة السلطان ، كما كانوا يمثلون النخبة فى جيشه . وكل هذا يجعل الرق العثمانى بعيدا جدا عن مفهومنا (كأوربيين) للعبودية . فالسكان العبيد القاطنون فى الثكنات العسكرية ودور صناعة السفن وشاغلو القصور

والمستشارون في اسطنبول كانوا يختلفون - بكل ما في كلمة الاختلاف من معنى - عن العبيد الزنوج في الأمريكيين، أولئك الذين كانوا يعاملون بقسوة ووحشية ، والذين كانوا يمثلون النموذج - بالمفهوم الأوروبي - للشعب المستعبد •

والاسلام يقر الرق طالما كانت الشعوب المسترقة غير مسلمة - او لم تقدم للسلطات الاسلامية ضريبة الرأس وهي ضريبة يراها المسلمون حقا لهم ، فعلى طول حدود المواجهة مع العالم المسيحي ، كان العثمانيون أو الجماعات الصغيرة المتحالفة معهم ، في بحث دائم عن العبيد ، ولما كان هذا المصدر غير كاف دائما للوفاء بحاجة القصور الامبراطورية ، فقد تبنى العثمانيون سياسة استرقاق بعض الشباب الذين يقع عليهم الاختيار من داخل حدود الامبراطورية العثمانية • ففي أوائل القرن الخامس عشر ، بدأ السلاطين في جباية ضريبة الاطفال الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ و ١٥ سنة من القرى الدنيه في اليونان والبلقان الغربي ، حيث كان من الصعوبة بمكان تحصيل ضرائب نقدية • وقد ادى هذا الاسترقاق المنظم الى تزويد الأسرة العثمانية المالكة والقصور السلطانية بالموظفين ، ومع هذا فلم يكن هذا الاسترقاق المنظم يكاف لارضاء الحاجة الملحة للرقيق من قبل ذوى المناصب الدنيا الأقل درجة ، اذ كانوا في حاجة دائمه لزيادة مجموعة الرقيق لديهم ، لهذا ظل سوق الرقيق في اسطنبول ، نهما لمزيد من الرقيق •

وكان على قراصنة البحر المتوسط ، والمحاربين على الحدود في اوروبا الدانوبية ان يفعلوا شيئا لمواجهة هذه الاحتياجات ، ولكن أسواق الرقيق العثمانية وجدت موردا رئيسيا في المناطق الداخلية لأوروبا البحر الاسود ، ففي هذه المنطقة كان تتر القرم المولعون بالحرب يقومون دائما بغارات لجمع الرقيق وساعدهم على هذا قربهم من المجتمع التجارى في موانىء البحر الاسود وكان هؤلاء التجار وتتر

القرم هؤلاء قد تعودوا على التعاون معا منذ زمن طال • وخلال فترة السيطرة الجنوية كان قادة قوافل التتر يجمعون البضائع من المنطقة ويسلمونها لتجار كافا Caffa وغيرها من المدن الساحلية ، ليتولى تجار هذه المدن نقلها الى الجانب الاخر • فلم يكن ثمة داع لاحداث تغييرات جذرية فى هذا النمط من التبادل التجارى عندما تغيرت السلع المتداولة من غلال الى عبيد •

لقد كانت مشاكل النقل لدى التتر بسيطة للغاية فى واقع الأمر ، لأن هذه البضائع (الرقيق) تستطيع أن تسير مسافات طويلة حتى السوق • ولم يتات تكامل مسائل لمقومات المبادل التجارى فى أى بقعة من تخوم الامبراطورية العثمانية •

ففى المجر ، على سبيل المثال ، لم تكن غارات الرقيق بنفس الأهمية ، نظرا للحاجة الى تنظيم تسويقى يوصل هذا الرقيق الى المراكز الحضرية ، بالاضافة الى ان الرسميين العثمانيين فى المجر لم يكونوا فى حاجة للعبيد الا لخدمات محدودة ، نظرا لأن رقيق الأرض المسلمين فى عقاراتهم الزراعية كانوا يقدمون لهم كل الخدمات الضرورية • وعلى العكس من ذلك ، فى أوروبا البحر اسود ، حيث كان من الممكن الوصول بسهولة الى أسواق العالم العثمانى النهمة للرقيق عبر كافا Caffa • ولما كان هذا واضحا لكل الأطراف ، فان غارات التتر للحصول على الرقيق قد غدت مشروعات سنوية لا تعوقها الا الظروف السياسية غير العادية ، أو عندما كان الطاعون يتفشى فى ولايات المنطقة بحيث تصبح مثل هذه المخاطرات غير مجزية ، وتشير السجلات البولندية ، عن غارات الرقيق التترية فى أوكرانيا فى ستين سنة من ١٤٧٤ الى ١٥٣٤ — الى أن هذه الغارات قد بلغت ٣٧ غارة منفصلة ، وكانت بعض هذه الغارات تستمر لبضع سنوات ، وبين سنة ١٤٨٢ و ١٥١٢ كانت الغارات من أجل الرقيق مستمرة متواصلة خلال سنوات خمس ،

وليس هناك سبب يدعونا للاعتقاد أن عملية التوثيق هذه ، كاملة لا يعتريها نقص ، اذ انها لم تسجل الا الغارات الكبرى التي حصلت على عدد كبير من العبيد .

والواقع ان الوحشيه ، والتخريب الاجتماعي النـاتج عن الاسترقاق المنظم ، أمران ليسا في حاجة الى تأكيد لـكن هؤلاء الأسرى (العبيد) الذين يبقون عـلى قيـد الحيـاة متحملين وسائل النقل القاسية التي تنقلهم الى أسواق الرقيق في المدن ، سرعان ما يدخلون عالما جـديدا غنيا ، يكـون بمثابة مكافاة لهم . فعالم الرق لدى العثمانيين يقدم فرصا واسـعة لهـؤلاء المهجرين قسرا من قراهم المتمزلة المترعة فقرا .

وكان الرقيق الملكى (السلطاني) هو الأغنى والاكثر سلطة ونفوذا في الامبراطورية ، فكان منهم قادة الجيوش العثمانية وحكام الولايات ومخططو سياسة الدولة . ولم يكن تسنم ذروة هرم السـلطة امرا عاديا بطبيعة الحـال ، ولكن حتى العيش كعبد عادى في قصر أسرة غنية ذات نفوذ كان في معظم الحالات أمرا يفضله العبد عـلى الحيـاة في قريته التي اتى منها حيث ذكريات الفاقة والرتابة المملة . وكان يحدث أحيانا أن يعامل السيد هذا العبد معاملة مهينة وقاسية ، ولكن هذا لو حدث فانه لا يبعد كثيرا عن حيـاته الاجتماعية التي الفها في قريتـه التي قدم منهـا . وفي الأغاني الشعبية في بعض الدوائر الأوكرانية ظهر الحنين الشديد للوطن الأصلي أو مسقط الرأس ، وهـذا طبيعي فتحطيم نفسية الانسان ، ونزعه من روابطه الأسرية ، ليس أمرا قليلا . وعـلى أيه حال ، فان الفرص العريضـة التي كانت تتاح للرقيق في حياتهم الجديدة ، كانت بشكل عام بمثابة تعويض كبير لفقدان الأمن النفسي (السيكلوجي) .

وأفضل برهان على التأثير السحرى للمجتمع العثماني على الرقيق الذين انتظموا في سـلك خدمتـه هـو قبولهم للاسلام ، ولم يكن هذا التحول للاسلام نتيجة استخدام قوة

مجبرة ، ولا نتيجة دعوة فعالة ، عادة ، وانما كان ضغط الظروف الاجتماعية يحث معظم الرقيق على التحول للاسلام — على الأقل — ظاهريا ، نطاعة المسلمين ، وكان التحول للاسلام ممكنا دون انكار كامل للممارسات المسيحية (وهي ممارسات مشكوك في أصولها المسيحية أصلا) التي كان الرقيق يمارسونها في قراهم قبل وقوعهم في الرق العثماني . فالاسلام يعترف بمكانة مشرفة للمسيحية ، باعترافه بها كديانة لآخر نبي حق (وممهد لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم . الخاتمة) ، وعلى هذا فقد تمتع المسيحيون بمكانة — وان كانت أقل درجة — الا انها شرعية ومعترف بها في المجتمع العثماني . وكان الرقيق في البيوتات العثمانية الكبيرة عند تخليهم عن مسيحيتهم يكونون بذلك واقعين تحت تأثير ظروف حياتهم الجديدة ، وبذا فانهم كانوا ينسخون بعض ممارساتهم الدينية السابقة ، لقد كان مؤيدو التراث الاسلامي غير السني ممثلا في طرق الدراويش المعتدلة ، كالبكطاشية ، التي اندرج في سلكها بعض فروع البيت السلطاني — يعلمون أتباعهم أن أي دين — كالمسيحية ، والاسلام أيضا — يمثل خطوة غير كاملة نحو الحقيقة ، فالاتصال الباطني بالله (عز وجل وتعالى عما يصفون علوا كبيرا) (١) هو وحده السبيل القويم . ولهذا فالرقيق عند تقبله للاسلام تاركا المسيحية ، كان — كما كانوا يقولون — لا يجد صعوبة ، لأنه لن يتخلى عن شيء من عقيدته السابقة سوى التعصب الأعمى الذي تدرب عليه في طفولته .

وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كانت طاقة الامبراطورية العثمانية وفعاليتها ، ترجع الى قوة جهازها الاداري ونشاطه ، والى بسالة جيوشها — وكلاهما — الجيش والادارة — كان عمادهما ، الفلاحون المسترقون من مناطق الامبراطورية النائية . قصبية القرى البسطاء الذين

---

(١) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

التحقوا بالمدارس والمعاهد الخاصة في اسطنبول ــ سواء مدارس مساعدي الفرسان أو مدارس الانكشارية او مدارس القصر ــ كانوا يتدربون على أعمال الدفاع والغزو ومهام الحكم، باسم السلطان ــ الذي كان هو نفسه مجرد عبد ــ في واحدة من أعظم امبراطوريات العالم • لقد كانت الابواب مفتوحة على مصاريعها امام ذوي المواهب والمميزين للوصول الى قمة السلطة • وطالما كان هؤلاء يحتكرون المناصب والادارة ، فانهم كانوا يتذكرون طفولتهم في قرى البلقان البعيدة واوربا البحر الاسود • لهذا كانت القرارات التي يتخذونها ، والاجراءات الرسمية التي يأمرون بها او يمارسونها ، متسمة بشيء من التراخي والتعاطف مع السكان الفلاحين • وكان المسئولون الكبار في الامبراطورية ، يميلون لفرض قواعد وحدود قانونية صارمة على ما يمكن ان يطلبه حائزو الأرض المسلمون من بضائع وخدمات من الرعايا الذين يعيشون في زمام هذه الأراضي وتلك العقارات •

لقد كان ينشب ــ بصفة دائمة ــ نزاع بين عبيد السلطان الذين يشغلون المناصب الرسمية من ناحية وبين الفرسان المسلمين الحائزين على الاقطاعات من ناحية أخرى• وكان من نتيجة هذا النزاع حدوث توازن يؤدي الى تدعيم قوة السلطان الشخصية ، كما كان يؤدي الى رفاهية عامة لسكان البلقان في ظل ادارته (السلطان) •

وطالما استمر هذا التوتر المفيد ، بقي النظام الامبراطوري العثماني شامخا بالمقارنة الى موارد السكان الهزيلة والتراث السياسي الفوضوي ، الذي ورثه حكام بلاد أوربا الشرقية المتاخمة للامبراطورية العثمانية ، فالقوات المسلحة العثمانية كان يمكن تعبئتها جميعا وتوجيهها لعمليات ميدانية دون خوف من ثورة الا فيما ندر ، أضف لذلك أن قوات الميدان كانت منتظمة منضبطة خاضعة لارادة سلطانية واحدة •

وكانت النخبة العسكرية في نظام الرقيق هذا ، ممثلة

فى كتائب الانكشارية ، وهم المشاة الرماة ، وكانت كتائب الانكشارية قد تم انشاؤها فى سنة ١٤٢٨ ، وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كان عماد هـذه الكتائب ، صبية غرب البلقان ، الذين تم تجميعهم كضرائب (دفشرمة) وكانت كتائب الانكشارية مركزة فى كل المدن العسكرية الكبرى فى الامبراطورية . الا ان كتائب اسطنبول كانت أكثر عددا وكفاءة ، اذ كانت تبلغ حوالى ١٢,٠٠٠ اثناء حكم سليمان القانونى . وفى سنة ١٦٨٣ زاد عددها خمسة أو ستة أضعاف ، رغم تدنى كفاءتها ، اذ أصبحت رائعة بصورة خطيرة .

وخلال القرن الخامس عشر وحتى فى معظم القرن السادس عشر كان تنظيمها وولاؤها للسلطان ، يؤكده مع الزواج القانونى ، وان كان ثمة استثناءات فى بعض المناسبات خلال حكم سليمان القانونى ، وفى الفترة التى شاع فيها الاسترخاء ، وهى فترة حكم سليم الثانى (١٥٥٦ ـ ١٥٧٤) . وفى حوالى سنة ١٥٠٠ تم تسليح الانكشارية ببنادق يدوية . وقد كان رسوخ أقدام الانكشارية فى القتال وترابطهم فى جماعات محاربة ومهاراتهم فى استخدام هـذه الأسلحة قد تسبب فى انتحار الجيوش المملوكية ـ وفى التعجيل بفتح العثمانيين لسوريا ومصر خلال عامى ١٥١٦ / ١٥١٧ ، كما قتت هؤلاء الانكشارية آخر كرة يائسة لسلاح الفرسان المسيحى فى معركة موهاكس الفاصلة ، تلك المعركة التى تمخضت عن انتقال مملكة المجر لحكم سليمان القانونى فى سنة ١٥٢٦ .

ولم يكن دور الرق فى النظام العثمانى هـو الفارق الهام الوحيد بين بنية الامبراطورية العثمانية ، وملكيات شرق ووسط أوروبا التى كانت فريسة للتوسع العثمانى ، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وثمة فارق آخر يتمثل فى مبدأ التوريث ، فهذا المبدأ ظل واهنا فى المجتمع العثمانى ، فالطبقة الحاكمة العثمانية ـ اذا

ما قورنت بالارستقراطية الراسخة في عصر النهضة الأوربية وفي زمن الاصلاح أيضا ـ لم تجد لها جذورا موصلة في المجتمع العثماني • فعدم وجود طبقة أرستقراطية فعالة وراسخة في المجتمع العثماني ، قد أكد ودعم سلطة السلطان الفردية ، اذ لم يكن هناك ما يواجهه بصورة ، تعوقه عن ممارسة سلطانه •

وحتى بين المقاتلين المسلمين الأحرار بالمولد ، كان الولاء للأسرات القوية ، والفخر بشرف المحتد ، نادرا • لقد كان معظم من تسنموا السلم الاجتماعي ، قد وصلوا لذلك بالصدفة لذا فقد اتسموا بالادعاء والغرور • لقد كانوا ابناء عبيد ونسل خليلات ، وقد جلبوا من كل مكان ، اجتثوا من جذورهم فما عادوا بأعراقهم يهتمون لقد كانت الحياة العثمانية الأسرية ، والعلاقات الجنسية هي نفسها علاقات معسكرات الجيش ، فاذا ما انتهت حروب الصيف ، أصبح المقاتلون العثمانيون على استعداد لاتخاذ زوجات ومحظيات اذا ما أتيح لهم نساء جميلات ، فاذا ما حل موسم القتال فانهم يتركون نساءهم وذراريهم ليصونوا أنفسهم بانفسهم حتى عودتهم ـ أي عودة المقاتلين في الخريف ، وقد لا يعودون ، فهذا يعتمد على ظروف الحرب •

ولقد ترك هذا أثره على المجتمع ككل من حيث الضعف النسبي للروابط الأسرية ، وضعف مبدأ التوريث عند الطبقات الحاكمة ، ومن هنا كانت الثورة للاستحواذ على السلطة المركزية ، أمرا بعيدا عن التحقيق ، ولم يكن الامر كذلك في المجتمعات المسيحية المعاصرة • ولقد قوى نفس الاتجاه وأثر بفاعلية في وضع السلطان المرسخ ، ما كانت تتحلى به اسطنبول وغيرها من المدن الكبرى من جاذبية اجتماعية ، بالاضافة لميراث العثمانيين للتراث السياسي والتشريعي البيزنطي ـ فكل هذا قوى وضع السلطان ضد ملاك الأراضي المسلمين ، الذين كانوا عصب الجيوش السلطانية ، والذين كان يمكن في نفس الوقت ان يكونوا

خصوم السلطان ومنافسيه • وعلى هذا ، فحتى منتصف القرن السادس عشر ، كان حتى المقاتلون الأحرار بالمولد ، والذين دخلوا في خدمة السلطان ، يميلون الى تحرير أنفسهم من أعراقهم الماضية ، تحريرا كاملا في الغالب ، ليصبح حالهم كحال الرقيق السلطاني الذين يقودون كتائب الخيالة في الميدان • لقد كانت الحروب الدائمة تؤدى لخسائر هائلة ، ليس في ميدان القتال فحسب ، وانما نتيجة الحوادث والأمراض التى لم يكن من الممكن تجنبها في مناطق الحدود حيث الظروف غير مواتية وغير صحيحة ، وطالما كانت الامبراطورية مستمرة في التوسع ، فقد كان فتح كل ولاية جديدة ، يؤدى بشكل مستمر الى اضطراب نظام الحيازة والملكية ، لأن أراضيها (الولاية) يجرى توزيعها تلقائيا بين المنتصرين ، فمعظم المقاتلين العثمانيين كانوا يبدلون مآواهم الشتوى بكثرة لدرجة لا تسمح لهم بالاحتفاظ بمقاراتهم الزراعية بصورة دائمة ، وتبعا لذلك لا يعتبرونها أكثر من كونها مجرد مورد للطعام والدخل والخدمات خلال فترة محدودة من الخمول العسكرى • وفى ظل نظام كهذا فان الثورة المحلية ضد المركزية الادارية امر بعيد الاحتمال، ولم يكن الأمر كذلك فى أى مجتمع أوروبى ، حيث كانت الأرستقراطية القروية مرتبطة ارتباطا وثيقا بأراضيها الأمرية • وبذا كانت قادرة على القيام بمقاومة عنيفة ضد الاداريين الممثلين للسلطة ـ والذين لم يكونوا يلاقون منها الا الاحتقار •

والاستثناء الوحيد من هذا الحكم فى الولايات الأوربية العثمانية ، كان فى البوسنة ، حيث كانت الأرستقراطية المحلية قد تحولت تحولا جماعيا للاسلام خلال القرن الخامس عشر ، ولم تكن الشريعة الاسلامية تسمح بنزع ملكية أراضى المسلمين • ولذلك فان سلطة الدولة العثمانية كانت مقيدة فى البوسنة على النحو المعروف والسائد فى جميع بلاد أوروبا المسيحية •

ان التناقض بين النظم العثمانية والمسيحية فيما يتعلق بحيازة الأرض ، كان مسألة هامة من وجهة نظر الفلاحين أيضا • فقد كان المقاتل العثماني غائبا في العادة عن ارضه وعقاره لحوالى نصف العام ، ولم يكن يترك وكيلا حقيقيا فعالا يحل محله ، وكانت عودته مسألة غير مؤكدة ، وقد أدت هذه الظروف الى خلق مجال كبير لتطوير الحكم الذاتي في القرية ، وعلى النقيض من هذا كانت الأرستقراطية في أوروبا المسيحية مرتبطة بمواقعها ولهذا فقد كونت ميراثا أثريا مرتبطا بالمكان ، واصبح هذا التراث أحد مكونات نسيج الحياة في القرية . ولم يكن أفراد الارستقراطية الاوروبية ليتركوا للفلاحين أدنى فرصة لادارة وتسيير امورهم الخاصة • حقيقة لقد كان سكان القرى (الفلاحون) يتمتعون بحرية نسبية في الحركة وفي تسيير امور انفسهم ، في ظل الامبراطورية العثمانية ، ولكنهم كانوا يدفعون ثمن هذه الحرية النسبية ، بما كانوا يتعرضون له من وحشية قاسية بشكل موسمي ، مما كان يعرض وتيرة حياتهم للتوتر والاعاقة بعنف • وكان هذا يحدث ، كلما تدخل مسئول صاحب منصب أو متطفل ، ليطلب من هؤلاء الفلاحين ، خدمات أو مؤنا وامدادات ، سواء قبل الحصول على موافقة السلطان ، أو بعد موافقته حيث كان السلطان ــ قبل الموافقة ــ يضع بعض القيود غير الحاسمة • ولم تكن عمليات العنف هذه التي اشرنا اليها آنفا ، والتي كانت تتم بشكل متقطع لتحطم أو تلغى ما يتمتع به سكان القرى من تسيير ذاتي لامورهم في ظل العثمانيين ، وأقصى ما يمكن قوله انها كانت تشوه الصورة • وعلى هذا ، فقد كانت الامبراطورية العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، تعتمد على ما تحمله للفلاحين من أعباء خفيفة نسبيا ، في المناطق المركزية للدولة ، بالاضافة للسلب المنتظم للمناطق والمجتمعات الواقعة خارج حدود الادارة العثمانية • فلم يكن يتأتى للسلطة المركزية أن تنشيء قوة عسكرية منظمة ، كبيرة العدد والعدد ، الا بالاغارة على المجتمعات المحيطة بهذه

وسلبها ، بينما كان الحفاظ على الأمن داخل الوطن العثمانى نفسه يتطلب عدم استغلال الطبقات الدنيا ، وقد حققت هذه السياسة للدولة درجة كبيرة من الاستقرار • ولقد كانت المؤسسات الراديكالية المنوط بها وضع خطط التجنيد والتعبئة والدعوة للاسلام فى هذا العالم العثمانى ، تثير فى الأوروبيين الدهشة والبغض فى آن ، ولكنها فى الحقيقة كانت أدوات عنيفة فعالة بشكل غير عادى لضمان استمرار قوة ورخاء حاضرة البلاد •

لقد أدى اتساع الخرق بين المسيحية والاسلام ، الى توسيع شقة الخلاف بين الامبراطورية العثمانية من ناحية ، والدول الأوربية من ناحية أخرى ، لقد كان هذا الخرق قابلا للرتق خلال فترة قصيرة من القرن الخامس عشر ، اذ كان العثمانيون قد ورثوا عناصر التراث البيزنطى وتفاعلوا معه ، كما أن أصداء العلمانية القادمة من ايطاليا النهضة ، قد لاقت مجيبا فى بلاط ملك المجر ، وفى اسطنبول زمن محمد الفاتح (١) •

لكن القرن السادس عشر ، شهد جنوحا حادا عن التسامح الدينى واتساع الأفق ، فما عاد هذا سائدا فى الدوائر العليا ، كما كان الحال فى القرن الخامس عشر ، لقد تقوقع الاسلام والمسيحية ، وانغلق كل منهما على نفسه من خلال حركات الاحياء والسلفية (٢) والتعصب ، التى كان أنصارها قد زادوا من التحصينات والحواجز النفسية حول أنفسهم لمنع أى تأثير خارجى من الوصول لهم • ولقد

---

(١) الواضح أن هذا التفسير يدعو للسخرية ، اذ الأولى أن يقال ان بذرة الصلح فى الاسلام ، ووصول الفكر الاسلامى مكتملا الى أوروبا بعد سقوط القسطنطينية وبعد هجرة حاملى من العلماء الأسبان عبر قرنسا ، هو الذى أدى الى بذرة النهضة الأوربية ـ (المترجم) •

(٢) نص كلمات المؤلف هى :

. In a revived and intolerant orthodoxy whose champions were increasingly impervious to external stimuli.

والواقع ان المؤلف يذكر فى أكثر من مكان أنه يسبب السلفية ، وصف التعصب الذى تمتع المسيحيون الأوربيون فى ظل التسامح الدينى فائق لم يكونوا ليحلموا به فى ظل حكم أبناء جلدتهم المسيحيين للمخالفين معهم مذهبا ـ (المترجم) •

كانت العوامل التي أدت الى هذا التقوقع على الجانب الاسلامي، هي نفسها ذات العوامل التي أدت للتعصب والانغلاق على الجانب المسيحي .

فقد كان انفجار ثورة الشيعة في شرق الأناضول سنة ١٥١٤ ، قد سبق ، وماثل موجة الثورة الدينية التي فجرها مارتن لوثر في المانيا وشمال غرب اوروبا في السنوات التي تلت سنة ١٥١٧ .

فالفرق الاسلامية الاثنان والسبعون ، التي ماز بينها العلماء المسلمون التقليديون ، ووضعوا بينها فروقا غير دقيقة قد انقسمت – وفقا لموقف اصحابها من قضية قديمة هي أحقية خلافة الرسول (عليه الصلاة والسلام) .. الى مجموعتين : الشيعة الذين يرون أن خلافة الرسول (عليه الصلاة والسلام) لا تصح الا من خلال زوج ابنته علي (كرم الله وجهه) ، وأهل السنة الذين يقرون خلافة ابي بكر وعمر وعثمان (١) باعتبارهم خلفاء الفعليين في السلطة ، ثم من تلاهم من خلفاء . قد أدى ظهور وتكاثر الطرق الصوفية منذ القرن الثامن للميلاد فصاعدا ، الى تعقيد هذا الخلاف الأساسي في الولاء ، اذ كانت هذه الطرق والتنظيمات تسعى « للوصول الى الله سبحانه » وعارضت صب العقيدة الاسلامية في قالب من التعاليم والشريعة الاسلامية . وزاد الطين بلة ظهور جماعات متفرقة النحل والأهواء كان لديها الاستعداد لقبول تاثيرات شيعية ، مع بقائهم على السنة في حدود اعترافهم بخلافة الخلفاء الثلاثة الأول (٢) ، ومما زاد الفوضى تعقيدا أنه رغم كون الشيعة قد ظلوا كأقليات مضطهدة على نحو أو آخر ، في معظم المناطق ، فانهم تظاهروا باعتناق عقائد السنة ، وان كانوا في حقيقة الأمر قد اتخذوا « التقية » مسلكا مما أدى الى انتشار الجماعات الشيعية السرية انتشارا يختلف من مكان الى آخر عبر

---

(١) أهل السنة يقرون أيضا خلافة علي كرم الله وجهه كخليفة رابع – « المترجم » .

(٢) والخليفة الرابع أيضا – « المترجم » .

العالم الاسلامي - ولهذا فقد ساد عدم التوازن بين الفرق الاسلامية ، فما أن تنشب اضطرابات محلية خاصة عند وجود رجل مبروك (يعتقد فيه العامة) ذي أتباع ومريدين أو بعض الغلاة المتعصبين ، حتى تسارع الفرقة او الجماعة باعلان رفضها ولعنها لكل العقائد الدينية المخالفة لمبادئها الدينية .

ولقد اسهم ضعف القادة الأتراك الذين تنازعوا السيادة على العالم الاسلامي بعد القرن الحادى عشر ، فى تكريس ذلك الواقع الديني الخطير ، لأن أكثرهم لا يأبهون اولا يجرؤون على مواجهة الثورات التى قد تنجم عن اصرارهم على خط عقائدى رسمى .

ولم تكن الدولة العثمانية استثناء من ذلك ، فرغم أن السلاطين العثمانيين قد اتخذوا سياسة تأييد السنة ودعمهم، وأعلنوا المذهب السنى مذهبا رسميا للدولة خلال القرن الخامس عشر ، الا أنهم لم يقطعوا بشكل قاطع الصلات مع الدراويش ، أصحاب البدع ، الذين اسهم حماسهم الدينى بدور كبير في مرحلة التوسع العثمانى الأولى- الا أن التوازن الدينى السياسى بين المذاهب الاسلامية قد اختل بشكل حاد في سنة ١٤٩٩ عندما استطاعت احدى فرق الشيعة المتعصبة والتى كان اتباعها يقطنون بالقرب من سواحل بحر قزوين الجنوبية أن تمد نفوذها ، وأن تحرز سلسلة من الانتصارات العربية الكبيرة فقد بدأ اسماعيل الصفوى ، زعيم الفرقة ، ببث الدعاة المتحمسين وسرعان ما كون من أتباعه جيشا هائلا . ففى سنة ١٥٠٠ استولى على تبريز ، وتوج نفسه شاها ، وفى سنة ١٥٠٦ كان كل الهضبة الايرانية قد توحد تحت قيادة هذا الغازى الجديد . وفى سنة ١٥٠٨ استولى على بغداد ومعظم العراق . وهكذا ترسخ عرش فارسى قوى جديد .

واضطهد اسماعيل الصفوى كل المسلمين السنة ووجه وايد حملات دعائية شيعية عنيفة خارج حدود دولته وشجعت

انتصاراته عديدا من المتعاطفين مع الشيعة على الاعلان عن ذلك التعاطف في كثير من ارجاء العالم الاسلامي خاصة في شرق الاناضول حيث باتوا يشكلون تهديدا لم يكن في وسع السلطان العثماني تجاهله • وفي سنة ١٥١٤ قامت ثورة شيعية واسعة النطاق ضد العثمانيين في شرق الاناضول ، تطلب قمعها تعبئة كل القوات المسلحة العثمانية • وبعد قمع هؤلاء المحرفين في عقر دارهم ، تقدمت القوات العثمانية صوب الشرق للوصول الى جرثومة الداء والقضاء عليها ، وفي معركة جالديران (تشالديران) سادت المدفعية العثمانية وقهرت الصفويين الفلاة ، لكن السلطان العثماني كان مضطرا للانسحاب دون تحطيم قاعدة حكم اسماعيل الصفوى • وبقيت الامبراطورية الصفوية خلال الفترة المتبقية من القرن السادس عشر ، مصدر ازعاج عميق للعالم الاسلامي ، تكرس طاقاتها للدفاع ، وللدعاية لعقائد الشيعة • وقد خلقت هذه السياسة حالة عداء تقليدية مع الامبراطورية العثمانية ، لم تتخللها فترات سلام الا قليلا ، فلم يحل السلام الدائم بين الطرفين حتى سنة ١٦٣٩ •

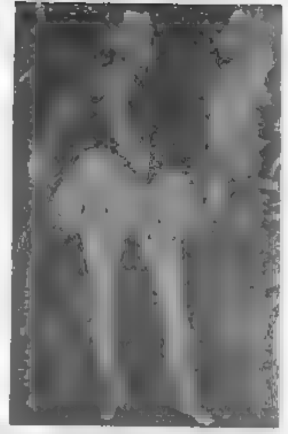
وبعد فشل العثمانيين في اجتياح الامبراطورية الصفوية في سنة ١٥١٤ ، وجدوا أنفسهم ــ اى العثمانيين ــ مضطرين لاتخاذ مزيد من الاجراءات العسكرية لاحباط مشروع التحالف بين اسماعيل الصفوى والحاكم المملوكي في مصر وسوريا • ونجح سليم الاول في فتح سوريا ومصر ، ولم يخض في سبيل ذلك الا معركة واحدة سنة ١٥١٦/١٥١٧ ، وذلك بفضل تنظيم الانكشارية وتفوق المدفعية العثمانية التي سبق وحققت تفوقا ضد الفرس (في معركة جالديران) وقد أدى انتصار سليم على المماليك ايضا الى ايصال الحكم العثماني الى المدينتين الهامتين المقدستين وهما مكة والمدينة اللتين كانتا تابعتين للحكم المملوكى •

وقد بدأ سليم أيضا في مد سلطانه على المدن الساحلية في شمال أفريقيا ، انطلاقا من قواعده الجديدة في مصر ،

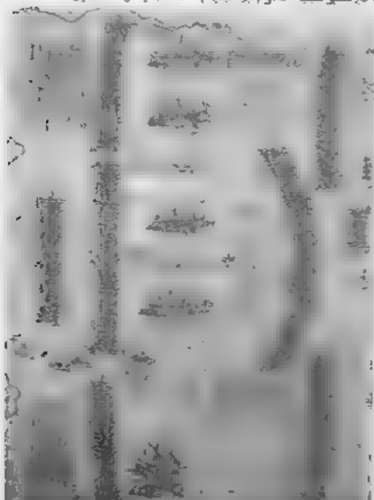


طريقة التخييم (العسكرة) البدوية التي ترجع في أصولها إلى الحروب البدائية البدوية (القبلية) ، كانت تراثا ورثته الدولة العثمانية ،
وهي طريقة تفتح شهية المقاتلين للسلب والنهب — وهي في الوقت نفسه طريقة من الصعب التمسك بها في ظل نمو
مؤسسات الدولة العثمانية واتساع مسئولياتها .

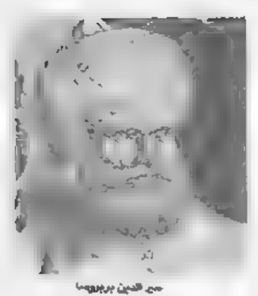




دون جوان النمساوي [illegible] الذي أحرز النصر في معركة ليبانتو كان ابناً غير شرعي للامبراطور شارل الخامس كما كان أخاً غير شقيق لفيليب الثاني ([illegible]) ملك اسبانيا من ١٥٥٦ إلى ١٥٩٨



معركة ليبانتو ١٥٧١



خير الدين بربروسا



اندريا دوريا حاكم جنوة والأدميرال (أمير البحر)
الإسباني (١٥٢٨ - ١٥٦٠)

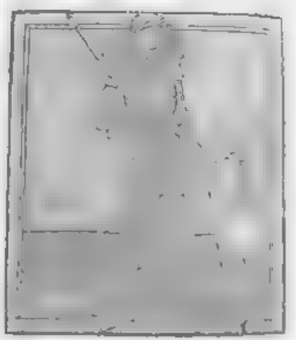
حصار مالطة سنة ١٥٩٥ حيث هزم العثمانيون بسبب فشلهم - بالتعاون مع حلفائهم
سكان شمال أفريقيا - في تحطيم القوى البحرية الاسبانية ، وبالتالي فشلوا
في إحكام السيطرة على غربي البحر المتوسط



التاج والصولجان ، والرداء الكهنوتى فى صورة قيصر كلها توضح الإسراف والمغالاة فى تقليد المظاهر البيزنطية



مخطوط من أيام ستيفان دوشان



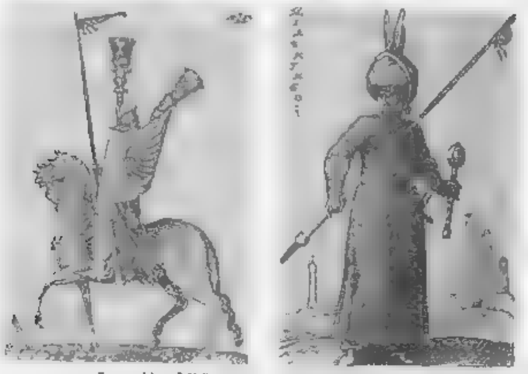
اسكندر بك ، النبيل الألبانى الذى قضى شبابه فى البلاط العثمانى ثم ارتد إلى المسيحية واستطاع أن ينظم بمساعدة البابوية مقاومة عنيدة للفتح العثمانى لألبانيا



البوجوميليون يشكلون مذهباً دينياً مسيحياً - نسبة إلى القس بوجوميل (المقابل أو الترجمة السلافية للاسم الاغريقى ثيوفيلوس) ويعتقد البوجوميليون أن العالم المادى من خلق الشيطان - وينظرون إليه - أى إلى العالم المادى - بمقت شديد. وقد ذابت الغالبية العظمى منهم (أى من البوجوميليين) فى العالم الإسلامى . ومن آثارهم الدالة عليهم - طريقتهم فى الدفن - كما هو واضح من هذا الرسم من إقليم البوسنة



المطالبة بحرب صليبية
لاستعادة القسطنطينية
وفي الصورة بيوس الثاني
(١٤٥٨ - ١٤٦٤)
يطالب بالإعداد لحملة
صليبية لتحقيق هذا
الغرض



الجرنزر أو مقاتلو الحدود كانوا يمنحون حيازات في المناطق الواقعة على طول حدود الهبسبرج
مع ولاية المجر العثمانية وذلك مقابل خدماتهم العسكرية وقد ظلت أفواج الجرنزر تلعب
دورا بارزا في النظام العسكري للنمسا حتى تم دمجها في جيش النمسا النظامي
سنة ١٧٤٧ لاحظ الشبه في المعدات الحربية وفي
الزي بين الجرنزر والسباهي العثماني





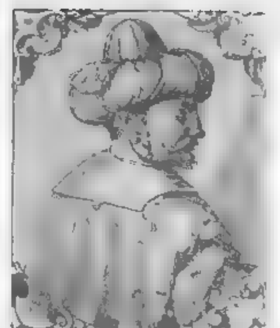
ايزابيلا ـ ملكة قشتالة وزوجها فرديناند الكاثوليكي ملك ارغون ـ وبعد زواجهما (فرديناند وإيزابيلا) سنة ١٤٦٩ وسقوط المملكة الاسلامية في غرناطة سنة ١٤٩٢ ـ الأحداث الهامة في تاريخ اسبانيا

طرد المسلمين من اسبانيا





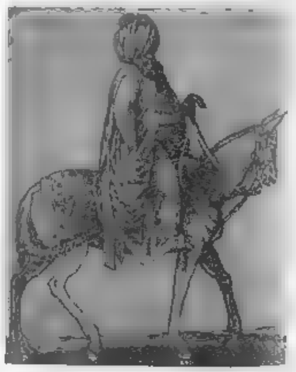
محمد الثاني (الفاتح)



سليمان الأول (القانوني)



شارل الخامس يداعب كلبه



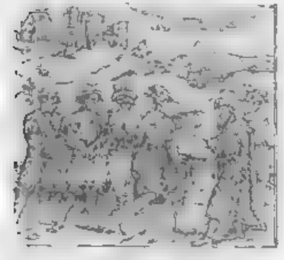
قاضي عسكر في زيه الرسمي
هذا المنصب لا يشغله إلا من كان مسلما بالميلاد



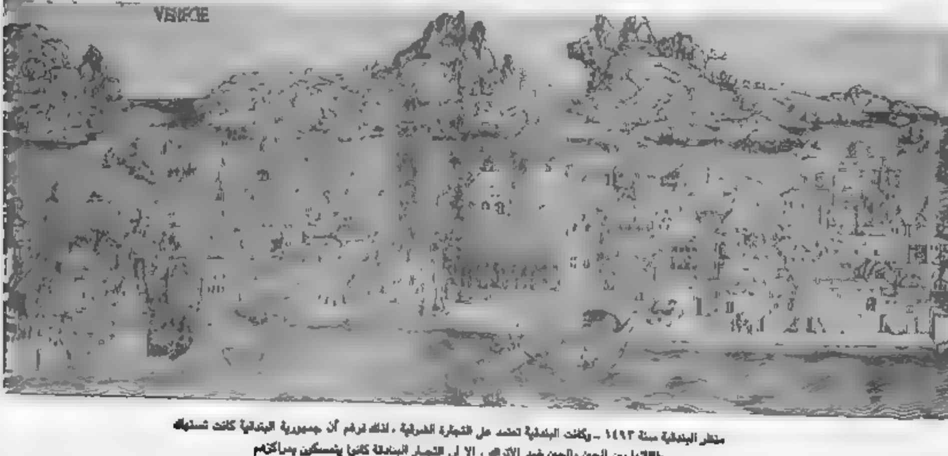
صفحة العنوان لكتاب موعظة
الحرب لمارتن لوثر



الجنوي الشهير جيمس أندريا دوريا الذي
جعله عمه أندريا كأدميرال (أمير بحر)
للأسطول الأسباني



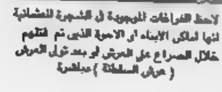
صورتان من كتاب بارتلميو جورجيفتش
الأولى قتل الأسرى الأربعين والثانية
عقاب اللاجئين



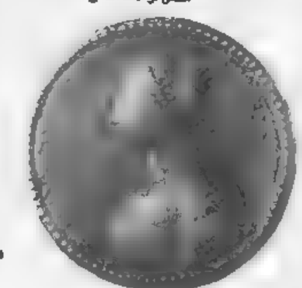
منظر البندقية سنة ١٤٩٣ ـ وكانت البندقية تعتمد على التجارة الشرقية ، لذلك فرغم أن جمهورية البندقية كانت تستهلك طاقاتها بين الحين والحين ضد الأتراك ، إلا أن التجار البنادقة كانوا يتمسكون بمراكزهم التجارية في الدولة العثمانية

سفير البندقية في سطمبول داخلا لحضرة السلطان

صورة صفحة العنوان لكتاب توماس فولر الموسوم مسلسل تاريخ الحرب المقدسة والمؤلف يعارض فكرة الحروب الصليبية ضد الكفار (غير المسيحيين) . الا أن العقل الاسلامي كان أقل تأثرا بفكرة لوم النفس أو النقد الذاتي .



لاحظ الفراغات الموجودة في الشجرة العثمانية إنها أماكن الأبناء أو الاخوة الذين تم قتلهم خلال الصراع على العرش أو بعد تولي العرش (عرش السلطنة) مباشرة



جراسيا ناسي عميدة أسرة ناسي اليهودية التي استقرت في استانبول

مخطط معركة القديس جوثارد ١٦٦٤



قرة مصطفى



توكولي



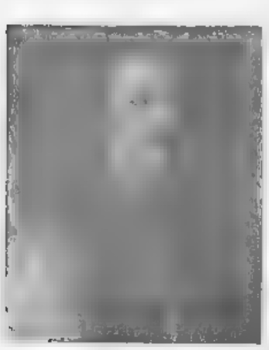
باسبك الدبلوماسي الفلمنكي (من الفلاندر)



طبيب يهودي – كان الإقبال على الأطباء اليهود في ظل الدولة العثمانية بالقدر نفسه الذي كان عليه إقبال الأوروبيين في القرن السادس عشر. وقد أقبل اليهود على العمل كعاملين ووكلاء تجاريين في استنبول خلال هذه الفترة مما جعلهم ذوي نفوذ كبير

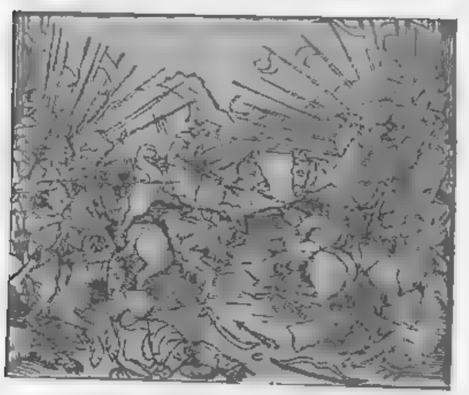


السلطان محمد الثالث



الإنساني الإيطالي باولو جيوفيو

حصار العثمانيين لبلجراد سنة ١٥٢١ ، استخدم العثمانيون القوارب



« حفر على الخشب » هكذا تصور الفنان الأوربي الحرب
بين العثمانيين والصفويين سنة ١٥١٤ م



حصار فينا ١٥٢٩ في عهد سليمان القانوني

مدى المناخ القاسي ، بالإضافة لمقاومة الهبسبرج المنظمة إلى إجبار السلطان العثماني على رفع الحصار عن فينا بعد ثمانية عشر يوم ، فقط

قسوة الترك (العثمانيين) كان هو الموضوع الأثير لدى رجال الدعاية الأوربيين . في الصورة تاج محمي يضعه العثمانيون على رأس جورج دوزا قائد ثورة الفلاحين سنه ١٥١٤

فرديناند الأول ارشيدوق النمسا والإمبراطور الإمبراطوريه الرومانية المقدسة (١٥٥٨ ـ ١٥٦٤) والمطالب بعرش المجر

في محاولة للحد من توسع الدولة الشيعية الثانية المتمردة وهي دولة الاشراف السعديين في المغرب الأقصى (١) • ففي سنة ١٥١١ نظم هؤلاء الاشراف دولة قوية ضمت المناطق القبلية والحضرية في المغرب الأقصى معتمدين على دعوة دينية تشبه في طريقتها — طريقة بث الدعوة — تلك الطريقة التي حققت نجاحا كبيرا في فارس والعراق • لقد كان الاهتمام بهذه التطورات ومتابعتها بشكل ضرورة ملحة طارئة جعلت العثمانيين يدفعون بأساطيلهم البحرية للعمل على السواحل الجزائرية ، وقد أدى هذا الى اثارة الحروب البحرية — التي طال أمدها — مع اسبانيا في القرن السادس عشر ، وعلى أية حال ، فان العداء والحقد الشديدين بين العثمانيين وسكان شمال أفريقيا من ناحية ، ومسيحيي ايبيريا من ناحية اخرى — قد منع الصدام المباشر بين العثمانيين ودول المغرب الأقصى •

لقد كانت السياسة الثابته للسلاطين العثمانيين في القرن السادس عشر هي مواجهة الهرطقة والبدع التي لا يوافق عليها علماء السنة ، ومحاربتها ، ولكن دون محاولة العمل على انتزاعها من جذورها تماما — وكان السلاطين يطبقون هذه السياسة في كل المناطق الخاضعة لسلطانهم • فطرق الدراويش الهراطقة ، كانت جزءا لا يتجزأ من الدولة العثمانية بحيث كانت مهاجمتها أمرا صعبا • فالانكشارية على سبيل المثال كانوا أعضاء فيها وكانوا على استعداد للدفاع عن شيوخهم (مرشديهم الروحيين) من دراويش البكطاشية ، كما كانت الطرق الأخرى غير البكطاشية، مندمجة ، بنفس الأسلوب في الروابط (النقابات) الحرفية في اسطنبول ، وفي الجمعيات والمجتمعات على مستوى الأناضول كله •

---

(١) يخلط المؤلف بين الاشراف او ادعياء الشرافة ، والشيعة فليس كل الاشراف شيعة ، وليس ادعياء الشرافة ، بالضرورة ، شيعيا ، ولم تكن الدولة السعدية دولة شيعية — (المترجم) •

وبعد ثورة سنة ١٥١٤ وما صحبها من مذابح تراجع معظم الشيعة والمتعاطفين معهم وتظاهروا باعتناق المبادىء السنية ، تقية ، هي أسلوب الخداع التقليدى الذى ألفوه ٠ ومع هذا فقد قامت ثورات خطيرة في المناطق النائية ، فقد قام الدراويش بثورة بين قبائل التركمان في كرمان وجبال طوروس ، وكانت ثورة ذات طابع حساس ، ورغم أنها نشبت في سنة ١٥٢٦ الا أن قمعها استغرق عامين ، وبصرفه النظر عن ضرورة اظهار القوة العسكرية في الولايات النائية ، فان السلاطين اكتفوا باتخاذ الاحتياطات الادارية، والحذر ، في هذه المناطق النائية ، فسليمان قد دعم ونظم جهازا يضم علماء المسلمين في الامبراطورية ، على أساس تصاعدى (هيراركى) ، ودعم وأيد مؤسسات التعليم السنية، ووضع ثقل حكومته لتدييد المذهب السني المنشود ونتيجة لاجراءاته هذه فان عقائد المخرفين الهراطقة (وكان غالبهم من الشيعة الذين اتخذوا التقية طريقا) من الدراويش ، بدأت تفقد شيئا فشيئا ، وسائل التعبير العام عن أفكارها٠ ولقد كانت عقائد الدراويش تنحو تقليديا الى التأكيد على التشابه بين الاسلام والمسيحية ، وخلقوا جسرا بين الديانتين، كان له تأثيره ، لكن بعد اجراءات سليمان ، شرعت الفجوة بين المجتمعين ، الاسلامي والمسيحى ، تتسع ، بين رعايا الامبراطورية العثمانية ٠

وزاد اتساع الفجوة ، عندما كان سلاطين العثمانيين في القرن السادس عشر ، مضطرين للتضخيم من دورهم ، كحملة لألوية الجهاد ، لتعبئة رعاياهم المسلمين وبث الحماس بينهم ، استعدادا لسلسلة الحروب الطويلة ضد الأوروبيين في البحر المتوسط وشرق أوروبا ٠

لقد جمدت تشريعات سليمان الحياة العقلية في الامبراطورية العثمانية في قوالب محددة ، وبسببية (خانقة) ٠ فبدلا من مواجهة الهجوم ضد المذهب السنى على أسس فكرية ، فان علماء الدولة العثمانية عولوا على الاجراءات التي اتخذتها الدولة وصاروا يرددون

ويعيدون المواقف الرسمية للدولة ويفتون بادانة معتنقي البدع الشيعية عند ظهورهم • وعلى المدى الطويل كان هذا التقاعس الفكرى قد كلفهم كثيرا ، وبالتدريج فان التزام العثمانيين بالنقل دون العقل ــ أتاح للأوربيين أن يهزوا العثمانيين في مجال الفكر والمعارك المرة تلو الأخرى ، دون أن يكون لهذا صدى أو استجابة للتمييز لدى المسلمين (العثمانيين) وعلى اية حال ، فعلى المدى القريب ، كان يبدو أن العثمانيين يتمتعون بكل المزايا ، فالموقف الديني والنظام في الجانب الاسلامى ، كان يقابلهما على الجانب الأوروبى ، النقيض تماما ، ممثلا في الفوضى والاضطراب التى مارت أوروبا فى عهدالاصلاح الديني، حيث كانت تتصارع عقائد روما وفيتنبرج ــ وجنيف معا ، كما كانت هذه العقائد جميعا تتصارع بدورها مع العقائد المسيحية الراديكالية ممثلة فى المناهضين للتعميد والمناهضين للتثليث Unitarians ورغم هذا ، فقد كان اللوم والتوبيخ المتبادلان بين المذاهب المسيحية ، قد دفعا هذه المذاهب المسيحية في مناسبات مختلفة الى مناظرات عقلية ، وهذا ما لم نكن تجد له نظيرا بين المسلمين •

ومن وجهة نظر الأوربيين المعاصرين ــ خاصة أولئك الذين عانوا بمرارة من الجيوش والأساطيل العثمانية في شرق أوروبا والبحرالمتوسط ــ كانتالامبراطورية العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قوة مهيمنة وعدوا لا يغلبه غلاب •

ومع هذا فانه من خلال المؤسسات والعمليات الاجتماعية، التي أفرت وأدت الى هذا التقدم والنصر على المستوى الامبراطورى ــ ظهرت ــ ولكن متأخرا ، عوامل التناقض ، والهلهلة والتمزق ، التى كانت تتجلى واضحة كلما تقدم الزمن ، والتى تمخض عنهما فى النهاية تقليص كبرياء الامبراطورية العثمانية ، فبدت امبراطورية اعتراها الشلل ، وبدت طاقاتها مستنزفة ومستهلكة وخائرة القوى•

لقد بقيت امبراطورية سلاطين آل عثمان ــ بدون تغيير

حقيقي ـ صالحة لتحقيق أغراضها الأول، ممثلة في الغارات الهمجية ، التي كانت هي اساس قيام الدولة ومنها ـ اى من هذه الغـارات الهمجيـه ، تطـورت ـ اى الامبراطورية العثمانية ، لقـد كانت نظم الامبراطورية مخططة لتحقيق اغراض السلب والنهب • تلك كانت بنية الدولة العثمانيه، رغم كل التوسع الخارجي ، وكل الظروف التي أحاطت بها• فالموارد التي هيأت لأسـطـول النصـر والازدهار كعاصمة كبرى لم تكن لتتهيا بدون الغـارات عبر الحـدود • وقـد ازدادت غارات الحدود هذه عددا وعدة بعد استقرار الدولة فغدت ضرورية ، ولكنهـا أصبحت تتم من خـلال جيـوش جرارة ، ولم يكن يتأتى تعبئة هذه الجيوش ، الآن ، كما كان فى الماضى ـ الا باتباع طريقين ، اولهما توزيع الاقطاعات على المحاربين في مقابل خدماتهم العسكرية ، ولما كان نزع ملكية ملاك الأراضي المسـلمين ، أمرا لا تقـره الشريعـة الاسلامية ، لذا كان الطريق الوحيد للحصول على مسـاحات كافية من الأراضي لمنحها مزيدا من المحاربين ، هو التوسـع عبر الحدود ، ولن يتـأتي هـذا الا بمزيد من الغـارات ، وثانيهما ، جمع الرقيق لتكوين جيش منهم ، ولن يتـأتي تجميع الـرقيق الا بمزيد من الغارات • وكان ولاء هاتين القوتين اللتين تشكلان القوات المسلحة العثمانية واخلاصها يعتمد عـلى اتاحة فرص وموارد لا تنضب من الاسـلاب والغنائم ، ولضمان جهاز من العبيد المطيعين ، كان لابد من مزيد من الغارات ، يقوم بها العبيد أنفسـهم لجلب عبيـد آخرين •

تلك هي الدائرة التي تشـكل النظـام ، والتي تدور لتوفير موارد لا تنفد من الرقيق والغنائم والمكاسب والاراضي• ولم يكن العثمانيون يستطيعون الاسـتمرار بدون هـذا ، فالغارات كانت تجلب لهم أدوات البقاء ، وتكون لهم جهاز حـرب بدائيا وسـاذجا اذا ما قورن بغيـره ، كمـا كانت أساليبهم تلك تؤثر في أجهـزة التنقـل لديهـم ، وأجهزة اتصالاتهم ، وأساليب ادارتهم • وفوق هـذا فقـد كانت

طبيعة العثمانيين تجعل تخليهم عن السلب والنهب أمرا غير قائم ، اذ كان تراجعهم خلف حدود ثابته سيؤدى يقينا الى تفتت السلطة المركزية بسبب عدم مقـدرتهم — فى هـذه الحالة — على السيطرة على أجهزة الحرب والغزو تلك ، وذلك أن حائزى الاقطاعات سيحققون مكاسب من فترات السلم الطويلة ، لترسيخ دعائمهم والقرار امرهم فى عقاراتهم وأراضيهم ، بعيدين عن مطالب الحكومة المركزية ، كما أن الجند من العبيد الذين يستمدون حياتهم واستمرارهم من توقع مزيد من الغنائم والاسلاب ، قد يحولون ولاءهم عن أسيادهم لاجئين للسلطان الذى يشبع نهمهم للغزو والغارة عبر الحدود ، وقد حدث هذا التطور حتى فى عهد سلطان مهيب كسليمان القانونى ، اذ ادى وجود الانكشارية فى حالة سلم لمدة ثلاث سنوات ، الى سلسلة اضطرابات خطيرة قام بها الانكشارية فى اسطنبول فى سنة ١٥٢٥ . ورغم الانتصارات العسكرية الحادثة فى سنة ١٥٢٦ الا ان الأحداث ما لبثت تترى فى نفس الحقبة الزمنية (العشرينات من القرن السادس عشر) مفجرة الجانب الآخر من المشكلة، تلك أنه من المستحيل من الناحية الفنية العسكرية الاستمرار فى احراز انتصارات عسكرية هائلة ضد أهداف تبعد كثيرا عن قلب الدولة العثمانية ، ففى مذكرات السلطان اليومية التى تسجل التراجع من فينا الى بلجراد فى سنة ١٥٢٩ ورد أن « الجليد كان يغطى كل شيء من الليل حتى ظهر اليوم التالى » وان كثيرا من الخيول والرجال، فقدت فى المستنقعات وأن « كثيرين ماتوا جوعا » . ان النتيجة المنطقية لمثل هذا التكوين ، هو ان النظام بحكم تكوينه ، يحطم نفسه بنفسه ويهزم نفسه بنفسه (يأكل بعضه بعضا) ، انه نظام يمكنه أن يحرز انتصارات كبرى ، ولكنه لا يستطيع أن يعمل مدة طويلة .

وبهذا المعنى ، كانت الامبراطورية العثمانية محكوما عليها بالاخفاق فى التحرر من أصولها وتراثها وثمة بعد آخر هام يحكم ببوارها ، ويتمثل فى توجه متضاد — آلا وهو

تجربة تاريخية تقف دون استمرار التقاليد العثمانيه الفعالة .

لقد كان سر نجاحات العثمانيين الأول يكمن في قدرتهم على الاستيعاب والتمثل ، بشكل ملحوظ ، فلم تكن الرابطة بين المقاتلين عند الترك منذ البداية ، رابطة قبلية اذ لـم يكونوا يرتبطون معا من خلال بنية من علاقات النسب والقرابة حيث لا مكان للغرباء . بل كانـوا مجموعة من البدو الرحل المقاتلين في حاله حـركة دائمـة اته تنظيم اختيارى يقوده زعيم (قائد) مختار (منتخب) ، كمـا انه نظام مفتـوح بحيث كان اى فرد قادر عـلى الالتحـاق به (الانضمام اليـه) . وطالما كانت المجموعة المهاجرة (المرتحلة) تخرج من نصر الى نصر فانها أثناء ذلك كانت تستوعب عناصر من الرجال والنساء الأكفاء من المستقرات والمستوطنات الزراعية التى تجتاحها هذه الجماعة المهاجرة وتشبعها سلبا ونهبا ، وبعد الانتصار عليها تعبيء رجالها ونساءها واطفالها المهزومين ، وكانت هذه المجموعة المهاجرة تضم اليها الدراويش المتجولين ــ الذين كانوا يبحثون بدأب عن مريدين ــ والخارجين والآبقين والفئـات الاجتماعيـة المنبوذة والتى لم تجد لها مكانا داخل الحدود البيزنطيـة ، كما كانت تضم جماعات الفلاحين الذين اجتثم المغـول من جذورهم وأبعدوهم عن ديارهم في الأناضول . وبطريقـة مشابهة يمكن الحديث عن كل ملامح وخصـائص الثقـافة العثمانيـة التى تكونت وظهـرت بعـد ذلك ، انها ملامح وخصائص تم اكتسابها ولملمتها من الطريق ، فهذه القدرة الفائقة على الاحتواء هي التى تفسر الطريقة الباهرة التى تمت بهـا الفتـوح والغـزوات العثمانية الأولى فلم يبق العثمانيون بمعزل عن الشـعوب التى فتحـوها ، ولا غرباء منهم ، ويرجع هذا الى أنه لم يكن لهم هوية خـلا الانتماء لقوتهم العسكرية ولقائدهم الحربى خاصـة ، لقـد كانوا يندمجون ويتعايشون مع الثقافات الأخرى ، فلم يكن ثمـة شيء غريب بالنسبة لهم الا السلام .

لقد تغير كل هذا بصورة أساسية عندما تحولوا للاسلام، فقد كان اعتناقهم للاسلام يعنى أكثر من أخذهم ببعض المبادىء فى العقيدة والشريعة • لقد كان تحولهم للاسلام يعنى اندراجهم فى هيكل احدى الثقافات (الحضارات) العالمية الكبرى التى يميزها من الثقافات (الحضارات) الأخرى هيكلها القانونى (التشريعى) المحدد وتنظيمها الاجتماعى والسياسى ومحاولاتها وتجاريبها الفنية والحرفية ، واتجاهاتها فى الحياة ونظرتها للقدر ، فباعتبار الاسلام يمثل منهجا شاملا للحياة ، كان خصبا ومليئا بوجهات النظر المختلفة ، بشكل غير عادى ، فقد كان الاسلام يقدم لمعتنقيه فرصا واسعة للاختيار والتفسير ، وان كان فى نفس الوقت يفتقد التسامح (١) ، متسما بالترفع ، والاهم من هذا أنه دين يعادى بشدة العقائدالأخرى المختلفة معه - وكما ورد فى كتاب تراث الاسلام The legacy of Islam :

« ان المجتمع الاسلامى يختلف عن المجتمعات الأخرى ، انه المجتمع المختار ، انه الشعب المبارك • انه المجتمع الذى تتوقع فيه مزيدا من الخيرات ، والأمور الطيبة ، انه المجتمع الذى يحارب الشيطان (الشر) ، انه المستقر الوحيد للعدالة والصدق على ظهر البسيطة • انهم المبعوثون الوحيدون للأمم للدعوة الى الله ، تماما كما كان النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) المبعوث الوحيد للدعوة الى الله (وحده) بين العرب » •

ولم يحدث هذا البتة بينما كان العثمانيون فى حالة تماس جغرافى مع العالم الاسلامى ، ولكن خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، عندما كان العثمانيون فى مرحلة التطور والنمو من امارة صغيرة غير ثابتة الحدود الى امبراطورية عظمى ، هيمن العثمانيون من خلالها على عدد ضخم جدا من الرعايا المسيحيين فى جنوب شرق أوروبا ،

(١) يناقض المؤلف نفسه هنا ، فقد ذكر فى أكثر من مائة موضع من كتابه هذا ، ما تمتع به المسيحيون فى ظل حكم المسلمين من تسامح - (المترجم) •

ففي هذه المرحلة ، ووفقا لما أملاه عليهم تراثهم العميق التليد ـ كان المفروض أن يعتنقوا دين رعاياهم الجدد . لكن هذا لم يحدث لأنهم أتوا الى أوروبا حاملين معهم هذا الدين المنطوى على التعصب وعدم التسامح ، ونعنى به الاسلام ، بالاضافة الى أنهم كانوا يحملون عبئا آخر ممثلا في رعاياهم المسلمين كثيرى العدد في ولاياتهم الآسيوية اذ كان على العثمانيين أن يضمنوا ولاء هذه الولايات الآسيوية في الحسبان . على انه بعد سقوط القسطنطينية على يد محمد الثانى (الفاتح) كانت هناك محاولات غير متحمسة ، تجرى على استحياء ، لاخراج توليفة من المسيحية والاسلام ، وذلك في دوائر البلاط العثمانى ، ولكن مؤتمرا (مجمعا) من العلماء المسلمين واللاهوتيين المسيحيين في القسطنطينية لم يكن ليستطيع انجاز شيء ازاء هذه المسالة المتعددة الأبعاد وكما رأينا فان الاضطرابات المزلزلة التي اجتاحت العالم الاسلامي نفسه في بداية القرن السادس عشر قد أجبرت السلاطين على التخلي عن محاولاتهم التوفيقية هذه بين المسيحية والاسلام لصالح المذهب السنى الاسلامى الحاد القاطع المانع exclusive وبينما كان هذا المذهب السنى يمنع اضطهاد الرعايا المسيحيين (١) ، الا انه لم يكن يشجع أى خطة أو برنامج لتحويل الشعوب المسيحية تحولا جماعيا للاسلام . ولقد تأكد هذا الموقف (عدم تحول الشعوب المسيحية الواقعة في ظلال العثمانيين تحولا جماعيا للاسلام) بالمنافسة بين الامبراطورية العثمانية من ناحيه ، والقوى العظمى في أوروبا المسيحية من ناحية أخرى ، تلك المواجهة التي جعلت من الضرورى أن يؤكدالسلاطين هويتهم الاسلامية بشدة مما جعلهم يدافعون عن دينهم الاسلامى باعتبارهم حماة له . بل وأكثر من حماة أيضا .

وكانت النتيجة الحتمية لهذا ، هو استمرار اتساع الفجوة بين العثمانيين ورعاياهم المسيحيين ، حيث قطعت

(١) يناقض ما ذكره المؤلف في الصفحة السابقة ـ (المترجم) .

جسور التفاهم بين الطرفين • وما عادت الدولة العثمانية كما كانت في مراحلها الباكرة ، مؤسسة تعتمد على حرية الاختيار Voluntary association اذ لم يعد المسيحيون مقبولين كمواطنين من الدرجة الأولى (لم يعودوا أعضاء لهم كامل الحقوق في هذه المؤسسة) ورغم أن فلاحي أوروبا الشرقية قد رحبوا في البداية بالعثمانيين كمخلصين لهم من الطبقات الحاكمة التي كانت تسومهم سوء العذاب بدون أى احساس ، ولكن عندما استقر حكم العثمانيين ، منعتهم عقيدتهم الدينية الاسلامية من توثيق عرى المودة والتعاطف بشكل دائم مع رعاياهم بطريقة مبنية على الثقة المتبادلة أو بناء على عقائد مشتركة • فقد يتسامح الرعايا، لكن تسامحهم بدون حماس ، اذ كانت الحكومة لا تقبل شهادتهم (أى المسيحيين) فى المحاكم ، وتمنعهم من بناء كنائس جديدة ، وتحظر عليهم قرع أجراس الكنائس •

لقد كانت الامبراطورية العثمانية في أوروبا تمثل جهازا اداريا مؤثرا وفعالا ويدعو للاعجاب ، ولكنه كان معزولا بسبب العامل الدينى الذى حال بينه وبين الاندماج الوثيق بالسكان ، اندماجا يشكل كلا متكاملا معهم ، فمثل هذا النظام المبنى على تعايش الصدفة وغير المؤسس • لا ينتج منه مجتمع متكامل مترابط بشكل عضوى ، فان أى وهن أو انحدار يعترى كفاءة المؤسسةالعسكرية التي كان العثمانيون — عن طريقها — يسوسون ويقمعون امبراطوريتهمالأوربية • — كان كفيلا بكشف تناقضها الأساسى الذى يحتم زوالها فلم تكن التوترات المسببة للانهيار بعيدة بدرجة كافية عن سطح المجتمع العثماني ، فقد كانت المزاوجة بين السباهيين المسلمين وكتائب الرقيق والاداريين التابعين للبيتالسلطاني تكون جهازا عسكريا وسياسيا ذا قوة لا تقاوم ، وبطبيعة الحال كان من الضرورى حفظ التوازن بينها ، وكانت مهمة حفظ هذا التوازن لتحقيق وظيفة هذه الأجهزة الضرورية

تقع على عاتق السلطان ، ومن خلال ضبط هـذا التوازن ، كان السلاطين يستمدون قدرتهم على الهيمنة والسـيطرة • وكان مصدر الخطر لا يكمن في مسـألة التـوازن في حد ذاتها ، وانما كان في حقيقة الأمر يكمن في عبيـد البيت السلطاني ، اذ كان الميزان يميل لصـالحهم • فخلال حـكم سليمان لم يكن من الممكن في معظم الأحوال ، أن يصل الحر المسلم بالميلاد مهما كانت كفاءته ، لمرتبة متميزة سـواء في الجيش أو الجهاز الادارى ، فقد كانت المنـاصب العليـا ، قصرا عـلى الـكولار Kullar ، وهـم الرجال من رقيق السلطان ، بينما كانت طبقة الاقطاعيين في الامبراطورية ، تشكل المحاربين ذوى الأصول التركية ، وكان كثيرون منهم فخورين باندراجهم في سلك الخدمة العثمانية ، ومع هـذا فقـد كانوا مسلوبى السلطة والمزايا ، لقـد كان المجـال مفتوحا أمام الأكفاء والموهوبين ، لكن في هذه الامبراطورية التركيـة التي كانت معرضـة للتهـديد ، كان يشترط أن يكون هؤلاء الأكفاء والموهوبون من غـير المسلمين بالميلاد ، ومن غير ذوى الأصـول التركية • وقد عمـل عـلى زيادة السخط بين السباهيين ، عـوامل طارئة ممثلة خاصـة في التضخم الاقتصادى الذى شمل الامبراطورية العثمانية عامة وكل مجتمعات حوض البحر المتوسط ، خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر • وقد أدى هذا التضخم الى ايجاد فرص كسب معتبرة ، لشاغلي الوظائف العامة ، بينما أدى نفس التضخم الى تاثيرات سيئة على أولئك الذين يتعيشون من الدخول المحدودة لأراضيهم ، ولكن المشكلة الجوهرية قد نتجت عن عدم كمال التوازن بين القـوى الاجتماعيـة في أجهزة الامبراطورية الحربية ، وأجهزة الحكم ، فأحـداث الخمسينات من القرن السادس عشر الناتجة عن تنافس ثلاثة من أبناء سليمان القانوني عـلى خلافة أبيهم ، قد أظهرت خطورة عدم التوازن هذا ، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة كون جيشا هائلا خاصا باستمالة السباهيين السـاخطين ، يبـذل الوعود لهم بشغل المناصب الهامة في الديوان السلطاني اذا

ما ارتقى سدة السلطنة • وفي بعض الحالات كان السباهيون رسميا يتقلدون أوشاح (مناصب) الانكشارية ، كصمان لتحقيق أهدافهم ، وذلك كي يتمتعوا بمزايا ومكاسب الكولار (عبيد البيت السلطاني) ولم يتم استتباب السلام الا بعد اعدام اثنين من الأمراء (من أبناء سليمان القانوني) وكان من المحتمل لو أن سلطان آخر غير سليمان كان على عرش السلطنة ، لكان قد فقد السيطرة على الموقف كلية •

وحتى في خلال الفترة التي بلغ فيها النظام العسكرى والادارى العثماني ذروته ، كانت تتجلى مظاهر الصعوبات الداخلية • وكان لابد لهذه الشروخ التى برزت أن تنمو وتتفاقم بعد توقف فتوحات القرن السادس عشر المحمومة ، وانتقال السلطة الى جيل من السلاطين والوزراء العظام من ذوى القدرات العادية •

وبالنسبة للامبراطورية العثمانية – باعتبارها احدى دول العالم الاسلامى – كان التناقض الشيعي السني يمثل ملمحا جوهريا ، لخبرات العثمانيين التاريخية • خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وعلى النقيض من هذا فان التصادم والتعارض الحادث في أوروبا ، كان هامشيا ، لقد كان الانحياز الى جانب السنة ، يتبدى للعثمانيين قدرا ضروريا ، اذ كانوا يودون أن يتحول مجتمعهم غير المستقر ، وغير المحدد وغير المنضبط الى مجتمع يحكمه نظام محافظ يتمثل التعاليم والعقائد الاسلامية • وعلى النقيض من النظام الذى ساد مناطق الحكم العثماني ، كانت الاضطرابات تسود أوروبا في عهد حركة الاصلاح الديني ، ومن هنا كان في مقدور رجال الدولة العثمانية أن يشعروا أنهم تجاوزوا بنجاح الأزمة الدينية التى كانت تهدد مجتمعهم في بواكير القرن السادس عشر ، كان من نتيجة ذلك تهذيب المواجهة مع الهراطقة (أصحاب البدع) والكفرة كما أن الاتجاه المتحفظ الذى كان يسير بخطى ثابتة ، قد أدى الى طرح كل البدع ، فبالرجوع الى الصيغ والاشكال القديمة (السلفية)

يبدأ ازدياد تخلى العقل الاسلامي من هذه العناصر العقلية فى التراث الاسلامى ، والتى كان من المحتمل أن تمكنهم من الاحتفاظ بمكانة ازاء سلسلة الثورات الثقافية والاقتصادية التى كانت على وشك أن تجذر أفكارها فى أوروبا . لقد كان ثمة شيء قريب الشبه بروح النهضة الايطالية ، كامنا فى بلاط محمد الثانى (الفاتح) ولكن سليما (الصارم) وسليمان القانونى (الفاخر) قد قمعا هذه الأفكار الخطرة فى سائر أنحاء الامبراطورية ، لقد حققا (سليم وسليمان) نجاحا كبيرا فى هذا المضمار لدرجة أن روح الفكر والنظر والتحديث التى تمخضت عن مدن عامرة بالآداب والعلوم الحديثة فى أوروبا لم تتقدم مطلقا فى الامبراطورية العثمانية ، فلم تواجه الامبراطورية العثمانية حركة الهرطقة وشيوع الخرافات فيها الا بالتأكيد على العودة لتراث السلف (الماضى) فقد ادى العجز الفكرى الكامن مسبقا فى العقلية العثمانية الى حجب أى رد فعل بناء عند مواجهة أية تحديات من هذا النوع فيما بعد ، لقد كان السنة المتعلمون والأتقياء يشعرون بأن القبول المطلق بلا اعتراض لحقائق الاسلام هو الطريق الوحيد لوضع عقلى امن وملائم ومريح . ولكن غياب المناظرات الفكرية، ادى الى اضمحلال النشاط الفكرى، وبدأ علماء الدين يفقدون مكانتهم شيئا فشيئا ، ويتخلون عن ميراثهم الفكرى . لقد كان هذا الجمود الفكرى هو الثمن العالى الذى تحتم على العثمانيين دفعه لمواجهة البدع (الهرطقة) ، والى هذا الجمود يرجع السبب الرئيسى لفشل الاسلام فى ايامنا هذه (وليس معنى وجود فئة جامدة أن نقول بأن الاسلام قد فشل ، فالفكر الاسلامي يخص أوروبا ذاتها حتى فى القرن العشرين) (١) .

وقد أسهمت البنيه الاجتماعية للعالم الاسلامى ، بشدة فى هذه النتيجة ، فلم تكن الأفكار الجديدة لتأمل فى تربة مناسبة فى دولة مكونة من طبقة صغيرة من الرسميين والعسكر

---

(١) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

فرضها ضرائب باهظة على كاهل الفلاحين ، واذلال لسكان المدن عن طريق الرسميين وملاك الاراضي بحيث أضحى هذا ملمحا دائما لمجتمع الشرق الأوسط منذ الألف الثاني قبل الميلاد • وعلى المدى القريب فان الامبراطورية العثمانية ، قد دعمت هـذه البنية الاجتماعيـة بما أوتيت من تنظيم امبراطوري فائق الفخامة والبهاء •

أما علـى المـدى البعيد ، فكان رد فعل العثمانيين ازاء التناقض بين الشيعة والسنة قد أسهم في نقض ذلك المزيج، فبسبب دعم العثمانيين وتأييدهم الشديد للسنة السلفيين ، تسبب السلاطين في احداث فجوة خطيرة بين الطبقة الحاكمة وطبقات العامة في المدن• فمنذ القرن السادس عشر فصاعدا كان الحرفيون والتجار في المدن يزداد اعتناقهم شيئا فشيئا للأفكار الخرافيـة المبتذلة وايمانهم بالمعجزات ، لذا فقـد واجه السنة البعيدون عن الخيالات والأوهام والجـامدون جدا ، سكان المدن الذين كانوا ميالين بشكل متزايد ومحموم للمبالغات الدينية - لقد أصبح العثمانيون بهذه الطريقـة بعيدين عن قلوب جماهير سكان المدن في الامبراطورية ، اذ كانوا غرباء عن رعاياهم المسيحيين ، ومعزولين على مضض من قبل الفلاحين الذين يعتمد عليهم في استمرار الدولة • وفي بداية هـذا الفصل وجـدنا الاجتمـاعي التركي زيا جوكالب Gökalp يذكر أفكارا استشهدنا بها لتأكيـد وجهة النظر القائلة بأن النظام الامبراطوري العثماني كان في الأساس مجموعة عناصر مستعارة تبناها العثمانيون في مجالات مختلفة ومن ثقافات متباينة • وفي هذا المجال نورد رأيه النهائي :

« وهذه المؤسسـات لم تكن أبدا حقيقة لتتكامل ولم يكن لينتج منها أبدا نظام متناسق » •

ويمكننا الرجوع الى قول جيبون Gibbon عن الطبقة الحاكمة العثمانية ، لقد قال انه « شعب مصنوع » لقد كانت الامبراطورية العثمانية انعكاسا لطاقات وذكاء هذه الطبقة

الحاكمة ولكنها كانت أيضا انعكاسا لنقص الأهداف الاجتماعية الخلاقة والسمحة • فبينما هي مدعاة للاعجاب كأداة ادارية وعسكرية اذا أحسن تدبيرها، فان الامبراطورية لم تظهر قدرة وطاقة على التطور الذاتي ، أو النمو بشكل مستقل •

لقد كانت هذه الأداة مجرد تجميع لعناصر وأدوات بسيطة ، وكانت هذه البساطة أو السذاجة ، كما عرض جبوكالب تؤدى في بعض الحالات الى محق كل النتائج المتوقعة ، وعلى هذا فقد كان النظام الهرمي (الهيراركى) لمدارس المساجد ــ التي كان يشرف عليها علماء الدين ــ قد صاغت طلبتها من خلال ثقافة اسلامية عالية وعالمية تقليدية • وفي نفس الوقت فان عناصر من قانون الأعراف التركي القديم التي كانت كامنة في التشريعات المدنية العثمانية ، كانت تلقن للعبيد الأوربيين (الدفشرمة) في مدارس القصر السلطاني • فبينما كانت مدارس المساجد تحت اشراف العلماء تعمل على اخراج الأتراك من تركيبتهم ليكونوا مسلمين ، فان هذه المؤسسات (مدارس القصر) كانت تجعل غير الأتراك ، أتراكا ، وعلى هذا ، فانه كما يبدو الآن ، كان المتعلمون في حالة تضارب ، غرضا وهدفا، فيما يتعلق بالوظيفة الاجتماعية للتعليم •

الفصل الثالث

الحروب ضد الغرب

١٥٢٠ ـ ١٥٨١

كان اعتلاء سليمان القانونى (العظيم) سدة السلطنة العثمانية فى سنة ١٥٢٠ ، فاتحة عهد من الغارات الكبرى فى البلقان والبحر المتوسط • كما كان عام ١٥٨١ هو عام انحسار الأعمال العدوانية بين العثمانيين والحلف المقدس ، البابوى الأسبانى ، فهذا التاريخ (١٥٨١) يعتبر تاريخا ذا دلالة بالنسبة لكل الأطراف ، فقد كان العثمانيون فى سنة ١٥٧٧ ، قد اتجهوا بغزواتهم فعلا صوب الشرق ، لينخرطوا فى حرب طويلة الأمد مع الفرس ، كما ان اهتمامات أسبانيا ـ التى كانت تعتبر قائدة الدفاع عن قضايا أوروبا ـ كانت قد انتقلت الى الأطلنطى ، فى نفس الوقت الذى كان فيه العثمانيون قد اتجهوا شرقا ، كما ان ثورة الأراضى المنخفضة كانت قد بلغت ذروتهـا بتهبيه الاسبان انتورب فى سنة ١٥٧٦ ، كما ألحقت البرتغال بالتاج الأسبانى فى سنة ١٥٨٠ • هـذا التغيير فى الاهتمامات المعاصرة ، أزاح البلقان والبحر المتوسط عن المسار التاريخى السائد ، لقد قدمت حروب العثمانيين ضد الغرب ، فى القرن السادس عشر ، سجلا حافلا بالنهب المنظم الواسع المدى ، فمنذ ظهورهم فى التاريخ أول مرة كعصابات من الرحالة المحاربين ، كان العثمانيون يسيرون من نصر الى نصر بفضل تكريس أنفسهم للفتوح والتعدى ، بشكل صارم •

وحتى بعد أن اتخذت الامبراطورية ، القسطنطينية ، حاضرة لها ـ ظلت تستمد أسباب الحياة من الغنائم والقوى العاملة والأراضي والبضائع والموارد ، التي كانت تستولى عليها من المناطق الحدودية ، فقد كان البحث الدائب عن أعداء جدد ورعايا جدد ، أسلوب حيـاة ومبـدأ اتى فيما اصبح اليوم مجتمعا كبيرا معقدا ، وصاغ تكوينه ، وذلك على حد تعبير جيبون Gibbon لقد كان هذا الأسلوب ، مبدأ ثابتا ، وليس سياسة تتغير بتغير الظروف ٠

لقد فرضت شهوة النهب كثيرا من التفاصـيل ، كمـا فرضت وحددت استراتيجية الصراع ٠ ففي الفترات الفاصلة بين المواجهات الكبرى ، وحـتى في أثناء فترات الهدنـة الرسمية ، كان القراصنة ، والذين يغيرون على الحدود من كلا الجانبين ، لايكفون عن العمل ، وكان الشتاء وحده هو الفصل الذى تتوقف فيـه نشـاطات اولئك الذين تعـودوا السرقة والنهب كأسـلوب حياة ٠ وكانت هـذه العمليـات تتراوح مابين السلب والنهب الذين يقوم بهما لص وقـاطـع طرق قليلا القيمة ، وبين اندفاع الجماعات ، اندفاعا يحدث توترا على جانبى الطرفين المتقاتلين ، في منـاطق التقـاء الأديان ، من البلقـان الى مجتمعات القراصنة في شـمال أفريقيا ، حيث كانت القرصنة هي محور اقتصاد دول كبيرة، فقد عانت جمهوريات الأدرياتيك البحرية ذات التحصينات الدفاعية الضخمة كالبندقية وراجوسا، من خسائر شديدة ، نتيجة هجمات القراصنة المسيحيين والمسلمين على السـواء ، خلال القرن السـادس عشر وجانب من القرن السابع عشر وفي ذروة العدوان العثماني خلال الخمسينات والستينات من القـرن السـادس عشر ، كانت سـواحل أسبانيا ذاتهـا تتعرض لهجمات منتظمة من قبل قراصنة الجزائر والمغـرب الاقصى ، الذين كانـوا يتعـاونون مع مسـلمى غـرناطة ويؤازرونهم ، نظرا لتعرضهم ـ أى مسلمى غرناطة ـ لضغط شديد ٠

ولقد كان تتابع الأحداث ، يتأثر دائما ، بل ويفرض

أحيانا ، وضع قيود وخلق معوقات تمنع السلاطين العثمانيين من ناحية ، والهبسبرج ـ باعتبارهم حمله اللواء الاوروبي ـ من ناحية آخرى ، من تحقيق اقصى الضغوط التي ينشدونها، واستغلال اقصى ما يمكنهم من موارد ، ضد أعدائهم المختلفين معهم عرقا ودينا • فالامبراطور شارل الخامس ، لم يكن قد تخلص من مشاكل الصراع مع التابع الفرنسي • ولا من الصراع السياسي والديني في المانيا ولا من مشكلة ربط المستعمرات الأمريكية باسبانيا ربطا وثيق العرى • كما ان خليفته فيليب الثاني قد واجه ثورة طال امدها في الاراضي المنخفضة ـ أغنى ممتلكات أسبانيا فيما وراء البحار ـ أجبرته على سحب أفضل فرقه العسكرية من البحر المتوسط ١٥٦٦ و ١٥٦٧ ، في الوقت الذي كان فيه فشل العثمانيين في الاستيلاء على مالطه بموت سليمان العثماني ، قد اتاح لاسبانيا القيام بمبادرات هجومية •

وقد كان الحكام العثمانيون يعملون في ظلال ظروف مشابهة ، فقد كانت هناك الحروب ضد فارس والنفوذ الفارسي في أرمينيا والقوقاز في اعوام ، ١٥٣٤ ، ١٥٣٥، ١٥٥٤ و ١٥٥٥ . وكانت هناك العمليات العسكرية ضد التدخل البرتغالي في البحر الأحمر وبحر العرب في عامي ١٥٣٧ و ١٥٣٨ ، وطوال اكثر من ثلاثين عاما ، وبدءا من سنة ١٥٥٠ كان صراع وراثة السلطنة فيمن يخلف سليمان، يشغل جانبا من جهد السلطات العثمانية •

لقد بدا انحسار موجة الحرب وتقهقرها وكانهما في تناسق مع التطورات الاقتصادية ، على الجانبين ، العثماني والأوروبي ، في القرن السادس عشر ، فاذا تصورنا اوروبا والاسلام على أنهما (أسرتين) أو (مجتمعين) متناظرين ، وجدنا أن فترات الرخاء النسبي • ينتج عنهما في كلا المجتمعين (الثقافتين) محصولا من المعارك المحلية ، أو الداخلية لتقسيم الغنائم والأسلاب الجاهزة ، كما أن فترة الركود الاقتصادي ، قد انبثق منها قوى عدوانية تعمل خارج دائرة (الأسرة) أو (المجتمع) متخذة شكل حرب

صليبية فى (الأسرة) المسيحية أو حرب (جهاد) فى (الأسرة) الاسلامية • فعلى سبيل المثال ، كانت الصعوبات الاقتصادية الخطيرة التى عاناها المجتمعان (المسيحى والاسلامى) خلال فترة الخمسينات من القرن السادس عشر قد أدت بالجانبين الى صراعات دينية طائفية ، وصراعات بين الأسرات الحاكمة التى صاغت تاريخ الحقب السابقة ، وأعقب انهاء هذه الصراعات ، استعار اوار حروب البحر المتوسط واستئناف المد العثمانى فى اوروبا على طول الدانوب •

وكانت شعبتا الهجوم العثمانى هى ، الشعبة البرية عبر المجر وشرق اوروبا ، والشعبة البحرية ، ضد السواحل المسيحية والجزر فى البحر المتوسط •

المجر وشرق اوروبا :

كانت خصائص دولة المجر الكبرى التى ظهرت خلال العصور الوسطى ، نتيجة موقعها على الحدود الغربية لمناطق الاستبس الاوراسية (السهوب) ، فى منطقة تخترقها الأنهار — وبالذات شبكة الدانوب — وتحميها سلاسل الجبال — وبالذات جبال كارباثيان Carpathian ، التى تتخذ فى هذه المنطقة شكل القوس — وهذا الوضع هو الذى سمح لاقتصاد السهوب (الاستبس) الرعوى ان يمتد ليشمل او ليضم هذه المنطقة ، حيث يمكن ممارسة الزراعة البدائية واستثمار الغابة ، والاشتغال بالتعدين على نحو مبسط • وقد نتج عن تطوير موارد الثروة المتعددة ، ظهور طبقة من صغار المزارعين ، وجماعات سكانية حضرية غير متطورة ، متناثرة عبر المكان ، لكن هؤلاء (صغار المزارعين والجماعات الحضرية) كانوا دوما تحت رحمة الغزاة من البدو الرحالة الذين يتميزون بقدرة فائقة على الحركة وبمهارات وتقاليد قتالية راسخة •

وسرعان ما تمكن الفرســان المجيــار Magyar الذين فتحوا سهول الدانوب الأوسط فى القرنين التاسع والعاشر للميــلاد ، من اســتغلال الســكان المحليين ، وانصرفوا فى استثمار الفرص المتيحه لهذا الاستغلال ، اكثر من انصرافهم لتنمية قطعانهم التى جلبوها معهم من آسيا ، واوقفوا غاياتهم المتلوتة ، ليحققوا الاستقرار ، وانشغلوا بالتالى بممارســة مهامهم كحكام ، وأشخاص ذوى مكانة ، محققين ارباحا من اعمال رعاياهم الذين كانوا اما عبيد أرض او حرفيين • وهكذا كانت أصول الارستقراطية المجرية •

فالمجتمع الاقطاعي وافكار الغرب في العصور الوسطى، قدما لهذه الطبقة الحاكمة من المحاربين الاحرار ، نمــوذجا ثقافيا ، أكثر جاذبية وأفضل مواءمة لاغراضهم ، من طغيان ومركزية العالم البيزنطى • وبينما عاشت المجر لمدة قرون كجزء من الغرب المسيحى الا انها ظلت تواجه مشاكل الدولة الحدودية (أو الدولة الدرلة) التى يعتمد بقــاؤها عــى قدرتها على مقاومة مزيد من الغارات والغزوات التى تعوم بهــا شعوب متبدية قادمة من الشرق ، لهذا كانت الملكيــة القوية هى وحدها القادرة على تعبئة الجيوش ونشرها فى جبهة عريضة لتكون قادرة على مواجهة هــده المهمة ، غير ان رؤساء الارستقراطيات المحلية ــ وكانوا أولى بأس شديد ــ رفضوا قبول هذا الموقف رغم منطقيته ، وكانوا دائمى البحث عن ضمان لاستقلالهم المحلى باصرارهم على الطابع التقليدى الانتخابى للملكية المجرية •

ومهما كانت القيود الشرعية على حرية الملك فى اتخاذ القرار ، فان الحاكم اذا ما انعدم ضميره وكان نشيطا فعالا، أصبح فى مقدورة أن يستغل سلطته ويستثمر الخوف العام الناتج عن توقع غزو خارجى ، فى انشاء جيش من المرتزقة يمكن ــ توظيفه لقمع النبلاء وليس لصد العدوان الخارجى فحسب وهذا هو بعينه ما حققه جون هنجادى John Hungadi (١٤٤٤ ــ ١٤٥٨) وابنه الملك ماتياس كورفينس Mattias Corvinus (١٤٥٨ ــ ١٤٩٠) • وبعد وفاة

ماتياس ، فان الارستقراطية ممثلة في النبلاء الأقل شأنا ــ والذين كانــوا يخشــون بأس الملكيــة اكثر من كبــار الارستقراطيين الذين كانــوا يتصرفون ويحــكمون كأمراء مستقلين في عقــاراتهم البعيدة ــ قد اســتخدمت نفــوذها الانتخابي لتنتزع من خلفاء ماتياس ــ لاديسلاس (١٤٩٨ ــ ١٥١٦) ولــويس (١٥١٦ ــ ١٥٢٦) ــ اقرارا باحترام امتيازاتهم الارســتقراطية ، كمــا عملوا على تسريح قوات المرتزقة العسكرية ٠ وقد كان تدهور وضع التاج سببا في مزيد من التدهور العام ، اذ تراجعت كثير من الدول التابعة التي كانت متحلقة حول مملكة المجر ومرتبطة بها في ظل الملكية القوية مثل ، مورافيا Moravia وصربيا ومولدافيا Moldavia وفاليشيا Wallachia ٠ واتسابت الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية نتيجة هذه الاختلافات السياسية ، فقد كانت الزراعة المجرية فقيرة وبدائيــة ٠ وخــلال حكم ماتياس كان المجريون قد رهدو رهقــا بسبب مطالب التاج الذى استولى على المداخيل (العوائد) لصيانة الجيش النظامي ومواجهة تكاليفه ، وبسبب الارستقراطية التي كان ظهورها الحديث نسبيا وانتقالها من دور المراة البداة في مرحلة حديثــة نســبيا ، مما جعلهم يســومون العاملين لديهم سوء العذاب بصورة فاقت كل تصور ، رغم اتسام العصر ــ عامة ــ بالغلظة ٠ فالتخفيض في معــدلات الجبــاية الذى أسهمت به الملكية في ســنه ١٤٩٠ قد ابطل مفعوله ، بالمقابل ، اذ تم تكثيف الجباية من قبــل النبــلاء الذين كانوا قد أعتقوا لتوهم من القيود التي كان ماتيــاس قد فرضها عليهم ٠ فثورة الفلاحين العارمة التي نشبت في سنة ١٥١٤ قد تم قمعها بقسوة ليس من قبل الكتائب الملكية وانما من قبل جماعات أصــحاب الأراضي بزعامة زابوليــا Zapolye الترنسفالي ذى الطموح الشديد والطامع في العرش ٠ وفي سنة ١٥١٤ أقر البرلمان تشريعا زاد من بؤس الفلاحين ، وفي نفس العام قام حزب زابوليا بتمويل نشر : Istvan verboczy's tripatitum opus iuis Consue tudinarli inclyri regi Hungaria

وهو التشريع الذى قنن حقوق الارستقراطية ومكاسبها — متحدية بذلك كلا من التاج والفلاحين (عبيد الأرض) ۰ لقد تعطلت فعاليات الملكية بسبب طبيعتها الانتخابية والحروب التى لا تنقطع بين جماعات الارستقراطية والاضطرابات الهائلة بين الفلاحين البؤساء ۰ تلك كانت خصائص مملكة المجر عندما عاود العثمانيون هجومهم على الدانوب ۰ لقد اصبحت المجر المقسمة الان في طريق زحف الامبراطورية العثمانية التى استخدمت مواهبها العدوانية وتراثها العربي البدوى وموارد اوروبا ابحر الاسود المحمية وموارد الشرق الادنى ۰ وبحلول عام ١٥٢٠ ، حيث جلس سليمان القانونى على العرش العثماني خلفا لسليم الاول فاتح سوريا ومصر ، كان متوقعا من السلطان سليمان ان يحتفل بجلوسه على العرش بحملة كبرى تضاهى مآثر والده ۰ لقد تحركت جيوش سليمان ضد المجر في صيف سنة ١٥٢١ قاصدة بلجراد كهدف اول ، تلك المدينة التي كانت تشكل قلعة حصينة عند ملتقى الدانوب الاوسط والمرتبطة بنظام مائى متشابك ۰ وتقدم سليمان (القانونى) بتشكيلات هجومية مضللة ، لصرف اعدائه عن هدفه الاساسى ، فاتجه غربا على طول نهر ساف Sava وشرقا عبر ترنسلفانيا Transylvania بينما كانت حركة الطريق تمرقل الموصدت من ناحية الشمال ، وبعد قدف ثقيل بالمدفعية وهجمات متكررة سقطت المدينة في اغسطس ، وهكذا اصبح الحد من بلجراد الى بودا Buda في الدانوب الاوسط مفتوحا امام التقدم العثماني ۰ لكن مشاغل سليمان فى البحر المتوسط ومصر ، حالت دون سليمان والاستفادة القصوى من نصره فى ١٥٢٦ ۰ وكانت الانقسامات الداخلية في المجتمع المجرى قد بدأت تطفح الآن في صورة بشعة جمعت بين الطيش والتردد ، فلقد كان موسم المعارك متأخرا ، ولم تكن القوات المواجهة لتدخل المعارك حتى اغسطس ، كما أن استراتيجية الدفاع المتواصل قد تؤدى الى ابطاء تقدم هجوم سليمان المتعثر وتجبره على التراجع قبل حلول الشتاء ، ومع هذا فان المجريين قد غامروا بكل

شيء في معركة واحدة مؤملين ان يقوم الخيانة بمبادرات موبرة على السلطان الخبير ، ونحن النصر التابع عن معركة موهاكس Mohacs في منطقة مستنقعات الى الشرق مباشرة من الدانوب ، كان مهولا ، فقد كان انتصار سليمان في موهاكس هو اعظم انتصاراته • فقد تحطم سلاح الفرسان المجرى امام كتائب الانكشارية التي تشكل قلب الجيش العثماني ، بعد ان زعزعتها اجنحة الجيش العثماني المتحركة واتخمتها نيران المدفعية • وقد قتل في هذه المعركةعدد كبير من الزعماء الاقطاعيين المجريين ، وبعد الهزيمة المجرية القسية لم يواجه العثمانيون مقاومة منظمة لاعتراضهم ومنعهم من التقدم الى بودا Buda وبعد نهب بودا ، عاد سليمان الى بلجراد • وتحطمت المجر وراح العثمانيون يتطلعون للولايات الوسطى في المملكة ، كمنطقة جديرة بالنهب رالت لارادة الفاتح •

وفي نوفمبر سنة ١٥٢٦ ، انتخب الباقون من الأرستقراطية المجرية ، الرجل القوى ، زابوليا لشغل العرش المجرى الشاغر ، ولكن زعما باحقية تاج المجر سرعان ما ظهر في نفس الوقت ، من قبل ارشيدوق النمسا فرديناند ، أخي الامبراطور شارل الخامس • وكان ترشيح فرديناند لعرش المجر – المتوقع على الاقل – قد كرس موارد أعظم الأسرات الأوربية الحاكمة – الهبسبرج – لاستعادة المجر • وانسحب زابوليا من بودا أمام قوات الهبسبرج ، وأثناء انسحابه ران الى سليمان القانوني ، طالبا مساعدته ، وقد سانده سليمان بالفعل ، كحاكم – اى زابوليا – ضعيف ، وليكون العوبة ورئيسا لدولة تابعة أو دولة تدور في فلكه، تشكل بالنسبة للامبراطورية العثمانية مركزا دفاعيا ومورداً خصبا للضرائب • وفي سنة ١٥٢٩ تقدم السلطان صعدا في الدانوب للمرة الثالثة لتنصيب زابوليا ، ملكا في بودا، ولحصار فيينا عاصمة فرديناند • وقد نجح السلطان في تحقيق الهدف الأول ، أما الهدف الثاني فقد انتهى بالفشل، وذلك أن القدرات العسكرية العثمانية في كفايتها لم يكن

في وسعها أن تتجر في موسم واحد الرحلة الطويلة الى فينا وتتجشم مشقة حصارها • وعلى كل حال فان سليمان لم يعد صفر اليدين فمعظم مملكة المجر القديمة قد أصبحت الان معترفة بحكم صنيعته زابوليا •

ولقد كان رفض فرديناند التخلي عن دعواه في عرش المجر ، دافعا للعثمانيين لمزيد من الغارات في سنة ١٥٣٢ ، لكن في هذه السنة ، كشفت المقاومة النمساوية اليائسة جهودها ، للتصدي للسلطان والحيلولة بينه وبين تحقيق مزايا توسعية ذات قيمة ، الا أن ذلك كان في مقابل ثمن باهظ ، اذ قامت الجيوش العثمانية الهمتاجة بتخريب سلافونيا Slavnis وستيريا Styria • ووفقا لبنود الهدنة التي عقدت في العام التالي (١٥٣٣) احتفظ فرديناند بالمناطق المجرية التي كانت في حوزته والتي لم يكن قد فقدها ولكنه اعترف بزابوليا حاكما على الجزء الاكبر من مملكة المجر • وفي الثلاثينات من القرن السادس عشر ، كان الانشغال بالبحر المتوسط يفوق الانشغال بعمليات البلقان ، الا أن جيشا كان قد أعده النمساويون لمعاقبة القائمين بالغارات المتصلة على كارنثيا Carnithia ، قد واجه هزيمة ساحقة على يد القادة العثمانيين المحليين ، الذين مزقوه شر ممزق دون الاستعانة باسطنبول • وفي العام التالي أحكم سليمان قبضته الادارية على الولايات التابعة له مثل بيساربيا Bessarbia ومولدافيا Moldavia وهو بهذا يكون قد أمن حركة سهلة لحلقاته تتر القرم

وعند وفاة زابوليا في سنة ١٥٤٠ ، جدد فرديناند دعواه بأحقيته في كل مملكة المجر ، لهذا قرر سليمان دمج كل المجر في ممتلكاته وأصبحت بودا هي العاصمة التي حددها سليمان لتكون مقرا للبكربك الجديد في سنة ١٥٤١ • وجرت معارك في عامي ١٥٤٣ ــ ١٥٤٤ ، حصل سليمان في أعقابها على حصون وقلاع نهرية ، خاصة فيزيجراد Visegrad وجرن Gran اللتين كانتا تسيطران على الفولد الكبير والفولد الصغير الممرات بين Great & little Alföld

وقد سعى فرديناند للحصول على الهدنة ، ونجح فى ذلك سنة ١٥٤٥ ، وأعقب الهدنة توقيع معاهدة ١٥٤٧ ٠ وتخلى فرديناند عن دعاوية كلها فى المجر ، خلا جانبا صغيرا من مملكة المجر السابقة كان يحكمه بالفعل ، وقد وافق فرديناند على دفع الجزية للسلطان مقابل حكمه لهذا الجزء ٠ وكان هذا اعترافا بأن قبضة العثمانيين على فتوحاتهم المجرية لا يمكن زحزحتها ، على الأقل حتى حدوث اختلال كبير فى موازين القوى العسكرية ٠ وكان الوجود العثمانى فى المجر ، بمثابة حماية عسكرية أكثر من كونه استعمارا٠ فقد كان العثمانيون يجمعون الضرائب انتزاعا عن طريق موظفيهم الرسميين المقيمين فى قلاع المدن ٠ لقد قننت ونظمت الحكومة العثمانية عمليات النهب ٠ وفى المناطق البعيدة عن نطاق المستوطنات العسكرية ، ظل الاقطاعيون المجريون الوطنيون يمارسون سيطرة على عقاراتهم ، وظلوا يتمتعون فى ظل الحكم العثمانى ، بحرية العمل والتصرف على المستوى المحلى ، مما جعلهم كطبقة ـ على غير المتوقع ـ يحتلون مركز الصدارة فى أى معركة دفاعية ضد أى عدوان خارجى ٠ فقد كانت ولاءاتهم الأساسية قد اتضحت عندما ايدوا زابوليا الذى كان يحكم كتابع لسليمان اكثر من تاييدهم لفرديناند ، عندما طالب بعرش المجر ٠ كما أن التسامح الدينى الذى مارسه الفاتحون العثمانيون ، اذا ما قورن بما تمارسه القوى المسيحية ، قد قوى من موقف العثمانيين على المدى القريب ، على الأقل ، ذلك أن الانتشار السريع للبروتستنتية فى أجزاء المجر التى يحتلها العثمانيون ، خلال السنوات المتبقية من القرن السادس عشر ، جعل من غير المحتمل أن يهب أولئك النبلاء الذين تحولوا للبروتستنتية لمعاونة الهبسبرج الكاثوليك ٠ وفقد الهبسبرج مع الزمن أى أمل فى استعادة قلب مملكة المجر المفقود ، لهذا اقتصرت سياسة الهبسبرج على سلسلة المحاولات لاقتطاع ترنسلفانيا من النظام العثمانى ، باعتبارها منطقة حدودية ، فمارست المكائد وأثارت الفتن منذ سنة ١٥٥١ حتى سنة ١٥٦٢ ،

الا أن فرديناند عاد فاعترف بمعاهدة سنة ١٥٤٧ . وبعد موت فرديناند في سنة ١٥٦٤ ، عاود خليفته مكسمليان الثاني ، أعماله الهجومية على ترنسلفانيا . غير أنه مما مكن للعثمانيين في هذه المنطقة أن سليمان قد زحف على المجر في حملة أخيرة سنة ١٥٦٦ . ورغم أن هذه الحملة قد توقفت بموت سليمان الا أنها أكدت استمرار الوضع القائم Status quo رغم صعوبته . وفي أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، كان العنف وسيلة لتعبير الطرفين ، العثماني والنمساوي ، من خلال سلسلة من الحروب الطويلة غير الحاسمة النتائج في الفترة من ١٥٩٣ الى ١٦٠٦ . ولكن ـ لاعتبارات عملية ـ دخل الوضع في البلقان مرحلة ركود منذ اربعينات القرن السادس عشر ، وقد أكد على ذلك الركود ، أحداث الخمسينات والستينات من ذلك القرن نفسه . وكانت قضية الهبسبرج قد ضعفت بسبب الخلافات الأسرية وتفجر الصراعات الدينية والسياسية خلال حرب الثلاثين عاما ، كما كانت الامبراطورية العثمانية ، في نفس الوقت ، قد عكفت على أمورها الداخلية واعداد حملات عسكرية لمواجهة مشاكل في الشرق ، كحملة استراخان Astrakhan (١٥٦٩ ـ ١٥٧٠) والعداء مع فارس (١٥٧٧ ـ ١٥٩٠). أما الزحف العثماني الكبير على البلقان في القرن السادس عشر ، فكان قد بدأ يتردى في سلسلة حروب حدود غير حاسمة ، كانت تتخذ شكلا محدودا ، كما أنها كانت في تاريخ المنطقة فترة حالكة السواد .

البحر المتوسط :

لعبت العمليات خلال القرن السادس عشر ، للمرة الأولى ، دورا هاما من خلال الهجوم العثماني والدفاع الأوروبي ، فقد كان سقوط القسطنطينية بما فيها من دور صناعة سفن ، وما يهيئه موقعها من الوصول لموارد الأخشاب في اليونان والبحر الاسود ، عاملا عمل على تطوير العثمانيين

كقوة بحرية • كما كان فتح سوريا ومصر ، قد مد من سواحل الامبراطورية العثمانية ، واضاف اليها موانىء كبرى ، وادخل في تبعيتها أعدادا كبيرة من السكان ، لهم تراثهم وخبراتهم في مجال البحر • وبمجرد استقرار العثمانيين في مصر ، مدوا أيديهم للدخول في علاقات وثيقة الى أبناء دينهم القاطنين في مجموعة دول القرصنة على طول الساحل الافريقي الشمالي الممتد من طرابلس الى مراكش ، وقد قدم سكان الشمال الأفريقي هؤلاء قسين بحريين وقادة قراصنة لامعين •

وعلى الجانب المسيحي ، شهد البحر المتوسط ، توسعا شبيها ، خلال معارك السيطرة على ايطاليا ، من قبل فرنسا واسبانيا ، في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر • فقد تحول جند البر المحترفون الى محاربين بحريين أثناء ذلك الصراع (بين فرنسا واسبانيا) ليقدموا الحماية والتغطية للجيوش البرية المتحركة على طول السواحل ، الى جانب اضطلاعهم بنقل سبائك الذهب والامدادات للجيوش وقيامهم بأعمال التجسس وكل هذه الاعمال كانت تمثل عصب حركة الاستعماريين الفرنسي والاسباني ، ومصدر قوتهما • ولعل سيرة أندريا دوريا الجنوي تقدم لنا افضل نموذج لهذا الاتجاه ، ففي البداية كان أندريا دوريا جنديا مرتزقا بريا ، ولم يوجه اهتمامه شطر البحر حتى سنة ١٥١٢ عندما بلغ السادسة والأربعين حيث عمل أمير بحر (أميرال) لحساب فرنسا ، ثم لحساب نشاطاته في الصراعات البحرية بين المسلمين والمسيحيين في المتوسط ، وكان له دور قيادى فيها •

وقد بدأ دوريا نشاطه البحرى بقوة خاصة مكونة من سفينتين ، ثم زاد عددها بعد ذلك لتصبح ١٢ سفينة مكونا بذلك أسطولا ، ثم انفصل بأسطوله عن فرنسا ليعمل لحساب أسبانيا ، وكان هذا في ١٥٢٨ • وفي سنة ١٥٢٧ قاد أسطولا من ٤٥ سفينة أسبانيه و ٨٠ سفينة بندقية و ٢٦

سفينة يابانية ، ضد العثمانيين واستمر حجم العمليات البحرية يتصاعد خلال منتصف القرن السادس عشر • وفي ليبانتو كان الأسطول العثماني يتكون من ٢٣٠ قطعة ، بينما كان الأسطول المسيحي مكونا من ٢٠٨ • وعند القتال غرقت ٨٠ قطعة بحرية عثمانية وأسرت ١٣٠ ، ورغم هذا فقد علق السلطان قائلا « لم يرد الكفرة على نتف شعيرات من لحيتي ، وستنمو مرة أخرى » وسرعان ما عوض العثمانيون خسائرهم وقد كان انشاء السفن وتزويدها بالرجال واعدادها وبامداد كبيرة ، يلقى عبئا ماليا وتكمولوجيا ثقيلا على القوى المتنافسة • فبعد سنة ١٥٧٠ قلت كثافة حروب البحر المتوسط البحرية ، وذلك لأن القوى المتصارعة قد أدركت ان النتائج التي حصلت عليها لم تكن مساوية للمصروفات التي انفقتها والموارد التي أهدرتها •

وكان استيلاء العثمانيين على رودس Rhodes في سنة ١٥٢٢ ، في العام التالي لسقوط بلجراد ، يعني أن سليمان (القانوني) عازم على مواصلة هجماته على صعيدين ، جهة البلقان ، وجهة البحر المتوسط ، معا •

وقد أبقى العثمانيون على بعض المراكز التجارية الأوربية في شرق المتوسط ، كمراكز البندقية في قبرص ، ومراكز الجنوبيين في شيوز Chios ، ولكن انسحاب فرسان القديس يوحنا من رودس الى قلعة جديدة في مالطا • كان ايذانا بانتقال زمام المبادرة من يد العالم المسيحي ، الى أيدي المسلمين ، في هذه الحرب الدينية • ولبرهة وجيزة ، بدأ كما لو كان قصب السبق في البحر المتوسط سيكون من نصيب أوروبيين ففي سنة ١٥٣٢ قاد اندريا دوريا حملة أسبانية انقضت على المركز العسكرى العثماني كورون Coron في المورة ، الا أنه بعد ذلك بعامين تبخرت هذه الآمال المسيحية اذ أن خير الدين بربروسا حاكم الجزائر ، وأمير البحر والقرصان الأعظم ، قد تحرك بأتباعه الى اسطنبول ووضع نفسه تحت امرة السلطان ، وحتى وفاة

بربروسا فى سنة ١٥٤٦ ، كان يقود الحزب الداعى الى الحرب البحرية فى بلاط السلطان ، مرجحا بذلك اتجاها جديدا للسياسة العثمانية ، عماده التوجه البحرى ، وقد بدأ بربروسا فى دوره الجديد ، كأمير بحر عثمانى ، فى الاستيلاء على تونس من حاكمها المحلى الذى كان صنيعة للأسبان ، وقد قاد شارل الخامس بنفسه عملية بحرية لاستعادة السيطرة على تونس فى سنة ١٥٣٥ ، ورغم أنها كانت حملة حادة ، الا أن بربروسا رد عليها بغارات وحشية على سواحل اسبانيا وجزر البليار قبل نهاية العام ، وضرب العثمانيون مرة اخرى فى سنة ١٥٣٧ ، مهاجمين المدن الساحلية فى جنوب ايطاليا ، كما قاموا بمحاصرة كورفو Corfu — وهى مستعمرة تابعة للبندقية — منطلقين من قواعد فى الادرياتيكى وقد ادى التحالف السريع بين اسبانيا والبندقية والبابوية ، خلال العام التالى ، الى وجود أسطول مسيحى كبير بقيادة أندريا دوريا ، وقد استمر هذا الأسطول يعمل فى نفس المياه التى يعمل فيها أسطول المسلمين ، مما أدى الى احتكاك أسطول دوريا بسفن بربروسا خارج بريفيسا Prevesa عند فم خليج ارتا Arta متجاهلا طلبات أتباعه — خاصة من البنادقة — الذين كان اهتمامهم الأول منصبا على تطهير الادرياتيكى من القوى المعادية ، ولكن دوريا رفض ان يورط نفسه فى معركة حاسمة ، اذ عمد الى المناورات المحكمة والمناوشات . وقد تعرض دوريا برفضه دخول معركة حاسمة ضد الأسطول الاسلامى ، لنقد شديد على نطاق واسع ، اذ اتهم باضاعة فرصة نادرة للهجوم على أسطول عثمانى صغير نسبيا ، كما اتهم بانه أسهم فى تدعيم أسطورة أن المسلمين قوم لا يقهرون ، تلك الاسطورة التى ظلت مسيطرة على أذهان الأوروبيين حتى معركة ليبانتو ، كما أتهم بانه أجبر جمهورية البندقية بتصرفه هذا على تحمل سلسلة من الحروب الطويلة التى لم تكن قادرة عليها ، لالتماس السلام ، مما أفقدها مستعمرات ذات قيمة فى المورة وأرخبيل بحر ايجة . أما وجهة نظر

دوريا ، فهي أن غرضه الاستراتيجي كان دفاعيا لحماية ايطاليا من الهجوم أو الغزو ، كما انه لم يكن متأكدا من قوى العدو الاحتياطية ، لهذا كان دوريا معيبا في الحفاظ على أسطوله ، ولا يستبعد المرء انه كجندي لم يكن ممانعا في التضحية بمصالح البندقية من أجل مصلحة دول غربي المتوسط .

ولقد ظلت الجزائر هي القاعدة الرئيسية التي تنطلق منها الاغارات الاسلاميه الاساسيه ضد اسبانيا وايطاليا ، لذا فقد قاد شارل الخامس في سنة ١٥٤١ حملة لمحاصرة الجزائر واقتلاع جذور القرصنة منتهزا فرصة انشغال سليمان القانوني باعداد حملة لغزو المجر ، غير ان العواصف شتتت أسطول شارل الخامس والحقت بالمشروع خرابا . وخلال الاعوام التي تلت ذلك ، كاد العثمانيون ان يعطلوا تماما الاستراتيجية الاسبانية القائمة على احتواء المد العثماني البحري ففي سنه ١٥٤٣ بعد ابرام التحالف التركي الفرنسي دمر بربروسا ريجيو Reggio ونيس Nice وهاجم سواحل كاتالونيا Catalonia وقضى الشتاء في طولون Toulon وفي ربيع سنه ١٥٤٤ مرر الاغارة على ميناءى تسكاني Tuscany ونابوليتانو Napoletano ولم تؤد وفاة بربروسا في سنة ١٥٤٦ الى فترة راحة لاوروبا المطلة على البحر المتوسط فقد استمر درغوث (صراغوط) Draught الذي كان تابعا لبربروسا ، ومشمولا بحمايته ، في مهاجمة العالم المسيحي منطلقا من مواقعه في شمال افريقيا . فقد استولى درغوث على طرابلس في سنة ١٥٥١ ، واستمر حتى وفاته في مالطة سنة ١٥٦٥ في بث الرعب في ايطاليا والبا وكورسيكا وكاتالونيا وجزر البليار . وقد جرد الأسبان حملة لاخراجه من طرابلس الا ان هذه الحملة قد انتهت بانتحار الجيش والأسطول الأسبانيين في جزيرة جربه في سنة ١٥٦٠ ، وعاد درغوث للعمل سريعا فحاصر نابلي حلال صيف سنة ١٥٦١ . على أن هـذا النجاح التركي العائق ، يجب ألا يحجب عن أعيننا الحقيقة القائلة بأن خطوط

المواجهة الطويلة في المتوسط كانت قد اعتراها التجمد الاستراتيجي Strategic stability ، وهي في هذا كانت مشابهة لخطوط المواجهة على أرض البلقان في كثير من الجوانب • لقد كان تجمد الموقف قد غدا ظاهرا للعيان، فمع كل الاندفاع، والنشاط اللذين كانا يوصف بهما غارات المسلمين ، فانهم لم ينجحوا في ايقاع الاضطراب واحداث الخلل في بنية الاستعمار الاسباني في البحر المتوسط ، ولم يستولوا على الجزر ذات الاهمية الاستراتيجية وهي صقلية ومالطة وكورسيكا ، كما لم يكن في وسعهم اطلاق غزو ايطاليا •

وقد تحسنت الجهود الحربية الأسبانية في البحر المتوسط ، عندما انتقل العرش الى فيليب الثاني في سنة ١٥٥٦ اذ أن فيليب لم يرث تبعات أبيه الثقال في المانيا ، كما كان قد تحرر وانطلقت يداه بعد معاهدة كاتو كمبرسيس في سنة ١٥٥٩ ، التي خلصته من الصراع مع فرنسا • وفي سنة ١٥٦٠ بدأ فيليب برنامجا طموحا لانشاء أساطيل بحرية في أحواض السفن الايطالية والكاتالونية ، وكان بهذا أكثر منهجية ونظاما من أبيه ، وان كان أضيق منه أفقا • وقد تلقى فيليب الثاني عونا ماليا من البابوية لتحقيق هذا الغرض (انشاء أساطيل) وفي سنة ١٥٦٢ اجتمع برلمان قشتالة في دورة غير عادية لتقديم مزيد من الدعم المالي لنفس المشروع •

وكانت أولى ثمار هذا التنظيم الجديد ، هي توجيه ضربة للجزائر في وهران في سنة ١٥٦٣ ، ولكن الاختبار الحقيقي لهذه التنظيمات قد تجلى ناجحا أثناء حصار العثمانيين لمالطة في سنة ١٥٦٥ ، فقد اجتاحت القوات العثمانية الغازية الجزيرة ، لكن المدافعين نظموا المقاومة من خلال تمسكهم بقلاع قليلة حتى وصلت لهم حملة انقاذ من نابلي وصقلية وتمكنت من طرد الغزاة •

لقد عني المؤرخون الغربيون على فهم طبيعة المراحل

الأخيرة للهجوم العثماني البحرى على أوروبا في القرن السادس عشر باصرارهم التقليدى على أن اهم مراحل دلك الهجوم هو النصر المسيحى في ليبانتو فى سنة ١٥٧١ ، والذى آذن بتحول فاصل في ميزان القوى البحرى في البحر المتوسط ، ولكن ذلك النصر لم يحقق شيئا من هذا القبيل . فقد اندلعت الحرب باستيلاء العثمانيين على قبرص من البنادقة في سنة ١٥١٠ ، اذ فى العام التالى قاد دون جوان صاحب النمسا أسطولا مسيحيا موحدا أوقع الهزيمة بقوة عثمانية كانت أكبر من تلك التى لاقت الهزيمة في ليبانتو، وكانت هذه الهزيمة العثمانية بالقرب من فم خليج كورنث Corinth الا أن العثمانيين احتفظوا بقبرص وأعادوا بناء أسطولهم بسرعة ، واجبروا البندقيه على الانسحاب من الحلف المقدس في سنة ١٥٧٣، وفتحوا تونس سنة١٥٧٤ . فالمعنى الحقيقى لمعركة ليبانتو انها انهت مرحلة العمليات البحرية الكبرى والطموحة في البحر المتوسط ، فقد بات واضحا أن تكاليف مثل تلك العمليات لا تطاق ، فالامبراطوريتان الأسبانية والعثمانية ، كانتا قد بدأتا تنشغلان بأحداث بعيدة عن البحر المتوسط . لذا بدءا مفاوضات السلام فى سنه ١٥٧٧ وعقدا هدنة رسمية في سنة ١٥٨١ وجددا هذه الهدنة فى سنة ١٥٨٤ ، واعادوا تجديدها كرة أخرى في سنة ١٥٨٧ . ومع هذا لم تتحرر أسبانيا تماما من الضغط الاسلامى ، فهدير مشكلة المسلمين الاسبان فى الداخل ، وأعمال السلب والنهب التى كان يقوم بها قراصنة شمال افريقيا في القرن السابع عشر ، كل أولئك كان يشكل عبئا على أسبانيا . وعلى أية حال ، فبعد سنة ١٥٧٠ بدأ مسرح البحر المتوسط يتوارى فى خلفية التاريخ ، كما حدث لمسرح البلقان .

الهجوم العثماني : موازنة النجاح الفشل :

لقد كان للحروب البحرية والبرية التى طال أمدها ــ والتى سجلناها فى الصفحات السابقة ــ نسق عام ، كان

واضحا وممثلا فى النجاح الميدانى الزاهر الذى أحرزته الجيوش العثمانية ، ثم تردت هذه الحروب فى موقف لم يستطع فيه أى جانب من الجانبين المتصارعين ، أن يحقق مزايا ومكاسب حاسمة ، وظل الوضع كذلك الى أن أعاد العثمانيون هجومهم على أوروبا فى منتصف القرن السابع عشر ، اذ انكمشت أعمال القرصنة والسلب والغارات على مواجهة أعمال الأساطيل والجيوش الكبيرة ٠

ماذا يعنى اتجاه الأحداث بهذا الشكل ؟

لقد كان نجاح العثمانيين فى بداية الأمر ، ناتجا عن مزامنة الكفاءة العثمانية ، للفرقة الاوربية ٠ ففى القرن السادس عشر كان العثمانيون قد أضافوا الى خصائصهم القتالية كشعب بدوى ، مهارة ودقة فى التنظيم العسكرى ، لم يكن لدى أوروبا ما يضاهيها حتى القرن السابع عشر ٠ ويمكننا أن نستشهد بمعركة سليمان القانونى فى المجر فى سنة ١٥٤٣ ، باستخدامه قوافل الجمال وسفن الأنهار ، ومزجه الماهر بين المدفعية والمشاة النظاميين وغير النظاميين ووحدات الخيالة واسناد القيادة التكتيكية الى عناصر محلية تعرف ظروف الأرض ٠ وقد تمت هذه العملية على بعد مهول من قواعد العثمانيين فى أدرنة واسطنبول ٠ وفى هذا النظام العسكرى ، كان المشاة يشغلون مركز القلب وكتائب النخبة العسكرية ممثلة فى الانكشارية ، وكانت الانكشارية فى أساسها مكونة من أطفال البلقان الذين حصل عليهم العثمانيون كضريبة أطفال (دفشرمة) ٠ ويرجع انضباط الانكشارية الى وضع أفرادها كعبيد ، كما ان اخلاصهم وتفانيهم كان يرجع الى ان مهنتهم العسكرية كانت تدر عليهم كثيرا نتيجة الغنائم والاسلاب بالاضافة الى أن منعهم من الزواج ، واباحة ممارسة التجارة لهم ، قد قوى من دوافعهم القتالية - وقد ظل هذا حتى أواخر القرن السادس عشر ٠

لقد كان هذا التنظيم العسكرى المرعب، يوجه بكفاءة ،

أكثر من أى تنظيم عسكرى معاصر له في أوروبا • فنظام العبودية الذى كان دعامة الأجهزة العسكرية والادارية ، كان قد فتح المجال أمام الكفاءات وسمح للقادة الناجحين بالترقي السريع والوصول إلى القيادة العليا • كما كان عدم وجود فاصل بين السلطتين ، العسكرية والادارية ، وتمركز السلطة العليا في يدى السلطة ، كل أولئك قد قلل من فرص الخلافات وتبادل الاتهامات في التنظيمات العسكرية والادارية العثمانية ، بينما كانت هذه الخلافات وتبادل الاتهامات ، قد أثرت تاثيرا سيئا في الاجراءات والممارسات العسكرية الأوروبية • فالحكام العثمانيون في القرن السادس عشر ، للمسا كابدوا جهودا مثل تلك التى جابهها فيليب الثاني في محاولته للحفاظ على تماسك الحلف القائم بين أسبانيا والبندقية والبابوية في الفترة من ١٥٧٠ الى ١٥٧٣ ، ذلك الحلف الذى كان زاخرا بالصراعات الداخلية وانعدام الثقة •

وكانت المؤسسة العسكرية العثمانية تستمدها موارد هائلة ، وكان التفوق المستمر في الموارد البشرية هو العامل الأعظم في النجاح العثماني • لقد كانت السلطة المطلقة التى يتمتع بها السلطان ، بالاضافة لضعف الروابط الأسرية في المجتمع العثماني ، والفرص التى كانت متاحة خلال القرن السادس عشر لكسب الغنائم والاسلاب من الجيران المسيحيين الضعفاء في البلقان والبحر المتوسط ، كل أولئك كان ضمانا لتعبئة جيوش عثمانية ، كان جلدها وحماسها يضمنان تفوقها النوعي بالاضافة لتفوقها العددى • لكل هذه العوامل مجتمعات كان تفوق العثمانيين على أعدائهم الأوربيين • وزاد من فعاليات هذه المزايا وجلاها ، ما كان في العالم المسيحى من انقسام وعدم كفاءة •

فكتائب فرسان أوروبا الشرقية — والتى كانت ثقيلة الحركة ويعوزها النظام والتى سادت أوروبا الشرقية في القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر — كانت تواجه

صعوبات دائمة اذا ما واجهت القوات العثمانية الخفيفة والمعبأة والمحمولة ، فكما لاحظ الرحالة الانجليزى موريسون

« .. فمزايا الخيول العثمانية أنها سريعة فى المطاردة وفى الكر والفر ، وهى بهذا تتفوق على الخيول الألمانية التى كانت تعجز عن الفرار تجاه حين وقوع الخطر ، على الرغم من صلابتها المعهودة فى التصدى للهجمات » .

وللعثمانيين مزايا أخرى فى الحرب من السهل ملاحظتها، الأمر الذى جعل الألمان عاجزين عن مواجهة قوات العثمانيين القخمة » ، لقد كانت المفاهيم العامة التى تحكم العمليات العسكرية ضد العثمانيين مشوبة بصورة خطيرة بذكريات وتراث عصور الفروسية والحروب الصليبية ، وقد ظل الحكام الأوربيون يقصدون الخطط العدوانية على نطاق واسع ، مثل ما أعلنه ليو العاشر فى سنة ١٥١٨ من تنظيم حملة عالمية تضم كل قوى المسيحية ضد سليم ، عظيم العثمانيين . وفى هذا دلالة على أن الحكام الأوربيين ، رفضوا التعلم من تجربة الحروب الصليبية المدمرة فى نيقية Nicopolis فى سنة ١٣٩٦ . وقد مال رجل دوله يائس الرأس على نحو ما ــ وهو شارل الخامس ــ لنفس الحماس ، الا أنه نتيجة تجربة طويلة ومريرة لحروب غير ناجحة ضد العثمانيين ، نتج عنها فى القرن السادس عشر، ظهور استراتيجية مسيحية أكثر واقعية وميلا لاتخاذ مواقف دفاعية . وتمثلت هذه الاستراتيجية فى نظام التحصين الذى أوجده فرديناند الأول فى بعض مناطق المجر التى كانت لا تزال تابعة للهبسبرج . وقد أدى طول فترة الخلافات السياسية الى افشال معظم المحاولات الاوربية لتنظيم عمل موحد ضد الجيش العثمانى . فبعد سقوط القسطنطينية وجدنا انياس سيلفيوس Aeneas Sylvius ، والذى أصبح بابا بعد ذلك باسم بيوس الثانى Pius يأسى على الخلاف الواقع بين العالم المسيحى بعضه والبعض الآخر ، فيكتب واصفا هذا العالم المسيحى بقوله :

« انه جسد بلا رأس ، جمهورية بلا قانون ولا قضاة ·· فلكل دولة (ولاية) أمير منفصل ·· لكل أمير مصالح منفصلة ·· من يجعل الانجليز يحبون الفرنسيين ؟ من سيوحد الجنوبيين مع أهل أراجون ؟ من يصلح بين الألمان وكل المجريين والبوهيميين ؟ فاذا ما قدت جيشا صغيرا ضد الترك (العثمانيين) فستهزم بسهولة ، وأما اذا قدت جيشا كبيرا فسيقع بسرعة فريسة للفوضى والتخبط ·· » ·

ولم يشهد القرن السادس عشر تغييرا في وضع أوروبا الى الأفضل ، كما اتضح من الصراع بين الفئات في المجر في سنة ١٥٢٦ ، وكما اتضح من مقاومة الأمراء الالمان للامبراطور شارل الخامس ·

وقد انعكست الخلافات السياسية في الصراع الاجتماعي، فقد كان التحلل الاجتماعي الذى ادى لتسليم الصرب الوسيطة امام الزحف العثماني ، هو نفسه التحلل الاجتماعي الذى كان سمة من سمات المجر في القرن السادس عشر · وانه لأمر ذو مغزى أن ثورة الفلاحين المجريين في سنة ١٥١٤ م كانت في الأصل تخطيطا لحرب صليبيه ضد العثمانيين · وفي عشيه معركة موهاكس كتب السفير البابوى (القاصد الرسولي) عن احوال مملكة المجر قائلا : « الكراهية تسود بين المقاطعات ، وتتمشى الحاجة والعوز » وان الرعايا المجريين سيقومون بثورات مدمرة ضد النبلاء اذا ما وعدهم السلطان بالحرية » فعادة ما كان السكان من الفلاحين سواء في أوروبا الداتوبية ام في مستعمرات البحر المتوسط التابعة لجمهوريات ايطاليا البحرية ينظرون للعثمانيين كمحررين · فلم يحدث في شيوز Chios التابعة لجنوة ، ولا في قبرص التابعة للبندقية ــ عندما اجتاح العثمانيون الأولى في سنة ١٥٦٦ والثانية في سنة ١٥٧٠ ــ أن واجه الفلاحون الأورثوذكس ، العثمانيين بعداء أو مقاومة ، ولاهم ، أيدوا حكم الطبقة الحاكمة الايطالية ،

التي كانت تختلف معهم لغة ودينا (١) ، والتي كانت – اي الطبقة الحاكمة الايطالية ، جنوية ام بندقية – تستخدم كل براعتها في استغلال هؤلاء الفلاحين الارثوذكس .

ومما زاد الخلافات الاجتماعية والسياسية المتصلة في أوروبا عمقا ، ظهور الخلافات المذهبية الدينية المصحوبة بالتعصب وضيق الافق ، فقد زامن الهجوم العثماني على أوروبا في القرن السادس عشر ، ازمة الاصلاح الديني التي زلزلت اوروبا زلزالا شديدا . وقد كان البابوات ، واحدا في اثر آخر ، ينتهزون الفرص للدعوة الى العالم المسيحي ، كوسيلة لاستعادة الوحدة المسيحية ، الا ان حركة الاصلاح الديني سرعان ما ظهرت متداخلة مع العوامل السياسية ، فوضعت عقبات أمام نجاح هذا الغرض البابوي (وحدة العالم المسيحي) ، فقد كان البلقان منذ امد طال ارضا خصبة للهرطقة (٢) ، اذ ترعرعت في انحائه عقائد كعقائد البوجوميل Bogomils في البوسنة الوسيطة ، وصربيا ومقدونيا ، اذ كان خلاف اصحاب هذه العقائد مع سلطات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، عاملا مهما في تيسير مهمة الفتوحات العثمانية في القرن الخامس عشر ، في هذه المناطق .

وقد أدت الانتصارات العثمانية في القرن السادس عشر الى تعميق الخلافات الدينية بين الاوروبيين الشرقيين ، فقد أصيبت الكاثوليكية المجرية بضربة قاضية بسبب نكبة واقعة موهاكس Mohacs حيث قتل في المعركة سبعة أساقفة من أصل ١٦ أسقفا ، كانوا في مملكة المجر كلها . وقد استغل البروتستنط هذا الموقف ، كما استغلوا التسامح الديني في رحاب العثمانيين الذين اعتبروا المبشرين البروتستنط اخوانا تجمعهم بهم عقيدة تحطيم الأوثان

---

(١) يعني ملحدا (المترجم) .

(٢) يعني الخارجين عن الكاثوليكية – (المترجم) .

Iconodants   واتخذوا طريقهم الى المناطق العثمانية المفتوحة يبشرون دعوتهم ·

والواقع ان انتشار البروتستنطية لم يؤد الى تقسيم أوروبا في الوقت الذي كان فيه الضغط العثماني في ذروته، فحسب ، وانما ادى هذا ايضا الى تقليل فرص المسيحيين في استعادة المناطق التي فقدوها · فترنسلفانيا على سبيل المثال كانت تربة صالحة للمنافسة بين وجهات النظر المسيحية المختلفة ، الكاثوليكية ، واللوثرية ، والكلفنية ، والحركة المناهضة للتثنيت Unitarians ، فكل هذه المذاهب تحصنت في ترنسلفانيا واتخذتها موطنا · وطبقة ملاك الأراضي البروتستنط ، كانت تنظر ببرود الى فكرة تحريرها من التبعية للسلطان العثماني من قبل النمسا الكاثوليكية ابان الحركة المناهضة للاصلاح الديني ، بل في بعض الاحيان ، كانت طبقة الملاك البروتستنط هذه تقاوم فكرة تخليصها من الحكم العثماني على يد قوى كاثوليكية ·

وعلى أية حال ، فرغم الانتصارات العثمانية في المرحلة الاولى ، والتي نتجت عن هذه الظروف المتشابكة ، الا ان الحروب التي طال أمدها في القرن السادس عشر ، قد وصلت استراتيجيا الى طريق مسدود · ففي البر ، كان الوضع ينذر بفشل عثماني بعد انتصارهم في موهاكس في سنة ١٥٢٦ ، وتجلى هذا في محاولتهم الفاشلة للاستيلاء على فيينا في سنة ١٥٢٩ · وحتى بعد نجاح العثمانيين في اخضاع وسط المجر للحكم العثماني المباشر خلال الاربعينات من القرن السادس عشر ، كان سليمان القانوني غير قادر على احراز مزيد من الانتصارات الكبرى او التقدم تقدما ملموسا وكانت حملته الاخيرة في سنة ١٥٦٦ قد تمخضت – حقيقة – على طول حدود البلقان – عن خطوط ثابتة غير قابلة للتغيير ·

ويكمن تفسير ذلك في أن العقبات الجغرافية والمقاومة المسيحية كانت اكبر من أن تذلل من قبل الامكانات

التكنولوجية فى ذلك العصر • وقد كانت ضخامة الجيوش العثمانية تخلق مشكلة تموين ثقيلة الوطأة ، فقد كان سلاح الفرسان يمنع من دخول بعض معارك الشتاء ، لنقص الاعلاف وعدم ملاءمة طبيعة الارض فى الشتاء للقوات العسكرية المحمولة • ولهذا كان العثمانيون معنيين بمعارك الصيف التى كانت عادة تمتد من منتصف ابريل الى اخر أكتوبر • فالمجر التى كان الوصول اليها من استنبول ، يستغرق فى الظروف العادية ما بين ٩٠ الى ١٠٠ يوم ، كانت تمثل اقصى حدود القدرات العسكرية العثمانية • وكانت الصورة ستكون مختلفة فيما اذا كانت المجتمعات الأوروبية التى واجهها العثمانيون بعد معركة موهاكس ، هشة ومفسخة بنفس الدرجة التى كانت عليها مجتمعات البلقان ـ ولو كان هذا حادثا ، لترتب عليه فتح سريع واستغلال سهل • فقد وجد العثمانيون صعوبات متزايدة فى احراز اى تقدم فى مواجهة عمق ثقافى ومجتمع متطور متماسك بفضل ولاءات دينية ومؤسسة سياسية ضاربة فى القدم فى سهول مارشفلد Marchfeld حول فيينا • فقد اظهر الاوروبيون هنا رغبة متعاظمة فى المقاومة وجلدا عليها ، أكثر مما فعل ضحايا العثمانيين فى القرون الخوالى • وقد وجدت المقاومة تعبيرا فى احتلال فرديناند لعرش المجر فى سنة ١٥٢٦ • وخلال الثلاثينات من القرن السادس عشر ، أسس فرديناند فى الجزء المجرى الذى كان خاضعا للهبسبرج نظام تحصينات عميقا ذا تأثير رغم عدم تطوره ، كما قدم نظام الهبسبرج الرشاوى والعون المالى للجرينزر واسكوكس سكان الحدود فى سلافونيا Slavonia وكرواتيا Croatia وكانوا خلائط أكباد نهابين سلابين ، وكان الهبسبرج يدفعونهم (أى هذه الجماعات) ليقوموا بغارات على العثمانيين عبر الحدود ، كما شاركت هذه العناصر فى أعمال القرصنة ضد العثمانيين أيضا • وقد أدت هذه الاجراءات التى خطط الهبسبرج لها، الى عرقلة تقدم القوات العثمانية ، وايقافها فى النهاية عندما كانت القوات

العثمانية تحارب بأقصى حدود امكاناتها العسكرية .

وفي البحر المتوسط حدث ركود مماثل ، أنهى فترة من النجاحات العثمانية الباهرة التي بدأت في سنة ١٥٢٠ وبلغت ذروتها في الستينات والسبعينات من القرن السادس عشر ، وتأكدت هذه النجاحات وتوجت بمفاوضات السلام في سنة ١٥٧٧ ، وهدنة سنة ١٥٨١ . وهكذا تمركزت السيطرة العثمانية في شرق البحر المتوسط وفي الجزائر وطرابلس وتونس ، التي كانت بمثابة مراكزها وممتلكاتها الرئيسية في شمال أفريقيا . وفي المقابل ، كانت السيطرة الأوربية في البحر المتوسط الغربي ذات عزم أكيد لحماية ايطاليا وصقلية ومالطة واتخاذ مواقع دفاعية ضد أعمال القرصنة ، وكان العثمانيون غير قادرين على مد سيطرتهم أكثر تجاه الغرب ، ما دامت الملكية الاسبانية قادرة وراغبة في التضحية . ولقد نشأ هذا الركود في المواجهة البحرية ، من أسباب شبيهة بتلك التي أدت للركود في جبهة البلقان . فالسيطرة الكاملة على البحر المتوسط كانت بعيدة من متناول الامكانات التكنولوجية والادارية لأى من المجتمعات المطلة عليه . ففي خلال شهور الشتاء كانت التحركات البحرية الكبرى ، وكذلك التحركات العسكرية البرية الكبرى ، من الأمور غير الممكنة ، فقد كان الشتاء يقطع سنويا وبشكل حاسم ، الطرق الموصلة بين اسطنبول وقواعد القرصنة النائية ، كالجزائر مثلا . فحملات القرصنة في الشتاء كانت عرضة للتدمير الكامل ، فقد كان موسم الملاحة قصيرا جدا ، وكانت مشكلة المواصلات قائمة وكانت مشكلة التموين معقدة للغاية بحيث لم تكن كل هذه المشكلات تسمح بغزو وفتح المراكز الاستراتيجية النائية . وعلى الجانب الأوروبي معقدة للغاية ، بحيث لم تكن كل هذه المشكلات تسمح بغزو وعلى الجانب الاوروبي كانت المقاومة غير منظمة ـ تماما كما كان الوضع على البر في أوروبا الشرقية ـ ولكن بعد ظهور أندريا دوريا كأمير بحر يعمل لحساب اسبانيا منذ سنة ١٥٢٨ واجه العثمانيون مقاومة مقتدرة زاد من

فعاليتها وعنفها تلك الاصلاحات البحرية التي قام بها فيليب الثاني ، ونظام قطارات السفن المحمية الذى تم ادخاله في العمليات في محور برشلونة ـ جنوة في السبعينات والثمانينات من القرن السادس عشر ·

ولقد كان فشل العثمانيين في الاستيلاء على مالطة مؤكدا لهذا الموقف (الوضع) فالموسم القصير المتاح (كان الأسطول العثماني قد غادر اسطنبول في ابريل ، وقد رفع الحصار في سبتمبر) وقوة تحصينات الجزيرة ، والمساعدات الخارجية القادمة لدعم المدافعين عن مالطة ، من القواعد الاسبانية الامامية في صقلية ـ كل أولئك جعل مالطة هي فينا البحر المتوسط ·

الفصل الرابع

الأثر العثماني

يعتبر العثمانيون بوجه عام ، هم مصدر الازعاج الأساسي لأوروبا - وفقا للآراء التقليدية - في فجر التاريخ الأوروبي الحديث . ولم يتوقف هذا الازعاج بشكل مباشر، (أو لم تخف وطأته) الا بعد الهزيمة الحاسمة التي حاقت بالعثمانيين في ليبانتو ، ومهما كان الأمر ، فثمة وجهة نظر عامة مؤداها أن الوجود العثماني في أوروبا قد أسهم في تطور أوروبا بشكل عظيم ، كما أنه زامن هذا التطور . فبسبب خنق العثمانيين لتدفق التجارة الشرقية - خاصة تجارة البهار الهامة - وتحكمهم في الطرق الرئيسية التي كانت تمر منها التوابل الى أوروبا خلال موانيء الشرق الأدنى ، كانوا هم (العثمانيون) المسئولين عن التوجه الأوروبي نحو الطرق الغربية ، ذلك التوجه الذي بدأ في القرن الخامس عشر الميلادي باكتشاف سواحل أفريقيا المطلة على الأطلنطي ، واندفاع البرتغاليين الى الهند وجزائر التوابل في الشرق الأقصى ، واستعمار أسبانيا للعالم الجديد .

على أن هذا الذي ذكرناه آنفا ، لا يعد أمرا مقنعا اذا ما وضعنا في اعتبارنا التتابع الزمني وحده . فقد أبحر بحارة هنري الملاح قاصدين الدوران حول أفريقيا حتى قبل أن يستولي العثمانيون على القسطنطينية . كما أن فاسكودا جاما قد وصل الى ساحل المالابار في الهند ، وقام ألفونسو دي البوكيرك بنشر شبكة من المحطات التجارية المحصنة في

الشرق الأقصى والمحيط الهندى ، قبل أن يستولى سليم الأول على المراكز التجارية فى سوريا ومصر .

وعلى هذا ، فمبادرات البرتغاليين الكشفية هذه ليست نتيجة تدخل العثمانيين فى تجارة البهار ، بل النقيض تماما هـو الذى يقرب من الحقيقة فمنذ سـنة ١٥٠٥ حتى ممات الملك عمانوئيل الأول King Manuel سـنة ١٥٢١ ، نجـد البرتغاليين ، انطلاقا من قواعدهم التى حصلوا عليها حديثا فى شرق أفريقيا وآسيا ، يعملون وفق سياسة مدروسـة ، حققت فى المدى القريب نجـاحا باهرا ، لاسـتئصال كل المصالح الاسلامية فى مضمار تجارة البهار . ولقد كتب أحد البرتغاليين فرحا مهللا : « لقد حوصر محمد ، ولا يمكنه أن يتقدم أو ينساب أكثر مما فعل ... والحقيقة انه سيحشر ويحطم . ولا خيار له سوى ذلك » (١) . ويمـكن تفسـير حملات العثمانيين وسياستهم التجارية بعـد سنة ١٥١٥ ، كرد فعل فعال لهذه الأزمة ، فقد أتاح غزو سوريا ومصر فى عامى ١٥١٦ و ١٥١٧ للعثمانيين السـيطرة عـلى القاهرة والاسكندرية وبيروت ، وهى الموانىء الرئيسية فى الشرق الأدنى ، التى تمر تجارة التوابل عبرها . كما أن الاستيلاء على جزيرة رودس سنة ١٥٢٢ كان ضروريا لتحقيق الأمن للممرات البحرية ، الموصلة بين هذه المراكز ، واسطنبول . وكانت هذه الفتوح هى القاعدة التى اعتمدت عليها الحكومة العثمانية فى بذل جهودها فى العشرينات والثـلاثينات فى القرن السادس عشر لجعل اسطنبول مركزا لتجارة التوابل تحت اشراف حكومى ، ثم يتم تصدير التوابل من اسطنبول الى أوروبا عبر نهـر الدانوب ، بحيث يكـون التنقـل عبر البحر المتوسط الى ايطاليا أقل أهمية ، وهـذه السياسـة تستبعد تجار التوابل السوريين والمصريين والبنادقة ، الذين

(١) يقصد محمدا (عليه أفضل الصلاة وأزكى السـلام) والمقصود هنا الإسلام . وهذا التعبير يظهر مدى الحقد الكامن فى نفوس أعداء المسلمين ، إن رموز الإسلام التاريخية الثابتة الدائمة ، إن محمدا (عليه الصلاة والسلام) فى رحاب ربه ، ولكن نفسـه الطاهر ما زال فى مشـاعرهم — (المترجم) .

كانوا هم المحتكرين والرابحين التقليديين من هذه التجارة • وعلى هذا فان حروب سليمان (القانوني) في البلقان ، بدءا من سنة ١٥٢٠ • ليس لها الا تفسير منطقي واحد ، وهو أنها محاولات للسيطرة الكاملة على طرق التجارة المؤدية الى داخل ألمانيا عبر نهر الدانوب ، فهذا اذن لا يدل على تصميم العثمانيين على خنق تجارة البهار • وعلى هذا فان الفرضية القائلة بأن التوسع العثماني هو الذى أجبر الأيبريين على الحركة الكشفية ، لا تصمد أمام نقاش ، لما ذكرناه من أسباب •

ومهما كان الأمر ، فاننا اذا أمعنا التفكير ، وجدنا أن كلا الرأيين المتعارضين ، قد يكونا مترابطين ، فقد كانت أوروبا الوسيطة مجتمعا محاصرا مأخوذا بتلابيبه ، وهدفا لضغط دائم لحوح ومكثف من قبل الشرق • ولم تؤد الحروب الصليبيه الى خلاص أوروبا خلاصا دائما من حصار المسلمين، ولكن ما ان اقترب القرن الخامس عشر من نهايته حتى كان النشاط الاقتصادى الأوروبي في انتعاش كبير ، وان كان في غير انتظام فقد كان السكان في ازدياد ، وكان الانتاج الزراعي يزداد كما بشكل ملحوظ ، وطورت صناعات النسيج والصناعات الاستخلاصية ، حيث وضعت أفكار جديدة موضع التنفيذ ، مما أدى الى تطوير آلاتها • لقد كانت كل العناصر الاقتصادية المصاحبة للتوسع الأوروبي ، جاهزة حاضرة في أوروبا قبل حدوث هذا التوسع ، وفي الوقت الذى شهدت فيه أوروبا كل هذا ، كان العثمانيون يوسعون امبراطوريتهم في البلقان ومناطق البحر الاسود والشرق الأدنى ، وكانت السيطرة الاسلامية على هذه المناطق تمتد وتتوسع وتتقوى بحيث كان الأمل في قهرها أملا كاذبا • لهذا كانت الفعاليات الاقتصادية الأوروبية مضطرة لايجاد مخرج ، وكانت هذه المحاولات الأوروبية لا تبشر بخير في بدايتها ، لكنها — هذه المحاولات — ما لبثت أن عثرت على مراكز انطلاق تدر أرباحا هائلة ، في أقصى الغرب ، مع تجنب قدر من المواجهة (المقاومة) المرعبة مع هؤلاء

العثمانيين • فالعثمانيون اذن لم يدفعوا الأوربيين فى هذا الاتجاه ، ولكنهم ـ أى الأوربيين ـ أوجدوا لأنفسهم مخارج أخرى ، بعد أن أغلق العثمانيون المنافذ البديلة •

ولكى يكون تحليل التأثيرات العثمانية على النهضة والاصلاح الأوربيين ، مفيدا ، يجب التركيز على الموضوعات الواضحة التى يمكن اثباتها ، والتقليل نسبيا من التعرض للموضوعات الخلافية أو التأويلية ، فثمة صعوبة تكمن دائما فى تحديد التأثيرات الخارجيـــة على تطـــور أى مجتمع أو مجموعة مجتمعات • وهذه الصعوبة تتمثل فى تحليل وفرز العمليات والعناصر ، الكامنـة فى العامل المؤثر ، اذ تشتمل هـذه العناصر وتلك العمليات على ما لا يمكن حصره من القوى ، وهذه العناصر والعمليات والعوامل التى لايمكن حصرها ، هى التى تصيغ طبيعة الأحداث ، ولايحاول هذا الكتاب أن يخوض خضــم العلاقات السـببية للأحداث ، ثم يفصلها ، ويعزلها ، كمـا تعـزل الخيوط بعضها من بعضها الآخـر • فكل مافى الأمر ان مناطق بعينها ، بدا فيها الأثر العثمانى بصورة جلية ، وتلك ستفرد لها نقاشا •

فالتطـورات فى كل منطقة من هــذه المنـاطق المتـأثرة بالعثمانيين ، نتجت عن نفس المشكلة أو الأزمة • وهــذه المشكلة أو الأزمة هى تهاوى الحدود بين المسيحية والاسلام تحت ضغط العثمانيين • ونحن لا نقصــد بالحدود هنــا ، خطا على خريطة أو أرض أو منطقة ، وانما نقصد المنطقة الانتقالية بين الثقــافات المختلفـة أو الأبنيـة الاجتماعية المتباينة • ففى فترات الاستقرار والتوازن لا تنظر الشعوب باهتمام كبير الى هذه الحدود ، ولكن الاضطرابات المتتاليـة على شريط الحدود ، بالمعنى الذى أســلفناه ، تجعـل عدم الاستقرار فى هذا الشريط الحدودى بمثابة عامل تهدئة ، ذلك أن هذه المنطقة الحدودية تمنع حـدوث مواجهـة بين المجتمعــات التى تكـون بمعزل عن هـــذه الاضـطرابات

والمواجهات • ومن ناحية أخرى فانه عندما تتردى هـــذه المجتمعات الحدودية فى صراعات عنيفة ، فانها فى هـــذه الحالة تكون تخوما تصون المجتمعات الأخرى الكامنة خلفها، ثقافيا واجتماعيـا وبذلك تؤدى وظيفتهـا ، أما بالنسبة للمجتمع السودانى المتوسع ، فالتخوم (الحدود) بالنسبة له هى أقصى نقطة يمكن أن يصـل اليها بطاقاته التوسـعية والضاغطة ، سواء من ناحية المد السـكانى ، أو القـوة العسكرية ، فمهمة تمديد الحدود وتوسيعها ، تستقطب اذن وتعبىء كل القوى الاجتماعية ، وفى المقـابل فان المجتمع الذى هو عرضة للغزو ، تكون الحدود بالنسبة له عبارة عن جدار ضخم ، حيث يكون للدفاع ، قدحه المعلى •

فالامبراطورية العثمانية ، والتى قامت نتيجة لاحـدى موجات الغزو الرعوية ، المنطلقة من اواسط آسيا ، أصـبح بقاؤها رهنا بالتوسع الدائم المستمر ، وكان هؤلاء البداة يهضمون ويستوعبون كل ما يستولوا عليـــه ، لقـد كان التوسع الدائم والمستمر هو قانون الحياة لهؤلاء العثمانيين• أما أوروبا ــ رغما عن وضعها ــ فما كان العثمانيون ليمعنوا ضغطا عليها ، طالما كانت هنـاك أسوار محـكمة ممثلة فى امبراطورية الصرب والامبراطورية البيزنطية، وامبراطورية المجر ، اللاتى لم يكن البوار قد اعتراها بعد ، وطالما كان العثمانيون غـير قادرين عـلى ترسيخ أقدامهم فى البحـر المتوسط ، ولكن الضغط العثمـانى العظيم والذى كان فى ازدياد مستمر منـذ القرن الرابع عشر تمخض فى القـرن السادس عشر عن نقطة مذهلة • لقد انهارت تماما الحدود التقليدية ، عندما وصلت جحافل سليمان (القانونى) الى بوابات فينا ، فى الوقت الذى كان بحارته يثيرون الرعب الهائل فى وسط البحر المتوسط وغربه • ومن وقتها لم يعد العثمانيون يمثلون لأوربا همـا خطيرا فحسب، وانما أصبحوا يمثلون خطرا مميتا •

وكان من الطبيعى أن تظل القطاعات الشمالية والغربية

من المجتمعات الأوربيـة بمنأى عن الخطـر ، اذا ما قورنت بالمناطق الأوربية الأخرى ، نظرا لبعدها أما المنـاطق التى كانت تعد بمثابة مفاتيح ومداخـل للحضـارة الأوربيـة ، كالأراضى الألمانية وايطاليا ، فقد غدت الآن عرضة للهجوم العثمانى . أما رجال الفكر المولعون بتمثل الماضى ، فقـد رأوا فى الخطـر العثمانى نذر اجتيـاح البرابرة للحـدود الرومانية . أما الوعاظ ورجال الدين المسيحيون ، فقد رأوا فى العثمانيين سخطا الهيا على المجتمع المسـيحى الفاسـد والمتداعى .

ويتوجب علينا الآن أن نسبر أغوار التجربة الأوربيـة وردة الفعل المترتبة على الصدمة المادية والنفسية للهيمنـة العثمانية .

منـاطق الغزو العثمـانى :

البلقان وأوروبا الدانوبية :

اختلفت أحوال الشعوب الأوربية ، التى استولى عليها العثمانيون ، أو غزوها، فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وفقا للظروف والاوضاع المحلية لكل شعب من هـذه الشعوب ، وثمة مناطق سمح لها العثمانيون بنوع من الحكم الذاتى مع دفع اتاوات ، أو تقديم خدمات بعينهـا ، نظـرا لبعدها ووجودها فى الأطراف ، وبالتالى لم تخضع للحكم أو الاستعمار العثمانى المباشر ، وكانت جمهـورية راجوسـا Ragusa (*) تعد مثالا واضـحا عـلى ذلك . وكانت راجوسا بمثابة مركز ايطالى تجارى متوسط الحجم يقع على الشاطىء الادرياتيكى لشبه جزيرة البلقان ، وقد استمرت راجوسا فى الوجود حتى أواخر العصور الوسطى بسـببه تنظيمها لعمليات تبادل البضائع الأوربية المصنعة ، فى مقابل حصولها على القمح والجلود والصبيد والمواد الخام من المناطق

(*) أو « دوبروفنك » ، وهى الآن ضمن حدود ما كان يعرف بـ يوغسلافيـا — (المترجم) .

الداخلية • ولكن المنافسة الحادة من البندقية ، وعدم الاستقرار السياسي الضارب أطنابه بصورة دائمة في بلاد البلقان الداخلية ، شكل تهديدا لهذا النشاط التجاري • ولقد أدى الفتح العثماني للبوسنة في سنة ١٤٦٣ ، وهيرزوجوفينا (الهرسك) Herzegovina في سنة ١٤٨٢ ، الى تقليص جمهورية راجوسا هذه الى شريط أرضي ضئيل المساحة ، واجبرها على الاعتماد المطلق على رضاء السلطان العثماني وحسن نواياه • فقد أدى دفع الراجوسيين لضريبة مجزية ـ حددت في نهاية القرن الخامس عشر بنحو ٥٠٠ر١٢ دوكات سنويا ، وظلت كذلك لمدة قرون ـ الى اتقاء شر الغزو العثماني ، ولقد كان أهل راجوسا ـ في حقيقة الأمر ـ مفيدين جدا للعثمانيين في هذا الوضع ، بصورة أغنت عن غزو بلادهم • فقد كانت جماعات التجار الراجوسيين في كل من نيس Nis ونوفيبازار وسكوبج Skopj تنعش اقتصاد البلقان كله ، كما كانوا يمارسون النشاطات الاقتصادية الرئيسية التي لم يكن الترك بارعين فيها أو غير مهتمين بها • لقد احتكر الراجوسيون تجارة الملح ، كما خدموا السلطان وبكواته البلقانيين كمسئولي جمارك وجامعي ضرائب ، واستوردوا المنسوجات الاوربية وصدروا زنك البانيا ، ورصاص البوسنة ، الى ايطاليا وكانت الحلي والزخارف المادية وذات الطابع الديني التي يصنعها الحرفيون من اهل راجوسا ، تجد أسواقا عطشى في كل روما والبندقية واسطنبول • لقد أتاحت فتوحات سليمان وحروبه البحرية في القرن السادس عشر لهذه الجمهورية الراجوسية مكاسب ومنافع ، لكنها لم تدم ، اذ كان عصر راجوسا الذهبي قصيرا غير مستقر كما كان محفوفا بالمخاطر •

ولقد تحول الجنويون من العمل في شحن البضائع ونقلها وبناء السفن ، الى الاشتغال بالأمور المالية ، تمويلا وتعاقدا ، طالما كانت مستعمراتهم في البحر الاسود عرضة للضغط العثماني ، الذي فتتها ، وحطمها ، ثم أنهاها في

خاتمة المطاف • كما أن أسطول البنادقة التجارى، قد تناقص أيضا ، تحت ضغط هجمات القراصنة والحروب البحرية الطويلة الأمد ، ولقد انتهز أهل راجوسا الفرصة ، فسدوا هذا الفراغ الذى خلفته هذه الظروف فى تجارة البحر المتوسط • فبينما كانت تجارة البنادقة قد أصيبت بالشلل، خلال حروبهم مع العثمانيين فى قبرص (١٥٧٠ ــ ١٥٧٣) فان ستين سفينة كبيرة من سفن أهل راجوسا ، كانت تذرع هذا البحر المتوسط ، جيئة وذهابا ، فيما بين اسطنبول والاسكندرية وطرابلس وبيروت وسالونيكا ، وقد كان هناك ٢٥٠ قائد سفينه مسجلا ، و ٥٠٠٠ بحارا فى ميناء راجوسا فى أوائل الثمانينات من القرن السادس عشر ، كما كان الميناء يضم ٢٠٠ قارب يمتلكها التجار فى حالة عمل • كما كانت راجوسا هى نقطة التماس ووسيلة الاتصال الضرورية والمطلوبة بين أوروبا والامبراطورية العثمانية • فقد كانت راجوسا ، نقطة البداية فى بحر الأدرياتيك ، لطريق القوافل ، الذى يستغله التجار ورجال السلك الدبلوماسى ، متخذين طريقهم من نيس Nis وصوفيا وفيليبوبوليس الى اسطنبول ، كما كان الجواسيس من أهل راجوسا ، والوكلاء السريون ، ذوى نشاط ملحوظ فى السياسة الأوروبية ، فخلال الفترة من ١٥٣٠ الى ١٥٣٩ ، بينما كان أحد تجار راجوسا وهو سيرافين جوشيتك Serafian Gucetic يمهد للمفاوضات التى أدت الى المعاهدة الفرنسية العثمانية فى سنة ١٥٣٦ ، كان هناك شخص آخر من أهل راجوسا أيضا هو مارين زامنجا Zaminja يكتب تقارير عن الشئون العثمانية لتقديمها الى الامبراطور شارل الخامس •

لقد مكن الرخاء والازدهار الناتج عن هذه الأنشطة التى حققت مكاسب للتجار والمشتغلين بالاحتكارات الصناعية ــ أهل راجوسا من الاحتفاظ بقوتهم ولماليتهم بتجميد العلاقات الاجتماعية فى قالب محافظ، تمسكا بهذه المصالح،



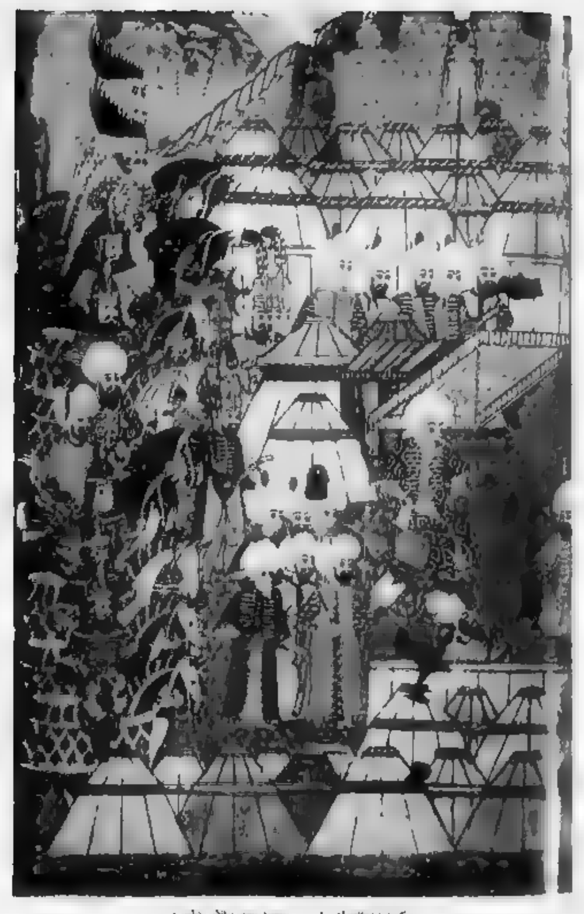
[illegible] ٥٧٤ [illegible] ٩٥ [illegible]
[illegible]
[illegible]



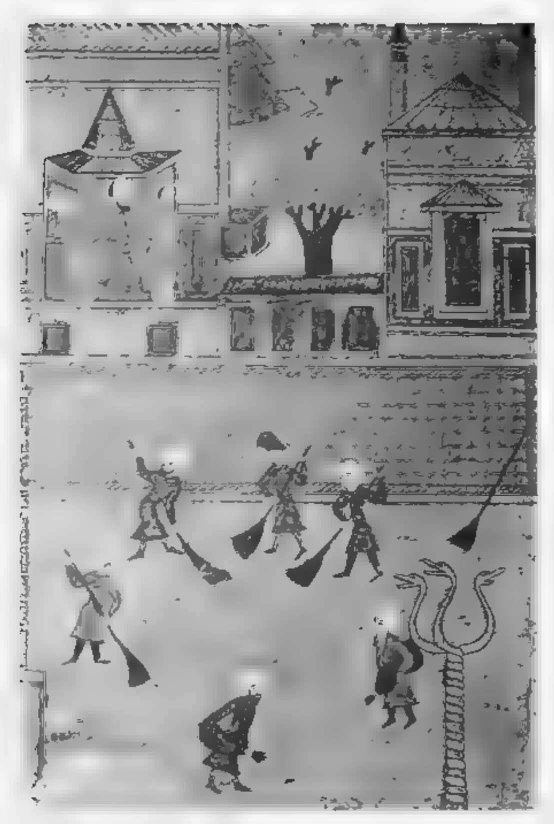
شهد عصر سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤) المعروف « بالسكير » بداية الانهيار في مؤسسة السلطنة من حيث الكفاءة والمقدرة. فقد كان هذا السلطان مهتما بشرب الخمور المعتقة أكثر من اهتمامه بالمعارك الحربية



أحد صبيه الدفشرمه أو ضريبة الأطفال من القرى البلقانية ، في الزي الرسمي لإحدى مدارس القصر السلطاني التي تعده للاستخدام للإنكشارية



معسكر قوات الشاه ل جورجيا على حدود الأمبراطورية



أعضاء طائفة الكناسين ينظفون ميدان السباق في اسطنبول (القسطنطينية) تحت إشراف السلطان مراد الثالث نفسه - لاحظ أن المماليك من أصول مسيحية أو الأشخاص الذين تركوا المسيحية واعتنقوا الاسلام كانوا يحتكرون المناصب العليا في الدولة العثمانية ، بينما كان المسلمون بالولادة نادرا ما يتقدمون في سلك وظائف الدولة ، بل ونادرا ما كانوا يتخطون وضعهم الأصلي في الحياة ونادرا ما يجتازون طبقتهم الاجتماعية الأصلية

بينما كانت المدن الايطالية يجهدها صراع الطبقات ، كما كانت قد بدأت تذوب في كيانات أكبر لتتخذ شكل الدول ، ظلت راجوسا متحجرة ككيان له طابع أوروبا الوسيطة ، حيث كن نشاطها الاقتصادى والسياسى تديره عصبة منظمة تنظيما فائقا ، عصبة تتمتع بمزايا اجتماعية ، ومغلقة على نفسها لا ينضم اليها أعضاء جدد. أما الجبليون في مونتنجرو (الجبل الأسود) Montenegro فلم يكونوا مثل سكان المدن من أهل راجوسا ، اذ كانوا في عزلة ، ولم ينغمسوا تماما في تيارات الغزو العثماني . لقد احتل العثمانيون هذه المنطقة بعد غزوها في سنة ١٤٩٦ ، ولكن بعد المنطقة ، وقسوة تضاريسها ، سرعان ما كانا سببين في أن يستبدل العثمانيون سياسة الاستعمار المباشر ، بسياسة أخرى مرنة معتمدة على الاكتفاء بالسيادة الاسمية . وكان المنتخبون من الأشخاص من ذوى الحيثيات الاجتماعية والأوضاع المميزة من اهل مونتنجرو ، هم المسئولين امام السلطات العثمانية ، عن جمع الضرائب العامة وتسليمها ، ولكن العملة الحقيقية التى كان أهل مونتنجرو يشترون بها حريتهم ويتحاشون بها التدخل العثماني في شئونهم ، كانت هي الخدمة العسكرية التي كان يقدمها رجال قبائل المنطقة في خدمة السلطان . ولقد كانت فرص السلب والنهب التى كان النظام العثماني يتيحها ــ على الأقل خلال القرن السادس عشر ــ هى العامل الكامن وراء حماسة اهل مونتنجرو الفائقة ، وزعمائهم العشائريين ــ للاشتراك في العمليات الحربية العثمانية .

وانه لمن الصعب أن نصل الى تقدير عام منضبط ، عن ظروف الأرض المروعة والسهول المدمرة جنوب الدانوب في أعقاب الغزو العثماني ، الا ان أدلة كثيرة تشير الى انه خلال القرنين ، الخامس عشر والسادس عشر ، رحب السكان المزارعون في البلقان وأواسط المجر ، بالعثمانيين ، بل وقدموا لهم المساعدة ، ويكمن تفسير ذلك في ان نظام الاقطاع العثماني كان أكثر بساطة وبدائية وأقل تبلورا

وانضباطا ، اذا ما قورن بالاقطاع الأوروبي ، فوسائل الاشراف والنبلاء ، واتجاهاتهم ، في صربيا والبوسنة وكرواتيا Croatia في القرن الخامس عشر ، وفي المجر في القرن السادس عشر ـ كانت تتسم بقدر كبير من القسوة والوحشية فاقتا ـ القسوة والوحشية ـ ما اتسم به نبلاء واشراف أوروبا الوسطى والغربية ، وكان الاقطاع العثماني بالمقارنة يقوم على النظام الاجتماعي المعروف بالتيمار وهو اقطاع لا يورث وانما يتقلده السپاهي ـ وهو فارس محارب ـ مقابل خدماته الحربية وكان هذا النظام العثماني ، من وجهة نظر الفلاحين ، ذا مزايا متعددة • ذلك أن السيد الاقطاعي غالبا ما يكون غائبا في المعارك طوال فترة الصيف منكبا على جمع الغنائم والأسلاب ، يوليها اهتماما اكثر من اهتمامه باغتصاب ما يملكه رقيق الارض التابعين له • وفي النظام العثماني يؤدي رقيق الارض خدماتهم في شكل اعمال غالبا ، اكثر مما يؤدونه في شكل أموال وبضائع • هذه الطبيعة غير الوراثية للتيمار ، بالاضافة لضعف الروابط الأسرية في المجتمع العثماني جعلت السپاهي العثماني اقل اهتماما من نظيره الأوروبي في توسيع رقعة ما يحوزه ، وأقل منه اهتماما بتكديس الثروة لورثته بمختلف الأساليب والممارسات ، كطلب ايجار باهظ مثلا • وعلى هذا فرص وحوافز المقطعين ، في احكام السيطرة ، والامعان في الاستغلال الكامل لاقطاعاتهم ، في ظل النظام العثماني ـ اقل منها في الاقطاع الاوروبي • وكان ثمة كابح آخر يسع احكام السيطرة في ظل الاقطاع العثماني وهو عدم وجود محاكم القصور الاقطاعية ، على الاقل حتى القرن السابع عشر ، وفقا للنموذج الاوروبي • وكانت الأمور المتعلقة بالعدالة من اختصاص الحكومة المركزية ، التي كان ممثلوها على كل المستويات ـ عادة ـ من العبيد الذين ترجع أصولهم الى البلقان ، والذين كانوا يحتفظون ببقايا ولاء وحب وتعاطف لمجتمعات القرى التي خرجوا من رحابها •

وسيكون من الخطأ ـ مهما كان الأمر ـ أن نفترض أن النزعة لنحير ، كانت هي الدافع الموجه للسياسة الاستعمارية العثمانية • وان كان من المؤكد ان ضريبة الدم ، التى تعنى أن ينتزع الأطفال من المناطق البعيدة فى البلقان العربى ـ واستمرت هذه الضريبة كعماد للقوة البشرية للبيت العثمانى الحاكم ، وفرق الانكشارية ، منذ القرن الخامس عشر حتى الغاء هذا النظام فى سنة ١٦٣٨، كانت ـ اى هذه الضريبة ـ لا تلقى الاستياء والامتعاض الكافيين • ويمكن فهم هذا اذا قارن ظروف الحياة الطيبـة وفرصها ، التى كانت تتـاح لهؤلاء الاطفال فى المؤسـسات التدريبية الملكية فى اسطنبول، بما فى حياة قرى البوسنه وألبانيا من بؤس وحرمان •

أما فى المناطق الأكثر غنى ، فقد أثبت العثمانيون أنهم كانوا أكثر شراهة فى جمع الضرائب ، فالرعايا المسيحيون الذين لم يكونوا يمارسون واجبات عسكرية أو ادارية هامة، كان عليهم ان يدفعوا بالاضافة لضريبة الشاملة على الارض، ضريبة رأس ، وكانت تسمى الخراج (The Harac) ، فليس فى كل الاحوال ، كان وصـول العثمانيين ، يمثـل تخفيفا للأعباء التى كان يضعها الاقطاعيـون الاوربيون على كاهل الفلاحين • ففى بعض أنحاء البوسـنة وصربيا ومقدونيـه والمجر ، كان بعض افراد الطبقة العليـا من أهـل البـلاد يقدمون الرشاوى للرسميين العثمانيين مقابل اقرارهم على امتيـازاتهم ، او ليجـدوا لأنفسهم مكانا ودورا جـديدا كسباهيين اتراك • لهـذا فان طرق الحـكم والادارة فى المناطق الريفية ، ظلت كما كانت قبل وصول العثمانيين ـ بوضعها التقليدى الذى يتسم بالظلم والتعسف •

ولقـد تعرض المجـريون لـكثير من المعـاناة والعنف والحرمان ، بسبب حروب القرن السادس عشر الطويلة ، حيث تعرضت ـ مرارا ـ سهول المجر الوسطى الواقعة بين طرفى النزاع ، للتخريب من قبل الجيوش المتحاربة ، فغدت مهجورة وكأنها لا مالك لها • ففى منطقة برج Berg

على سبيل المثال وجدنا أن تسعة من كل احدى عشرة مدينة قد نهبت ، كما أن ٤٠٠ر١ حيازة زراعية من بين كل ٦٠٠٠ قد أصبحت خرابا ، وذلك خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر . وفي بعض المناطق ، أجبر رقيق الارض على دفع ضريبة مضاعفة للسباهي العثماني وللسيد الاقطاعي المسيحي في نفس الوقت . ذلك السيد الاقطاعي المسيحي الذي كان يظهر على مسرح الاحداث عندما يحول المسئون العثماني المحارب قد غدر الاقطاع او القرية لينخرط في حروب الصيف . لهذا ، كان لا مناص من وجود نقص في السكان نتيجة الهجرة ، كما ان بعض الفلاحين راحوا يبحثون عن الأمان في المدن والقرى الكبيرة ، وفضل بعضهم حياة الرعاة الرحل ، التي رأوا فيها خطورة أقل ، كأسلوب حياة ، من زراعة المحاصيل في منطقة مضطربة يعوزها القانون . وقد انتشر هذا الاتجاه ، ليس في المجر فقط ، وانما في كل البلقان واوروبا الدانوبية بسبب نظام الضرائب العثماني الذي يثقل على الآراضي الزراعية ، وتخف وطأته على المناطق الرعوية ، مما شجع ملاك الاراضي على تحويل أراضيهم الزراعية الى مراع يطرد الفلاحين واقتناء الأغنام والخيول ، وقد ادى ازدهار حياة البداوة والرعي على هذا النحو الى بروغ نجم قبائل الفلاش Vlachs الناطقة بالرومانية ، وهم رعاة رحل كانت أوطانهم في ملداقيا (البغدان) وفالشيا (الأفلاق) قد سقطت في قبضة العثمانيين خلال القرن الخامس عشر .

وفي القرن السادس عشر ، كان سوق الطعام في اسطنبول ، في حاجة الى المزيد ، واستجابت طبقة البويار (طبقة اصحاب الأطيان الزراعية) ورؤساء القبائل في هذه المناطق التي أشرنا اليها ، لطلبات هذه السوق الشرهة ، فراحوا يضغطون على أتباعهم غير الأرقاء ليستخدمونهم استخدام الرقيق في رعي الماشية وممارسة الزراعة . كان هذا هو وضع الفلاش في بلادهم أما خارج بلادهم فقد كانوا ينتشرون بحرية وعلى نطاق واسع ، وكانت علاقاتهم

بالترك وثيقة ، بل وأكثر ودا وصداقة من علاقاتهم بسائر شعوب البلقان ، وذلك نتيجة التفاهم المشترك ، اذ كان الشعبان ، التركي والفلاشي ، كلاهما من الشعوب الرعوية • ولما كان الفلاش هم المنتجون الرئيسيون للخيول بالبلقان ، والمتجرون فيها ، فقد احتلوا مكانا خفيا كموردى خيول للجيوش العثمانية • وفي مقابل خدماتهم هذه ، يسر العثمانيون للفلاش احتكار شغل بعض الوظائف والمناصب الهامشية ، كحراس للموظفين العثمانيين ، ومرشدين وادلاء ومرافقين للقوافل التجارية •

وخلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ، كانت أحوال الفلاحين في المناطق التى فتحها العثمانيون في جنوب شرق أوروبا ، سيئة للغاية ، وكان مستوى معيشتهم في انحدار عام ، اذ أن توقف المواجهة العسكرية بين اوروبا والاسلام في منطقة الدانوب ، قلل من فرص المغانم والاسلاب ، المتاحة للعثمانيين ، فبدأ السباهيون في تكييف انفسهم مع قلة الدخل الناشئة من هذه الظروف الجديدة بزيادة فرص المطالب المالية والاقتصادية على الواقعين في زمام سيطرتهم • وفي كثير من الحالات نجح هولاء السباهيون في تجاوز القانون وتخريب نظام التيمار وافساده بتحويل عمراتهم الى ممتلكات تورث ، وكانت النتيجة السريعة التي نجمت عن تحويل التيمار الى ارستقراطيات وراثية ان تعرض الفلاحون في نفس الوقت لاستغلال اقتصادى بشع بكل المقاييس ، كما قلت قدرة الحكومة المركزية على الحد من فساد ملاك الأراضي وتجاوزاتهم • وكان من نتيجة هذه الاوضاع ، أن قام الفلاحون بسلسلة من الثورات ، ومن امثلة هذه الثورات — وهذا مجرد مثال — ما قام به الفلاحون حول ماريوفو Mariovo وبريلب Prilep من اضطرابات في الفترة من ١٥٦٤ الى ١٥٦٥ ، ولم تكن هذه هي الثورة الوحيدة بلا شك •

لكن علينا ألا نبالغ في استخلاص المعاني من هذه

الظواهر ، فانه ان كانت ظروف الفلاحين فى البلقان وبلاد الدانوب تحت الحكم العثمانى قد اعتراها السوء خلال القرن السادس عشر ، فان علينا ان نتذكر اوضاع الفلاحين كعبيد أرض فى معظم الدول المسيحية فى وسط وشرق أوروبا . انها أوضاع لم تكن تقل سوءا عن أوضاع الفلاحين فى ظل الحكم العثمانى ، باستثناء مناطق وسط المجر التى تعرضت لبلاء يفوق الوصف .

فثورة الماريولو — على سبيل المثال — ضد الحكم العثمانى ، قد عاصرتها تقريبا ثورات كثيرة قام بها الفلاحون في كراوتيا التي كان يحكمها الهبسبرج ، وفي سلوفانيا Slovania نشبت ثورة فلاحية أخرى فى سنة ١٥٧٣ .

ومرة أخرى فانه باستثناء المنطقة المتأثرة بالحرب والنهب في المجر — فان ادماج جنوب شرقي اوروبا في النظام العثماني بصورة مضطردة وفعالة قد عوضها عن الاضطرابات التى تقوم فى الريف من وقت لآخر بتشجيع التطور الحضرى العمرانى — على سبيل المثال — فى ازدهار مراكز تجارية جديدة وهامة ، مثل ساراجيفو Sarajevo ونوفيبازار ، كما نتج عنها زيادة فى عدد السكان بشكل عام فى الخمسينات من القرن السادس عشر .

فنادرا ما كان العثمانيون استبداديين طغاة ، رغم قسوتهم واعمالهم ، اذا ما قارناهم باوروبا المعاصرة لهم ، حيث كان الهوس الدينى والتعصب المذهبى ، بينما كان الرعايا العثمانيون في أوروبا يتمتعون بأقصى درجات التسامح الديني ، لقد كان الاسلام ينتشر ببطء في البلقان، اذ كان التحول للاسلام مرتبطا بالرغبة فى تحقيق وضعية اجتماعية أو مزايا اقتصادية ، حيث كان يعفى معتنقو الاسلام من ضرائب بعينها أو يعفون من الخدمة الحكومية الالزامية ، وكانت تلك هى الدوافع الحقيقية التى تؤتى أكلها ، أكثر من أى دعوات مخلصة للتحول للاسلام كان

يقوم عليها الحكام العثمانيون • ولم تكن هناك سياسة عثمانية فعالة لتحويل الناس للاسلام ، مما زاد من الفجوة بين الرعايا المسيحيين والحكام المسلمين ، من حيث الوعي والاحساس الديني ، ومن حيث المواقف العملية أيضا • فنقص التعاطف بين الرعايا المسيحيين ، والحكام المسلمين ، أثبت على المدى الطويل انه قدر محتوم يتصدى للأهداف العثمانية الرامية الى تأسيس كيان دائم لهم في جنوب شرق أوروبا • لقد كان انعدام التعاطف الذي اشرنا اليه بالاضافة لنقص التواصل والاحتكاك المباشر بين الحكام المسلمين ورعاياهم المسيحيين — اذ ان الطائفتين لم يكونا يجتمعان وفقا لما يقوله أحد المؤرخين الا على رذيلة only on vice — أحد عوامل خيبة الأمل العثمانية •

ان المناظر والرؤى التي تدعو للأسى ، والتي مازالت كامنة في الخيال الشعبي لشعوب البلقان المسيحية ، والتي تصور العثمانيين غزاة سفاحين متعطشين للدماء ، ما هي الا نتيجة لدعاية التي سادت يوم كانت الروح الصليبية هي الغالبة ، وكان الهبسبرج وباباوات روما هم عصب هذه الدعاية ، وقد تكرن — اي هذه الفكرة السيئة عن العثمانيين — اتجاها معاصرا للحط من شأن القرن السادس عشر ، واظهار وجهه القبيح مقارنة بالقرن التاسع عشر الذي اختلفت ظروفه عندما كانت الامبراطورية العثمانية المحتضرة تبذل جهودا يائسة لوقف تيار القومية البلقانية•

وفي المقابل فان بعض المؤرخين المحدثين ، الذين يبحثون بحق عن حكم أكثر توازنا ، ربما سمحوا لأنفسهم بالتأثر بصورة مفرطة بالأدلة التي تشير الى أن العثمانيين كانوا يستقبلون كمحررين أكثر من كونهم غزاة غاصبين •

لقد حققت الطبقات الدنيا مزايا مبدئية ، من وجهة نظرها ، الا أن التجربة الطويلة المدى التي خاضوها للذوبان في الامبراطورية العثمانية ، كانت تجربة مأسوية ، في جنوب شرق أوروبا ، ان هناك شيئا عقيما في الاستعمار

العثماني ، فالشعوب الأوروبية المفتوحة قد تقوقعت وحبست لمدة قرون ، خلال نظم اجتماعية وسياسية تنقصها الكفاءة والقدرة على التطور المستمر ولم تكن هذه النظم ولا القائمون عليها قابلين للنقد ، وقد وجدت النخبة العثمانية أنه من المستحيل احداث تقدم الا من خلال مفاهيم العنف والنقمية الشرعة • لقد ثبت هذا باختفاء العثمانيين من أوروبا ، تاركين خلفهم ميراثا من الطغيان الأخرس الصعب والظالم •

جنود الهبسبرج :

عندما استهل سليمان (القانونى) حملاته كانت الأسرات الحاكمة فى طول اوروبا وعرضها عاكفة على تقويض تطور وامتيازات المراكز الحضرية وملاك الأراضى المحليين، للتمكين لأنفسها • وفى ظل هذه الظروف ، كان معيار النجاح فى طول أوروبا وعرضها ، هو : زيادة الضرائب ، وتمشى البيروقراطية ، وانشاء جيوش محترفة مستقلة •

وكان ال هبسبرج من بين البيوتات الحاكمة فى أوروبا، ولم يكن الهبسبرج يتميزون ببطولة او ذكاء وانما تجاحهم يكمن فى عنادهم ، الذى لا يجارى ، وفى طموحهم ، الذى لا تحده آفاق ، وفى حظهم الفائق ، الذى كان ملفتا للنظر• وباعتبارهم أرقات للنمسا ، فانهم قد تدخلوا دون مواربة فى الحياة السياسية لبلاد الدانوب وبلاد الامبراطورية الرومانية المقدسة الا ان ظهور مملكة المجر الكبرى ، ظهورا مفاجئا ، مصحوبا باتجاهات عدوانية ، على يد ماتياس كورفينوس Matthias Corvinus خلال القرن الخامس عشر ، قد أيقظ الهبسبرج من حلمهم ، وآفاقهم ، ولم ينقذهم (الهبسبرج) الا نشاطهم السياسى الماهر، الذى أحال الموقف لصالحهم ، وذلك من خلال الاتفاقية التى أبرمت بين النمسا والمجر فى سنة ١٤٦٣ ، حيث تم الاتفاق على أن تؤول ملكية المجر الى الهبسبرج اذا مات الملك ماتياس دون وريث • ويبدو أن الهبسبرج كانوا يراهنون على التركيز على (الشرق) فى سياستهم الخارجية ، فمعروف

عن الهبسبرج أنهم تهازون للفرص ، تهاشون للمناسبات ، والتزامهم لمصالحهم هو الالتزام الوحيد الذى مارسوه طوال تاريخهم الطويل ٠

وفى سنة ١٤٧٧ عقدت الأسرة الحاكمة الهبسبرجية حلف المصاهرة التاريخى مع البيت الحاكم فى برجنديا كما أن الهبسبرج استمروا فى تأييد وتمويل الحزب الألمانى من بين أقطاب المجر ، واستمروا ببراعتهم المعهودة فى اصطناع الحيل ، لممارسة لعبة الزواج أو المصاهرات السياسية فى البلاط المجرى ٠ لكن أوروبا الشرقية الآن قد غدت تلعب دورا ثانويا فى حسابات الهبسبرج السياسية، لذا فقد نفروا من استخدام العنف ضد المجر ، بعد موت مليكها ماتياس كورفينوس Corvinus ـ دون وريث ـ فى سنة ١٤٩٠، عندما انتقل تاج المجر بعد موته الى الأسرة الحاكمة فى بوهيميا ، وان كان الهبسبرج قد حصلوا على تعويضات مجرية فى مناطق أخرى ، اد تحققت مطامعهم بشكل مرض عندما اقترن البيتان الموحدان الحاكمان فى كل من النمسا وبرجندى بالبيتين الحاكمين فى الأراجون وقشتالة ، وذلك بزواج فيليب البرجندى من جوانا المجنونة Joanna the mad فى سنة ١٤٩٦ ٠ وقد أدت سلسلة من الظروف لم تكن فى الحسبان الى وصول شارل ، الابن الأكبر لفيليب البرجندى وجوانا المجنونة الى عروش متعددة ، عرش الأراضى المنخفضة فى سنة ١٥٠٦ ، وعرش أسبانيا فى سنة ١٥١٦ ، وتلقب بشارل الخامس بعد أن صار امبراطورا فى سنة ١٥١٩ ٠ وهذه الأحداث المتعاقبة قد زامنت تزايد قوة العثمانيين فى شرق البحر المتوسط وفى الدانوب ، مما جعل الهبسبرج فى حالة مواجهة وتحد مع أولئك العثمانيين الذين كانوا يحرزون تقدما فى عدد من النقاط الاستراتيجية ولقد كان شارل الخامس ، باعتباره ملكا لأسبانيا ، مضطرا لأن يأخذ على عاتقه تنظيم المقاومة ضد هجمات العثمانيين البحرية على ممتلكاته الايطالية ، وعلى سواحل اسبانيا ذاتها ، كما كان باعتباره الامبراطور

الروماني المقدس ، مضطرا للقيام بدور فعال كحارس للعالم المسيحي الكاثوليكي بدرأ عنه خطر الاسلام ، وقد عهد شارل الخامس الى شقيقه الأصغر فرديناند بإرثه في بلاد النمسا ، والذى يضم دوقيات ، كارنثيا Carinthia وكارنيولا Carniola وستيريا Styria والتيرول Tyrol ، في سنة ١٥٢١ ، وذلك نظرا لانشغاله بالمشاكل والصعوبات السياسية في اسبانيا ، ولظهور الثورة اللوثرية في المانيا • وبعد أن تولى فرديناند الامر ، بفترة قليلة ، كان عليه أن يهيء لمواجهة الخطر الداهم على مصالح أسرته الحيوية في أوروبا الشرقية ، والتي كانت مهملة حتى هذه اللحظة ـ فقد أدى انهيار المجر الى أن يشتغل أرشدوق النمسا الخط الأمامي للدفاع ضد العثمانيين • وقد ادى موت ملك المجر ، لويس زوج أخت فرديناد (مارى) وشقيق زوجته (آن ، زوجة فرديناند) في معركة موهاكس Mohacs في سنة ١٥٢٦ ـ الى أن يصبح فرديناد بصورة تلقائية منافسا على التاج المجرى • وقد ادى حصار سليمان (القانونى) المحكم لفينا في سنة ١٥٢٩ ، الى احياء اهتمام أسرة الهبسبرج بمستقبل أوروبا الدانوبية •

وفي أسبانيا ، وايطاليا الأسبانية ، وشرق أوروبا ، كان على الهبسبرج أن يتحملوا عبء الدفاع عن قطاعين عريضين من مناطق الحدود الأوربية • وقد أثرت هذه الحروب المريرة بين الهبسبرج والعثمانيين تأثيرا عميقا في التطورات الحادثة في هذه المناطق وشكلت تاريخها •

ففي المجر ، تحمل فرديناند كل صعب ، اذ كان ثلثا مملكة المجر تحت السيطرة الفعلية للعثمانيين ، وكانت دعواه (دعوى فرديناند) على الثلث الباقي ، دعوى تحوطها الشكوك والريب، لوجود مرشحين منافسين ، لكن فرديناند، بعد سنة ١٥٣١ ، باعتباره حاكما للامبراطورية الرومانية المقدسة ، كان يمتلك من الامكانات المعتبره ، ما مكنه من العمل ، لاحكام قبضة الهبسبرج على هذه المقاطعات المجرية التى لم تطلها أيدى العثمانيين بعد ، والواقعة الى الشمال

الغربي ، وأن ينظم وسائل دفاعه الحدودية للحيلولة دون مزيد من الهجمات العثمانية •

ولقد أوضح شارل الخامس لأخيه فرديناند أن حاجات الامبراطورية الاسبانية وكفاحها ضد البروتستنطية في ألمانيا ، تعوق حشد الجيوش الهبسبرجية المطلوبة على جبهة شرق أوروبا • والواقع ان قوى الهبسبرج لم تحتشد حشدا كاملا الا مرة واحدة ، وذلك في سنة ١٥٣٢ عندما وقفت تدافع عن فينا لفك الحصار العثماني عنها وبصرف النظر عن هذه الحالة ، فان مساعدات الأسبان كانت مقتصرة على المشاه المحترفين من الأسبان والطليان ، ورغم قلة أعداد هذه القوات العسكرية ، الا أنها استخدمت بكفاءة واقتدار• فلقد كان انضباط هذه القوات وكفاءتها القتالية متقدما بمدى قرن من الزمان على القوات البدائية المتخلفة التي كان يقودها نبلاء أوروبا الشرقية •

لقد كانت القوات الهبسبرجية موزعة من خلال نظم دفاعية ، مكونة من قلاع او حصون صغيرة وبسيطة ، تنتظم متاريس وسدود ترابية صغيرة ، ولكنها محكمة ومسطوحة بأعواد خشبية ، وكان هؤلاء المحاربون ذوى خبرة ، وأثبتوا أنهم قادرون على تعويق القوات العثمانيه كثيرة العدد والمتفوقة ، وايقاف تقدمها •

ولقد تمكنت قوات الهبسبرج ، بشكل منتظم ، من تضييع موسم العمليات الحربية القصير على العثمانيين • الذين كانوا يضيعون وقتهم في منازلة مواقع محصنة عديمة الأهمية • لقد استطاعت قوات الهبسبرج اذن — ولمدة قرن من الزمان ان تحرم العثمانيين من تحقيق نصر حاسم يماثل الذى حققـره في الأعوام من ١٥٢٦ الى ١٥٢٩ ، فمثلا استطاعت قوات الهبسبرج في سنة ١٥٣٢ في جونز Güns من تعويق تقدم جيش تركي بقيادة سليمان القانوني نفسه مدة تزيد على الشهر ، مع انها — أى قوات الهبسبرج كانت عبارة عن حامية عسكريه لا يزيد عدد أفرادها على ٨٠٠ •

ولكي يدافع فرديناند عن حدوده الجنوبية في كرواتيا وسلافونيا جعل اعتماده مقصورا على الموارد المحلية • فمنذ سنة ١٥٣٥ دخل فرديناند في اتفاقات سنوية مع جماعات الجرينزر ، وهم سكان الحدود المختلطون دائمو التشعيد ، والرافضون لأي سلطة خارجية ، وذلك لتحاشي ما يحدث تسببه للهبسبرج من متاعب وارباكات لا تطاق • ووفقا لبنود هذه المعاهدات ، كان على الجرينزر أن يقوموا بشن حملات متصلة ضد السلطات العثمانية على الجانب الآخر من الحدود ، مقابل هبات مالية ، ومنح من الأراضي التي يستولون عليها ، يقرهم عليها الهبسبرج •

لقد كان أمن المجر ، يتوقف على الدفاع عنه ضد العثمانيين ، وكان هذا يقوم على اجراءات ادارية واجراءات عسكرية ، بنفس القدر ، خاصة وأن فرديناند قد واجه أمرا صعبا معقدا لتأكيد ولاء أهل البلاد (المجر الهبسبرجيه) للملك ، وللجهاز الاداري في فينا • فالنبلاء المجريون ـ وهم طبقة متنافرة من ملاك الاراضي، كانوا عادة مايتناحرون في صراعاتهم الداخلية ، الا انهم كانوا يقفون صفا واحدا عندما تتعرض مصالحهم الجماعية ـ فالنبالة كل لا يتجزأ وقد كانوا قوة ضاربة بجذورهم العميقة في الحكم على المستوى المحلي والمركزي ، فمجالس المقاطعات التي يديرها نبلاء المنطقة ، كانت بمثابة حكومات اقليمية منعقدة بصورة دائمة لاعتماد التشريعات اوتنفيذ السياسات وكانت تتولى مراجعة قراراتها بنفسها • ولم يجرؤ فرديناند على انتهاك هذا النظام او القضاء على مزايا هؤلاء النبلاء ، نظرا لحاجته لدعم وتاييد هؤلاء النبلاء في كفاحه ضد العثمانيين• أما على مستوى الحكومة المركزية حيث يبسط أقطاب النبلاء سيطرتهم على البرلمان والمجلس الملكي ، فقد بذل فرديناند جهدا متصلا وذكيا بهدف استيعاب المجر وضمها في اطار كيان الدولة النمسويه ، فقلص سلطات المجلس الملكي بصورة حادة ، ولم تتجوز صلاحيات الأجهزة البديلة ، اعادة توزيع الاعانات المالية التي تحدد مقاديرها الس ـ

المركزية في فينا، كما أن منصب حاكم البلاتين Palatine كان يتولاه عادة أحد كبار النبلاء ، ويجمع شاغله الوصاية على العرش والتحدث باسم النبلاء في البلاط ، هذا المنصب قد تم تجميده بصورة موقتة في سنة ١٥٢٢ ثم الغى تماما في سنة ١٥٦٢ • كما تم نزع اختصاص تجهيز جدول أعمال البرلمان المجرى (الاجنده) ليصبح من اختصاص مجلس الاعيان الامبراطورى The Geheimerat في فينا • وفي سنة ١٥٤٧ حثت السلطات الهبسبرجية البرلمان المجرى على التخلى عن حقه في انتخاب الملك ، وفي سنة ١٥٦٣ ، سمح لولى عهد فرديناند أن يتوج في حياة ابيه •

ورغم أن هذا التقدم في النفوذ الملكي ، وهذه الصلاحيات الجديدة للجهاز الادارى في فينا ، كان محدودا الا انه قد تدعم بنجاح الهبسبرج في تحقيق سيطرة ادارية وتحقيق مكاسب في مجال الضرائب الكنسية (الأعشار) المجرية ، التى كانت أكثر الضرائب العينية قدما وعمومية، وكانت هذه الضريبة تهدف بوجه خاص الى مقابلة (بمعطيه) نفقات الكنيسة ، وكانت هذه الضريبة مفروضة على كل الناس بدءا من عبيد الأرض الى النبلاء • وكان جمع هذه الضريبة خلال العصر الوسيط المتأخر يقع على عاتق صغار النبلاء ، الذين كانوا يحولونها عن هدفها الاساسى ، وهو خدمة الأغراض الدينية ، الى منافعهم الشخصية • وخلال فترة الحروب والانتصارات العثمانية من سنة ١٥٢٦ الى ١٥٢٩ ، تخلى النبلاء عن جباية هذه الضريبة للتاج، وبذلك تحول العائد من هذه الضريبة الى فرديناند وخلفائه لتدعيم القوات المسلحة التي تتولى حماية قلاع الحدود ، وذلك نظرا للحاجة الماسة للعائد من هذه الضريبة لأغراض الدفاع •

وقد ادى هذا التطور الى نتائج اجتماعية وسياسية هامة ، فمن ناحية ، وجدنا أن هيمنة الهبسبرج الادارية على مملكة المجر قد غدت قوية شديدة البأس ، كما اتسع مداها ، ومن ناحية أخرى ، فان الاستيلاء الناتج عن فرض

دفع هذه الضريبة الاجبارية ، جعل عبيد الأرض والنبلاء المجريين يتضامنون معا ، تضامنا غير متوقع ضد الحكام الهيسبرج ٠

ففي ولاية County هيفز Heves ، وجدنا في سنة ١٥٨٣ ، ستا من آلقان الارض ونبيلا ، قد اتهموا بالتهرب من هذه الضريبة متضامنين ٠ فالصراع التقليدي بين الطبقات الاجتماعيه في المجر قد خفت حدته في مواجهه الحكم النمسوى المطلق كما أن التعاون العسكرى بين الطبقات الاجتماعية ضد الغزوات العثمانية ، قد اتاح التعاون بين الفئات الاجتماعية ٠ ويمكننا ان نلخص تأثيرات الضغط العثماني على اوروبا الواقعة خلف الدانوب ، في القرن السادس عشر ، تحت ظلال الدولة العثمانيه ، في السطور التاليات ٠

كانت معارك سليمان (القانوني) الأولى الناجحه المبهرة في البلقان ، قد اجبرت الهيسبرج على اعادة النظر – بعد فترة من الاهمال النسبي – في الاحتفاظ بمصالحهم في الدانوب٠ فقد اضطر الهيسبرج الى بذل جهد كبير ببراعه فائقة لمواجهة هذه المعضلة المركبة المتمثلة في استيعاب رفات المملكة المجرية المتداعية في الكيان الاداري النمسوي، وتنظيم دفاعات الحدود بشكل يمكنها من صد مزيد من الهجمات العثمانية ، لكن رفض المجريين للخضوع المطلق لاحتواء الهيسبرج ، ورفضهم للوجود العثماني المؤثر في البلقان – قد اكد على أن حكام النمسا وجهازهم الاداري سيظلان في حالة صراع ، ولفترة طويلة ، لمواجهة هذه المعضلة ٠

فدولة الهيسبرج الجديدة هذه ، بعاصمتها فينا ، قد دخلت في حروب مستمرة مع الامبراطورية العثمانية ، كما انها تحملت مسئولية مشكلات مجرية عسيرة ، الى هذا الحد، كانت الامبراطورية النمسوية جزءا جوهريا من النظام الذي شمل دول اوروبا كلها ، حتى اندراسها (امبراطورية

النمسا) فى القرن العشرين - لقد كانت امبراطورية النمسا احدى الموجودات التى تسبب فى وجودها سليمان (القانونى) دون تعمد أو قصد ، ولم يكن الهبسبرج ، بالتأكيد ، فى حالة رضى تام ، عن القدر الذى ساهم للداوب ، فخلال القرون ، السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، كافح الهبسبرج ، ليجعلوا ألمانيا تابعة لفينا أو مرتبطة بها ، وحتى هذا المشروع ، قد انتهى بالهزيمة وخيبة الأمل ٠

انن فى البداية كان ذلك الالتزام الدائم للدفاع عن شرق أوروبا ضد العثمانيين ــ ولكن عندما بدأت قوة الأتراك فى الاضمحلال ــ كان ذلك التوجه الى الشرق الذى صار أمرا واقعا ــ الذى حدد فى نهاية المطاف هوية ومسار الدولة النمسوية ٠

الهبسبرج الاسبان والامبراطورية العثمانية :

كان تعوق الضغط العثمانى والحاحه ، على حدود الهبسبرج فى شرق اوروبا ، هو الذى صاغ تطور الأحداث وصيغ ايقاعها خلال معظم القرن السادس عشر ٠ وقد كانت تأثيرات التوسع العثمانى على ملك الهبسبرج فى أسبانيا اشد تعقيدا وصعوبة ، فحكام اسبانيا ٠٠ فى القرن السادس عشر ، قد انخرطوا فى شبكة معقدة من المشكلات والقضايا لم تكن تقل ارهاقا وازعاجا ، عن المشكلات التى سببها العثمانيون ٠ ومن هذه المشكلات ، استخراج المعادن ونقلها من امريكا الجنوبية ، ومشكلة اقماع اللوثريين واخماد حركة العصيان فى ألمانيا ، ومشكلة الصراع مع أسرة فالوا Valois الفرنسية الحاكمة ، ومشكلة اخماد ثورة الأراضى المنخفضة ، وأخيرا مشكلة الحرب مع انجلترا فى عهد اليزابيث ٠ وكان تداخل كل هذه المشاكل مع تنظيم المقاومة ضد العثمانيين يشكل قضية معقدة لحوحة ٠

لقد أدت ثلاثة عوامل ، بهبسبرج أسبانيا ، الى الصراع مع الامبراطورية العثمانية ، فى توسعها بالبحر المتوسط ، اولها ، ان شارل الخامس (١٥١٦ ــ ١٥٥٦) ، وفيليب الثاني (١٥٥٦ ــ ١٥٩٨) قد ورثا الدولة الاسبانية التى تم توحيدها منذ عهد قريب ، بزواج ايزابيلا ملكة قشتالة، من فردیناند ، ملك الأراجون ، فى سنة ١٤٦٩ ، وان كانت اهتمامات واتجاهات المملكتين المكونتين لهذا الاتحاد ، متباعدة بعضها من البعض الآخر بشكل اساسى • وكان هذا التباعد يصدق بشكل خاص على السياسة الخارجية ، حيث كان لأراجون سجل حافل في التوسع الاستعمارى فى جزائر البليار وسردينيا ومالطة ونابلى وصقلية ، بينما لم يكن لقشتالة مثل هذا التوجه • وعلى اية حال ، فان اتحاد التاجين قد مكن فردیناند من تسخير ثروة قشتالة وطاقاتها لتحقيق أغراض أراجون ولشن حرب ناجحة ضد فرنسا بهدف السيطرة على جنوب ايطاليا ، فقد كان فرديناند قد اتخذ كمبدأ لسياسة اسبانيا الخارجية ، غزو ايطاليا ، كاستراتيجية طويلة الأمد ، وورث عنه شارل الخامس هذه السياسة ، وتابعها بنجاح ، ففي الثلاثينات من القرن السادس عشر كان معظم شبه الجزيرة الايطالية فى ايدى الأسبان ، أو تحت سيطرتهم ، وخلال نفس السنوات كان العثمانيون وأساطيل شمال افريقيا تجاهد ضد العالم المسيحي ، وواصلوا هجماتهم الى درجة مرعبة ، فالبحارة العثمانيون والقراصنة (مجاهدو البحر) الجزائريون كانوا يهددون بتخليص البحر المتوسط من الوجود المسيحي ، تجارة وملاحة ، وفي هذا تهديد لممتلكات شارل الخامس الايطالية ومسئولياته فيها ، فلم يكن أمام شارل الخامس خيار ، اذن ، الا المقاومة •

ومن ناحية ثانية ، كان شارل الخامس وفيليب الثاني ، محصلة عصر الحماسة الدينية الملتهبة • فكل منهما على الرغم من مكره وقدرته على المراوغة ، كان يؤمن بصدق بأن الملك يجب أن يكون حاميا للدين الحق من الأعداء ،

وأن يحتل ذلك من مهامه مكانا رفيعا ، فقد أطلق شارل على نفسه لقب (حامل لواء الله) عندما اتخذ سبيله مبحرا من برشلونة ، ليهاجم تونس ، في حملة سنة ١٥٣٥ ، لقد كان الهبسبرج الاسبان يعكسون صورة طبق الأصل لتفاني المسلمين في الجهاد • فعندما أقدم العثمانيون وحلفاؤهم على شن الهجوم على سواحل البحرالمتوسط الوسطى والغربية، أثار ذلك حماس ملوك أسبانيا ، الذين كان تجريمهم للهجوم العثماني ذي الطابع الديني ، بمثابة رغبة حية للحفاظ على النفس ، ودافعا لقيامهم بدور كحماة للعالم المسيحي ، وأبطال مناوئين له •

ومن الناحية الثالثة ، فقد لعبت أسبانيا ، أكثر من أي دولة أوربية أخرى في القرن السادس عشر ، دور القوة الصليبية • فالممالك الأيبيرية لها تاريخ طويل في الحرب ضد المسلمين (١) لاسترجاع (استرداد) مناطقهم (٢) ففي أسبانيا كانت الصليبية تراثا مقدسا وعملا دائما ، أدى الى استيلائهم على غرناطة (٣) في سنة ١٤٩٢ • وبين عامي ١٥٠٢ و ١٥١١ لم يكف الاسبان عن ارسال التجريدات العسكرية الى سواحل المغرب • اذن ، فقد كانت المواجهة العسكرية في البر والبحر مع الامبراطورية العثمانية ، في القرن السادس عشر ، — من وجهة النظر الاسبانية — استمرارا منطقيا للنضال ضد المسلمين ، والذي بدأ منذ فترة طويلة ، ولم يكن بأي حال من الأحوال أمرا طارئا ، يمكن التخلي عنه • وقد أزكى هذه الحروب الدينية الضارية من جانب الأسبان ، أن المملكة الاسبانية كانت تضم بين جنباتها عددا من السكان المسلمين (٤) غير قليل ، وقد كان الاسبان ، قد أجبروهم — منذ فترة يسيرة — على التحول

---

(١) استخدم المؤلف كلمة Moors (المترجم) •

(٢) استخدم المؤلف تعبير المناطق التي يشغلها الكفرة Infidel – (المترجم) •

(٣) استخدم المؤلف تعبير اسقاط المملكة البربرية (المغربية) في غرناطة – (المترجم) •

(٤) استخدم المؤلف كلمة Moors وفضلنا ترجمتها بالمسلمين – (المترجم) •

للمسيحية ــ بطريقة فيها مهانة شديدة ، وكانت الحكومة الاسبانية فى خوف وهلع ، من أن يؤدى التوسع العثمانى الى تشجيع هؤلاء المسلمين على الثورة ، لهذا فقد اسرعت فى العمل ضد التوسع العثمانى • وقد سبق أن قدمنا مسببا للحروب الطويلة فى البحر المتوسط ، بين أسبانيا الهبسبرجية • والامبراطورية العثمانية •

وقد حمل هـذا الجهـد الحربى ، المجتمع والاقتصاد الاسبانيين ، اجهادات وتوترات متعددة ، فحملات شارل الخامس ضد الجزائر فى سنة ١٥٤١ ، وحملات جيان اندريا دوريا ضد جزيرة جربه Gerba فى سنة ١٥٦٠ قد قذفت بالاف الجند والبحارة ، وبسفن ضخمة ومكلفة فى سبيل هدف لا معنى له •

فقد زادت الحكومة الاسبانية من الضرائب على الطبقات الدنيا بدرجة مرهقة ، لمواجهة تكاليف المواجهة مع المسلمين ، رغم ان طبقة النبلاء ، ظلت مستثناة من هـذه الضرائب بدرجة كبيرة • لقد أضحى الفقر متوطنا فى الطبقات الدنيا الاسبانية ، وعانى الاقتصاد الاسبانى من تخريب ودمار دائمين ، بعد أن كان مزدهرا ، فتدفق كنوز أمريكا على البلاد الاسبانية فى القرن السادس عشر كان ينبغى ان يحدث تنمية اقتصادية مدهلة ومضطردة ، لـكن هـذا لم يحدث ، لان وطأة الضرائب ، قد حرمت التجار والمنتجين من العملاء ، ومنعت ــ وبشدة ــ الاستثمار فى مشاريع جديدة • فلم تكن أسبانيا أكثر القوى الاوربية ثراء ، الا من الناحية النظرية فقط ، اذ كان ثراؤها عقيما غير مجد ، اذ لم يكن لطبقات المنتجة منه نصيب ، وانما كان قصرا على غير المنتجين ، ولقد انعكست تعاسة أسبانيا وبؤسها على توابعها فى المتوسط فكثير من توابعها (مستعمراتها) كانت تقف فى الخط الأول ، فى مواجهة الحروب البحرية العثمانية ، ومع هـذا فقد حملت من الضرائب قدرا مساويا لما كان مفروضا على أهل أسبانيا

ذاتها• ففي صقلية ، وجدنا أن آخر نائبين للملك الاسباني. وهما جونزنجا ، وجوان دي فيجا Juan de Vera & Ferrante Gonzaga قدفرضا ضرائب محليــة باهظة لانفاق مردودها على الانشاءات الدفاعية الساحلية ولانشاء عشرة سفن شراعية كبيرة ودفع رواتب المشاة الاسـبان وتدريب المتطوعين المحليين ضد غارات القراصنة الجزائريين ــ وكان الطلب يزيد كلما تضاعف نجاح العثمانيين ، لقـد تحملت صقلية ضرائب غير عادية عندما ساد توقع هجوم عثماني في أعقـاب فشل الغــارة المسـيحية على جزيرة جربه في سنة ١٥٦٠ • وبالاضافة لهذا كان ثمة حاجه دائمـة للتمـون والتموينات البحرية عندما كان الأسطول يحتشد في مسينا Messina لتقديم نجدة لمالطة في سنة ١٥٦٥ • وكانت أثقل الأعباء المفروضه هي تلك التي فرضـها دون جـون Don John في النمسا ، أثناء معركة ليبانتو في سـنة ١٥٧١ ، عندما كانت صقلية هي القاعدة المتقدمة لعمليات الحلف المقدس • وفي سنة ١٥٧٣ ، احتج الرئيس الصقلي ترانوفا Terranova على فيليب الثاني لان جباية الضرائب كانت قد بلغت حدها الاقصى ، مما يعرض استقرار الحكم الاسباني في الجزيرة لمخاطر •

وبحلول عام ١٥٧٥ لم تعد صقلية قادرة على المشاركة بالمزيد ، واضطرت مدريد لدعم الموازنه الصقلية • وقد كتب الرئيس كولونا Colonna الصقلي ، في سنة ١٥٨١ رسالة توضح لنا بدقة مهندية ، كيف امكن محصـل هـذه الأعباء المتصلة بحروب البحر المتوسط ضد العثمانيين بشكل مباشر ، اذ يقول : « طوال خمس سـنوات قضيتها هنـا لم أسأل هذه المملكة ضريبة واحدة استثنائية •• لقد خفضت المصروفات العادية وفوق العـادية ، وقدمت كل ما طلبـه جلالته مني ، وخاصمت هـذا البـلاط من جانب كبير من ديونه » •

ولقد تحول الموقف بوضوح (في غير صالح العثمانيين)

منذ سنة ١٥٧٥ والتفسير الوحيد المحتمل ، لهذا التحول يمكن ارجاعه الى تقلص حجم العمليات البحرية العثمانية بحدة في الاعوام التي تلت معركة ليبانتو • وعلى هذا فقد كانت المتاعب الاقتصادية الاسبانية في كثير من جوانبها — ان لم تكن كلها — راجعة للضغط العثماني وتكاليف مقاومته الباهظة • وبنفس القدر يمكننا ان نتناول كثيرا من المشاكل الاجتماعية ، خاصة تلك التي سببها المسلمون الاسبان الذين أجبروا على التحول للمسيحية بالقوة • فقد كانت الحكومة الاسبانية — نتيجة خوفها من امتداد السيطرة العثمانية في شمال أفريقيا مضطرة لاجبار مسلمي الاندلس على التحول للمسيحية ، أو طردهم من البلاد • وطبق هذا على مسلمي قشتالة في سنة ١٥٠٢ م على مسلمي بلنسية Valencia في سنة ١٥٢٥ ثم على مسلمي اراجون في سنة ١٥٢٦ وكانت تدعم هذه السياسة ، اجهزة محاكم التفتيش المرعبة وكانت نتيجة هذه السياسة ، سيلا من اللاجئين الذين حملوا معهم امتعاضا مريرا ، وكان بغضهم للحكومة الاسبانية وما كان متوفرا لديهم من معلومات عن البلاد الاسبانية ، أحد العوامل التي زادت من غارات سكان شمال افريقيا ، والعثمانيين على السواحل الاسبانية ، وجعلتها أكثر فعالية وتأثيرا • كما كان حكام اسبانيا يواجهون لفترة طويلة ثورة سرية عنيدة قام عليها المسلمون الذين تحولوا للمسيحية في الظاهر فقط •

وفي بلنسية وآراجون ، كان المسلمون يمثلون السكان الأساسيين المنخرطين في سلك العمالة الزراعية ، حيث كانت خصوبة التربة وازدهار الصناعة — تجعلهم مصدرا مفيدا لا يقدر بثمن للارستقراطية المحلية ، لهذا كانت سياسة الحكومة في هذه المناطق تمثل احباطا للنبلاء الذين كان يهمهم بقاء القوى العاملة واعتبروها — أي القوى العاملة الاسلامية — جديرة بأن يناضلوا من أجلها • لذلك عندما نشبت ثورة المسلمين في بلنسية في سنة ١٥٢٦ رفض أصحاب الأراضي في المنطقة أن يتعاونوا مع السلطات

في قمعها ، مما حدا بمدريد الى اناطة المهمة (اخماد ثورة المسلمين) الى فرق من المشاة الألمان الذين جلبوا خصيصا لذلك الغرض ، مما أدى الى تكبد الحكومة لتكاليف باهظة • ومهما يكن فقد كانت مملكة غرناطة التي سقطت حديثا ، والتي كانت تضم عددا كبيرا من السكان المسلمين ضمن الطبقة الحاكمة قد شهدت ثورة على درجة كبيرة من الخطورة ، اذ كان المسلمون الاسبان يثورون كلما وصلتهم تقارير عن الأعمال البطولية الفائقة التي كان يقوم بها قراصنة (مجاهدو) شمال أفريقيا منذ اوائل سنة ١٥٦٠ • وقد انضم عدد كبير من المسلمين الأسبان للقوات العثمانية أثناء حصار مالطة سنة ١٥٦٥ مما سبب للاسبان متاعب كبيرة ، وكان القلق والاضطراب والشك يتفاعل في أجهزة الحكومة الاسبانية ، وقد دفعها هذا الى القسوة والوحشية البالغة في معاملة المسلمين ، وقد أدى هذا بدوره الى أن قام المسلمون الأسبان بثورة عارمة في سنة ١٥٦٨ • وبحلول عام ١٥٦٩ بلغ المتمردون المسلمون ١٥٠٫٠٠٠ وقد تزامنت هذه الأحداث مع فترة كانت الحكومة الأسبانية تعاني فيها مصاعب جمة ، فقد كانت الفرق العسكرية الرئيسية غائبة من أسبانية ، اذ كانت في الأراضي المنخفضة يقودها دوق اليا Alba ، ولم تكن القوات البحرية المعدة لخفر السواحل قادرة على قمع الثورة الاسلامية ، أو منع الامدادات القادمة للثوار من الجزائر • ولم تكن ثورة المسلمين الأسبان الا بعد معركة حريف ١٥٧٠ ، حيث قمعت القوات الاسبانية هذه الثورة بطريقة بربرية • ونتج عن انتصار الحكومة على المسلمين الثائرين ، اتخاذ ترتيبات قاسية تفوق كل تصور ، وتم ترحيل هؤلاء الأجانب غير المرغوب فيهم بشكل جماعي وقد أدى هذا الى خسائر في الأرواح كما أدى الى معاناة مريرة فقد نقل من تبقى من المسلمين قسرا من غرناطة الى الولايات الأخرى الآمنة ، مثل استريمادورا Estremadura وجليقية Galicia وقشتالة القديمة •

وقد أدى هذا الى تصدير مشاكل المسلمين الى مناطق لم تكن قد عانت منها بعد .

ونتيجة للاضطرابات التى عمت خلال الحقب الأخيرة من القرن السادس عشر ، بدل المسئولون الأسبانيون محاولات لفصل المسلمين الأندلسيين عن حلفائهم فى شمال أفريقيا ، بمنع تسهيل وصولهم الى المناطق الساحلية ، اذ تم اقصاؤهم عن منطقة الأندلس (أندلوسيا Andalusia) فى سنة ١٥٧٩ ، ومن بلنسية فى سنة ١٥٨٦ . وقد كتب مسئول حكومى أسبانى فى تقرير له « يجب أن نصتف كل المسلمين كأعداء لنا » . وقد أدت هذه الاجراءات المتسمة بالعنف الشديد والمعاملة القاسية الى تضاؤل عدد المسلمين الاسبان، واضطر عدد منهم الى ممارسة الجريمة واللصوصية، متخذينها كأسلوب حياة عادى . وأخيرا ففى سنة ١٦٠٩ أعلنت الحكومة افلاس سياستها رسميا ، وقررت طرد كل المسلمين من أسبانيا .

لقد بدا واضحا ، أن تنظيمات وترتيبات مقاومة التقدم العثمانى ، قد جعلت حكومة الهبسبرج فى أسبانيا تنخرط فى أعمال ونشاطات غير مجدية ، مما افسد الامال الكبار التى كان شارل الخامس قد عقدها على ارثه الأيبيرى منذ سنة ١٥١٦ . لقد ألقت الاتجاهات الانفصالية والتقسيمية على الصعيدين السياسى والاجتماعى ، ظلالها على قضايا أسبانيا الكبرى . لقد كان زواج فرديناند وايزابيلا ، مجرد بداية لمحاولة تحلق سائر مناطق الاقليم حول الملكية ، لكن فترة طويلة من النشاط الادارى الدؤوب كانت ضرورية لتوحيد المجتمع الاسبانى وتواؤمه معا . لقد كانت حروب البحر المتوسط الصليبية ضد العثمانيين قد أضاعت الوقت والطاقة اللازمين لهذا المشروع (توحيد أسبانيا) . لقد كانت الحكومة الاسبانية مضطرة لتقديم تنازلات أمام المصالح الأنانية والانفصالية ، لأن ضغوط ومتطلبات الحرب صرفتها عن الاهتمام بالوحدة الحقيقية .

فبقيت الوحدة مجرد واجهة كاذبة ، اذ لم تتفرغ الحكومة لمواجهة القضايا الداخلية العميقة . وفي القرن الثامن عشر، كتب موظف مدني أسباني عن بلده أسبانيا :

« انه جسم مكون من أجسام أخرى أصغر ، أجسام (كيانات) منفصلة يعادى بعضها بعضا ، وتتناقض رغبات بعضها ، رغبات بعضها الاخر ، وفي حالة حرب دائمة . وكل مؤسسة دينية ، وكل ولاية ، وكل مهنة ، منفصلة عن بقية الأمة ، ومتقوقعة على نفسها .. ان أسبانيا الحديثة يمكن اعتبارها جسدا هامدا بلا طاقة . انها كجمهورية ضخمة شاذة مكونة من جمهوريات أصغر ، يواجه بعضها بعضا ، نظرا لأن المصالح الخاصة لكل منها تناقض المصلحة العامة » .

ان أسبانيا القرن الثامن عشر ، العقيمة والمنغلقة على نفسها ، هي نتيجة الفرص الضائعة في الحقب السابقة . وليس هناك تفسير واحد لهذا الفشل المتعاقب ، ولكن كثيرا من أسباب هذا الفشل يمكن ارجاعه الى المعاناة الخانقة التي فرضت على الدولة والمجتمع الاسباني في القرن السادس عشر ، نتيجة الصراع الطويل مع الاسلام في البحر المتوسط .

ايطاليا :

لقد كان أصحاب البنوك الايطاليون ، الذين لعبوا لعبة القروض الربوية ، والعقود التجارية ، والذين أوقعوا في شراكهم كل المؤسسات التجارية — هم الموثرون الرئيسيون والمستفيدون الكبار ، والضحايا ، في بعض الأحيان — للتوسع الاستعمارى الاسباني . فقد تعرض التوسع الحضارى المتالق ، وازدهار المدن ، اللذين مازا ايطاليا في أواخر العصور الوسطى (ايطاليا النهضة) لمعاناة التخريب والدمار ، خلال بواكير القرن السادس عشر ، عندما أصبحت شبه الجزيرة الايطالية مسرح حرب للقوى الأجنبية المتصارعة ، ممثلة في فرنسا وأسبانيا والامبراطورية

الرومانية المقدسة ، ومع هـذا فقد ظلت مجموعة الدول الايطالية تشكل أكثر مجتمعات أوروبا خصوبة وحيوية •

فقد كانت المستعمرات التجارية والأراضى التابعة للجمهوريات الايطالية التجارية فى البحر الاسود والبلقان وبحر ايجه والشرق الأدنى » هى التى جعلت الايطاليين يعانون فى وقت مبكر ، وعلى نحو متعاقب ، من الاحتكاك مع الامبراطورية العثمانية المتوسعة • ففى القرن السادس عشر ، وعندما احكم العثمانيون قبضتهم على البلقان وفتحوا الشام ومصر ، وتحالفوا مع دول القرصنة فى شمال أفريقيا وظهروا كقوة بحرية عدوانية ـ غدت ايطاليا عرضة لهجمات المسلمين ، بصورة متزايدة ، وفى نفس الوقت ـ واحيانا ، بعد ذلك ـ كان جزء كبير من شبه الجزيرة الايطالية ، ممثلا فى نابلى وجنوة وميلان وصقلية ـ وقد اندرج ضمن النظام الاستعمارى الاسبانى • وكلما تصارعت الامبراطوريتان ، العثمانية والهبسبرجية ، فى البحر المتوسط ـ أصبحت ايطاليا تقف فى الخط الأول ، فى مواجهة الأعمال العدائية ، الناتجة عن هذا الصراع • لقد أصبحت البندقية وانكوناوسيينا ونابلى وجنوة ، هى أكثر النقاط حساسية وتأثرا، بالصراع الأوربى العثمانى •

وستتناول هنا الدولتين الايطاليتين ، جنوة والبندقية، كعينتين مختارتين ، لنقدم من خلالهما ، توضيحات محددة ، عن التأثير العثمانى العام، علىالنظم الاجتماعية والاقتصادية فى ايطاليا • وهما ـ أى جنوة والبندقية ـ تختلفان اختلافا بينا فى تكوينهما الداخلى وتراثهما السياسى ، عن غيرهما من الكيانات الايطالية • فحكومة البندقية كانت احتكارا خالصا لارستقراطية تجارية ذكية راسخة ، ليس من تحد يواجهه • أما جنوة فكانت مسرحا لصراع بين الأرستقراطية ـ التى كونت ثرواتها ونفوذها من خلال أعمال الصرافة والبنوك والتجارة الدولية ومن خلال ممتلكاتها ومزاياها الاقطاعية ـ والطبقة الوسطى Poplo grasso ممثلة فى الصناع والتجار •

وقد استطاعت البندقية أن تتخلص من أسوأ تأثيرات الحروب الايطالية في بواكير القرن السادس عشر وبقيت مستقلة من الدول الملكية الواقعة وراء الألب ــ وذلك بفضل سياستها (أى البندقية) الحذرة ، ولاحتفاظها بشريط خنى جامى وعريض من اليابسة ، وهو شريط محمى ، أو يمكن الدفاع عنه ، يمتد من برجامو Bergamo الى نهر ايسونزو Isonzo • أما جنوة ، فبحكم انهـا كانت مفتـاحا استراتيجيا لايطاليا ، بالنسبة لكل من فرنسـا واسبانيا ، فقد كانت ــ وبصورة دائمة ــ تحت حماية واحدة أو أخرى من هذه القوى الكبرى المتصارعة •

وقد تعرضت الدولتان (جنـوة والبندقية) للضغط العثمانى ، فقد عانت كلتاهما ، فى نفس الـوقت ، وعـلى غير رغبتهما دائما ، من النتائج المدمرة للمقاومة التى كان يقودها هبسبرج أسـبانيا ضـد العثمـانيين ، فى القرن السادس عشر •

لقد كانت الجمهوريات البحرية الايطاليـة ، قد دست أنوفها وتغلغلت بعمق ــ خلال الحروب الصليبية وبعدها ــ فى الحياة الاقتصادية ، لجنوب شرق أوروبا والبحر الاسود والشرق الأوسط • وعادة ما كانت معظم مسـتعمراتهما (جنوة والبندقية) ، فى هذه الأنحاء ، موانىء ــ ومثـال ذلك كافا Caffa المطلة على البحر الأسود ، وكانت تابعة لجنوة ــ أو جزرا ــ مثل قبرص التى كانت تديرها طبقـة مالكة من أصول ايطاليا • كمـا قام الجنـويون والبنادقة بتأسيس مستوطنات تجارية هامة لها حقوق تحميها الاتفاقات والمفاوضات ، اللائى تضمن لرعاياهما امتيازات خاصة ، اذ كانوا لا يخضعون خضوعا كاملا لقـوانين البـلاد التى يقيمون فيها ، وكانت أكثر هذه المستوطنات والتجمعـات أهمية ، هى تجمعات البنادقة فى بيروت والاسكندرية ، وحى أهل جنوة فى القسطنطينية ولقد كان التجـار الايطاليـون يشحنون البهارات ، كالفلفل الأسود والقرنفل والزنجبيل ــ

الوارد من الشرق الأقصى كما كانوا يشحنون العرير من موانىء سوريا ومصر ، ويجلبون الشبة والفواكه المجففة من أسيا الصغرى ، ويأتون بالزيت والنبيذ من جزر اليونان ، أما من أوروبا البحر الاسود ، فيجلبون الفراء والشحوم الحيوانية والأسماك المجففة والعبيد الموسميين ، وفي حالة البندقية ، فان البنادقة كانوا يجلبون الحبوب من مولداقيا (البغدان) وقاليشا (الأفلاق) ومقدونيا وقبرص •

ولقد هددت الفتوحات العثمانية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، هذه المحطات أو المراكز والمستوطنات، والتى كانت تدر أرباحا مهولة • لقد تأثرت البندقية خاصة بهذا التوسع العثمانى ، لقد كان تجارها يسيطرون على تجارة البهار ، التي وقعت مراكزها في الشرق في ايدى العثمانيين في عامى ١٥١٦/١٥١٧ • وقد كان الشرق الأوسط أكبر أسواق المنسوجات الصوفية البندقية ، ومنه ـ أى من الشرق الأوسط ـ كانت ترد للبندقية احتياجاتها من الحبوب ، ولقد أضحى الشرق الأوسط الان، (بعد ١٥١٦=١) فى حوزة العثمانيين ولمواجهة هذه المحنة ، عمدت البندقية الى تنظيم قواها البشرية وطاقاتها الادارية ، فقد كانت حكومة البندقية أكثر حكومات أوروبا مهارة فى النواحى الاقتصادية ، اذ كانت ذات باع فى أساليب التجارة والنقل والحروب البحرية والدبلوماسية ، وأعمال الجاسوسية ، لكل هذا كان رد فعل البنادقة ازاء التوسع العثمانى ، يتسم بالمكر والمرونة فى أن واحد • فلم تكن جمهورية البندقية لتجد صعوبة فى رفض رد الفعل الصليبى ضد العثمانيين فى القرن السادس عشر ، وهى التى كانت مسئولة فى بواكير القرن الثالث عشر عن انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن غرضها ، لتصبح حملة سلب ونهب على الامبراطورية البيزنطية • لقد كان نمو القوة العثمانية يشكل للبنادقة مشكلة خطيرة ولكنه لم يكن يشكل لها بالضرورة قضية صليبية ، فقد استثمر البنادقة طاقاتهم لتقديم مساعدات للعثمانيين بقصد كسب اعترافهم ، وكانوا

يعودون لممارسة نشاطاتهم وتجاراتهم في مناطق الدولة العثمانية ، اذ لم يكن وقف هذا الا لفترات - ففي سنة ١٥٣٣ ، على سبيل المثال ، عندما اعتزم السلطان مهاجمة ممتلكات شارل الخامس الايطالية ، وكان قلقا بسبب رغبته في معرفة تفاصيل عن الاستعدادات الأسبانية المضادة — استدعى بيترو زينو Pietro Zino سفير البندقية في اسطنبول ، وأسمعه هذه الكلمات :

« اكتب حالا لسيدك Your signoria ليكشف لنا عن تحركات السمك في قاع البحر ، وليعرف لنا عدد السفن التي يجهزها الأسبان في موانيهم ، أكتب حالا » •

ففي هذه الحالة ، وفي حالات أخرى ، أثبت البنادقة انهم غير عاطفيين فقد كانوا يتبادلون المعلومات ، مقابل امتيازات اقتصادية • لقد كانت واقعية البنادقة تعني اعترافا صريحا ، لا لبس فيه ولا غموض ، بأن الدبلوماسية وحدها ، غير كافية للحفاظ على وضع جمهوريتهم ، فقد يجرون — غالبا — لدخول حرب ضد العثمانيين المدواتيين • لهذا ، كانت الاستراتيجية التي تبنتها البندقية تتميز بالواقعية والحذر والعناد ، وبالرغبة في الحفاظ على المصلحة الذاتية • لقد كانت هذه الاستراتيجية ترتكز على ميدانين : أولهما ، تحصين المواقع الهامة في ممتلكاتها فيما وراء البحار ، تحصينا فعالا ، للتمكن من مقاومة حصار طويل ، وثانيهما متعلق بالحرب البحرية ، اذ فضل البنادقة الحروب القصيرة الأمد ، والحاسمة في نفس الوقت ، وذلك نظرا لفقر الجمهورية ذاتها في الموارد المادية ، مما جعلها تركز على المهارات الفنية (التقنية) والادارية كعامل فعال لاحراز نصر حاسم سريع وانطلاقا من هذا النصر السريع يمكن للدبلوماسية أن تتدخل لتحرز أكبر قدر من المكاسب والمزايا •

وقد اتضحت قيمة التحصينات الشديدة في سنة ١٥٣٧، عندما اضطر العثمانيون لرفع الحصار عن كورفو Corfu

بعد اجتياح الجزيرة ، ولكنهم فشلوا في اخضــاع القلعــة قبل بداية الشتاء • وقد فقدت البندقية يوبيا Euboea في سنة ١٤٧٠ ، ولكنها احتفظت بقبرص في سنة ١٤٨٩ ، واستعادت كريت والجزر الواقعة غرب اليونان ومستعمراتها على ساحل دلماشيا والمورة ، ولم تفقــد الا منــاطق صــغيرة لصــالح العثمــانيين في قبرص في ســنة ١٥٧٠ ، وظلت محتفظة بكريت فلم تفقدها الا سنة ١٦٦٩ بعد حصار دام ٢٤ عاما • وعندما بدأت القوى العثمانية أخيرا في التفاؤل، كان البنادقة قد استولوا على معظم المــورة وفقا لمعــاهدة كارلوفتس سنة ١٦٩٩ • وفي أواخر الثلاثينات من القرن السادس عشر ، ومرة أخرى في أواخر السبعينات من نفس القرن ، حاول البنادقة تغيير استراتيجيتهم البحرية بشــكل واضح • فقد أثار أندريا دوريا ، قادة البنادقة ، برفضه الانضمام للأسطول المتحالف ضد العثمانيين عند بريفيــزة Prevesa • وكان القادة البنادقة راغبين بانتهاز هذه الفرصة النادرة لاحراز نصر سريع على القوات العثمانية التي وان كانت كبيرة العدد ، الا أن البراعة كانت تعوزها• أما أندريا دوريا ، والذى سبق له أن اشترك في خطة دفاع طويلة الأجل ، عن ايطاليا الاسبانية وحوض البحر المتوسط الغربي ـ قد قرر ألا يخاطر بأسطوله في سبيل نصر مشكوك فيه ، خاصة وأن أسطوله كان يعد الأداة الوحيــدة الفعالة ضد القوات البحرية العثمانية وكان دوريا يرى أن هــذا النصر حتى لو تحقق فلن يمكن لأسبانيا استغلاله • ويشبه هذا الموقف ، ما حدث في آخر هذا القرن السادس عشر ، فبعد أن ساهمت البندقية بفاعليــة في النصر الذى حققه الحلف المقدس ضد العثمانيين في معركة ليبانتو سنة ١٥٧١، تزايدت رغبتها في الانسحاب من هذا الحلف ، وتم انسحابها منه فعلا في سنة ١٥٧٢ •

ومع فقدان قبرص وتأثر اقتصاد جمهورية البندقية بسبب الاتجاه الحربي • أصاب البنادقة القلق ، وشرعوا يحاولون انقاذ ما يمكن انقاذه ، اذ لم يكن البنادقة يهدفون

للدخول فى صراع طويل مضن ومكلف وهـم مفيد ، رغم وضعهم المميز وروحهم المعنوية العـالية النـاتجة عن نصر ليبانتو ، غير أن البندقية ، نادرا ما كانت قادرة عـلى وضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ بشكل قاطع ، لوقوعهـا فى دائرة الصراع الكبرى بين الأسبان والعثمـانيين • فقـد كان البندقة يعانون بشـدة من فقـدان ممتلكاتهم عنـدما يضطرون لخوض صراع ضد العثمانيين كما حدث عنـدما فقدوا قبرص فى القرن السادس عشر ، وكريت فى القرن السابع عشر ، لهـذا فان السؤال القائل : الى اى مدى ، كان انهيار البندقية الاقتصادى ، فى بواكير القرن السابع عشر، كان من نتائج التوسـع العثمانى ؟ سؤال قائم وتقليدى • لقد كان المؤرخون يرجعون أسباب هذا الانهيار للكشـوف الجغرافية ممثلة فى اكتشاف البرتغال طريق راس الرجاء الصالح المؤدى الى مراكز البهار فى الهند والشرق الأقصى • وهذا مؤكد وحقيقى ، والبراهين عليه قائمة ، اذ سببت الكشوف البرتغالية أضرارا خطيرة للبندقية خلال الحقبـة الأولى من القرن السادس عشر ، لكن هذه البراهين قد بخست قدر البندقية القـادرة عـلى الثبات والمـواجهة والتقـاط الأنفاس ، حقها • فقد شهد منتصف القرن السادس عشر احياء طرق البهار عبر الشرق الأوسط• ففى خلال الستينات من القرن السادس عشر ، تلقت الاسـكندرية شـحنات من الفلفل (لا يدفع ثمنها الا بعـد بيعها) كانت فى حجمهـا مساوية عـلى الأقل للشـحنات التى وصـلت الى لشبونة • واستمر البنادقة فى تحقيق أرباح من هذه التجارة ، ويتضح هذا اذا علمنا حقيقة أن الفونداكو the fondaco وهم جماعة تجار جنوب المانيـا ، قد أقاموا فى البندقيـة لتنظيم امداد وسط أوروبا بالبهـار وقد دفعـوا أكثر من ٤٠٠٠ر٤٠ دوكات Ducats كضرائب لجمهورية البندقية، خلال الفترة من ١٥٦١ الى ١٥٦٢ ، فى مقـابل ٠٠٠ر١٨ دوكات فقط ، ثم دفعها فى سنة ١٤٩٠ ، قبل افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح ، وهنـاك المزيد من الأدلة التى تدعم للرأى القائل بأن المؤرخين قد جنحوا الى اثبـات اضمحلال

البندقية الاقتصادى ، قبل حدوثه بحقب ، فبير سارديلا Sardella قد بين لنا انه في البندقية ، في القرن السادس عشر ، كانت صناعات بناء السفن والصناعات الخرفية وتكرير السكر والطباعة والصناعات الزجاجية ـ منتشرة ومزدهرة • كما كان سكان البندقية قد ارتفع عددهم في منحنى احصائي سليم من ١١٥٫٠٠٠ في سنة ١٥٠٩ الى ١٩٨٫٠٠٠ في سنة ١٥٦٣ • الا أنه في مطلع القرن السابع عشر صارت شواهد الاضمحلال واضحة جلية • وكان هذا مدهرا في مجال صناعه وتصدير الاقمشة الصوفية التى كان لها أهميتها الأساسية في اقتصاد البندقية • ففى سنه ١٦١٢ كتب السفير الانجليزى في البندقية يقول : « ••• وحتى بضائع هذه المدن التي جرت العادة بحملها الى سوريا قد بدأت تضمحل ، فلمدة سنوات ماضية كان متوسط التصدير الى سوريا يتراوح ما بين ٢٤٫٠٠٠ و ٢٥٫٠٠٠ حمل من المليوسات الا انه في هذه السنه الأخيرة (١٦١١) لم يصدر الا ١٥٫٠٠٠ ويعتقد انه في السنة القادمة سينحدر معدل التصدير الى ١٠٫٠٠٠ أو ١٢٫٠٠٠ ، وتقدم لنا وثائق البندقية المعاصرة لهذه الفترة تأكيدا لهذا الحكم الذى اسلفناه وتؤكد بنفس القدر أن دخول البندقية الحرب القبرصية في الأعوام من ١٥٧٠ الى ١٥٧٣ كان هو المسئول في المقام الأول عن تردى اوضاعها الاقتصادية ، فقد حرم فقدان قبرص، البندقية، من مركز هام لانتاج الغلال والنبيذ وحرمها ميناء هاما كانت ترتاده سفنها التجارية في طريقها الى الموانىء الشامية والمصرية للاستجمام والتزود • ولم يكن هذا الا واحدا من سلسلة الكوارث والنكبات التى المت بالبندقية • ففى نفس الوقت لحق البندقية ضرر بسبب اضطراب التجارة الشرقية فقد كانت هذه التجارة قد اعتراها شلل بسبب التكاليف الباهظة للتامين البحرى خلال الفترة التي كان فيها البحر المتوسط مسرحا لعمليات حربية بحرية كثيفة • وكانت طاقات وامكانات صناعة السفن في

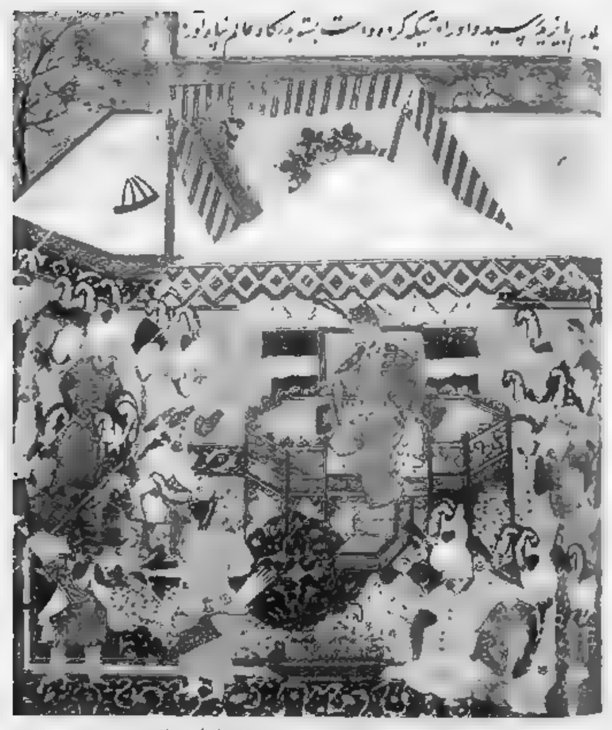
البندقية تعاني من التكاليف الباهظة التي تستنزفها ، بسبب ما كانت تقدمه هذه الدور الصناعية للاساطيل المسيحية ، من مساعدات أدت الى انتصارها في ليبانتو . وفي سنة ١٥٧٣ حمل التجار الانجليز مرة أخرى الى البحر المتوسط بعد غياب دام أكثر من عشرين سنة . وباع هؤلاء التجار الانجليز كميات كبيرة من الملابس الرخيصة ، وكانوا يمارسون التجارة مستخدمين سفنا شراعية أسرع وأكثر امنا وسعة من السفن الشراعية ذات المجاديف التي كان يستخدمها البنادقة ، مما جعلهم منافسا للبنادقة له وزنه وقيمته ، وفي سنة ١٦١٢ تم تأسيس ٢٠ مؤسسة أعمال انجليزية في اسطنبول ، بينما تضاءلت مراكز البندقية في نفس المدينة (اسطمبول) الى خمسة فقط ، وأشار المعلقون البنادقة الى ان الانجليز قد دخلوا عالم البحر المتوسط ، نظرا لأن الحروب العثمانية الاسبانية قد حفزتهم (أي الانجليز) بمطالبها اذ كان العثمانيون في حاجة الى الملابس والأطعمة والمعادن - خاصة الصفيح - لاستخدامه في صب المدافع .

وفوق كل هذا ، فانه خلال حرب قبرص ، وبعدها ، كانت سفن البندقية التجارية تتعرض لملاحقات قاسية من قبل القراصنة المسيحيين والمسلمين على السواء ، وقد كان هؤلاء القراصنة قد مدوا نشاطاتهم نتيجة الصراع العثماني الاسباني . وقد كان القراصنة جماعات غير منظمة تشن حروبا بحرية واسعة النطاق ، وهي جماعات من السهل جمعها بتكاليف يسيرة ، ومن الصعب تسريحها ، وعندما يتحقق السلام فانها تبدأ في الانقضاض على الطرف الأضعف ، ولقد كان اقتصاد البندقية دائما حساسا للغاية ازاء القرصنة ، وذلك منذ وقت باكر يعود الى سنة ١٥٠١ . فعندما وصلت أخبار مفادها أن كمالي Kemali - القرصان التركي الذائع الصيت - بدأ يمارس أعماله في بحر ايجه ، فقد أدى هذا الى ارتفاع لحظي (فوري) في تكاليف التأمين البحري ، من مجرد ٢٪ الى نسبة كبيرة هي ١٠٪ . لكن

الصراع العثماني الأسباني وحده هو الذي أنتج هذه المشكلة (القرصنة) التي تعاظمت لدرجة يصعب معهـا السـيطرة عليها ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها من الناحية الرسمية لم تتـوقف القرصـنة بل ازدادت ضراوة ، وذلك خـلال الثمانينات من القرن السادس عشر • وعلى حد قول السفير الفرنسى في البندقية في سنة ١٦٠٧ : وان هذا المكان مربوم كله بخطر القراصنة ، لكن أغلب الصناع والتجار المحليين لا يبذلون جهودا حقيقية لدرء هذا الخطر » وفي سنة ١٦١٢ أضاف زميله الانجليزى في أحد تقاريره قائلا : « ان هؤلاء السادة (حكـام البندقية) مدانون بسبب غفلتهـم وعـدم اهتمامهم بتقديم الحماية الكافية أو ارسالهم بعض السفن بهدف مواجهة القراصنة ، فهذا أمر لم يعيروه أدنى اعتبار ، كأنما فقدوا عقولهم وعزب عنهم الرأى » •

وقد جابهت سفن البندقية التجارية أقسى امتحان لهـا من قبل الجماعات المعروفة بالاسكوس Uskoi وهم لاجئون من الصرب والبوسـنة وطنهم الهبسبرج النمسـاويون فى كارتيولا ــ فقد أجبرت هجمـاتهم ، فى نهـاية المطـاف ، جمهورية البندقية على الدخول فى الحرب باهظة التكاليف التي عرفت بحرب الاسـكوس ، فى بحـر الادرياتيك ، فى السنوات من ١٦١٤ الى ١٦١٧ •

وبالطبع لم يكن انهيـار اقتصـاد البندقيـة ، نتيجة للتوسع العثماني فحسب ، كمـا لم تكن كل الأمور ناتجـة من حوادث أوائل السبعينات من القرن السادس عشر ، اذ ثمة عوامل أخرى يجب وضعها فى الحسبان ، ومن أبرزها الآثار السلبية للتشريعات المقيدة لصناعة البندقية ، فحكومة البندقية ــ فى سبيل الحيلولة دون التنـافس الاقتصـادى المدمر بين مواطنيها ، أوجدت غابة من اللـوائح والقيـود التي تعوق الاستثمار ، وتجهض الابداع والتجديد ، وعـلى هذا فمن المحال أن نهرب من النتيجة العامة التي وصل اليها المؤرخون فى عرضهم للاحداث ، والتي مؤداها أن انهيـار اقتصاد البندقية ، كظاهرة تاريخية ، كان قد أملاه وتحكم

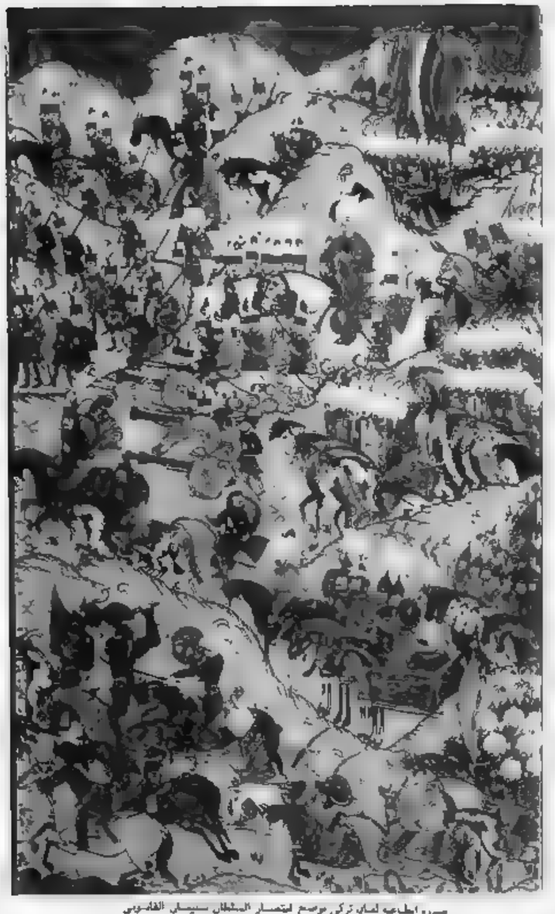


هذا الرسم الفارسي يظهر السلطان العثماني بايزيد الذي سقط أسيرا أمام الأمير تيمور

لنك وهو ... ساجدا من وجهة نظر فارسية !



استنزفت الفتوحات العثمانية المستمرة جهود الرجال وطاقاتهم . والصورة تبين بعض الجنود الانكشارية يتعرضون للغرق أثناء عبورهم نهرا (من أحد مخطوطات ـ أى مخطوطات العهد) والصورة لفنان تركى رسمها سنة ١٥٨٢



صورة اطلاعيه لفنان تركي توضح انتصار السلطان سليمان القانوني
(القاهر) على الجيش المجري في معركة موهاكس سنة ١٥٢٦



الجليد والعثمانيون في ممرات . لقد ساهمت العوامل الجغرافية والمناخية خاصة
في إيقاف الزحف العثماني في أوربا

فيه ، ذلك الانفجار الهائل الحادث فى القرن السادس عشر . ونعنى به ظهور القوة العثمانية ، ورد الفعل الاوروبى المضاد لها .

وبينما كان التوسع العثمانى يضع البندقية على طريق الخراب ، فانه – أى العدوان العثمانى – قد أدى الى ازدهار جنوة ، وان كانت هذه الحقيقة لم تكن واضحة للعيان فى بداية الأمر ، فالمراكز الجنويه فى المشرق ، كانت اسرع استسلاما للغزاة العثمانيين من مراكز البنادقة . فقد فقد الجنويون فوكيا phocaea مركز الشبه فى آسيا الصغرى – فى سنة ١٤٥٢ . ولما كان التجار الجنويون مرتبطين بالامبراطورية البيزنطية ، ارتباطا وثيقا ، سواء بعاصمتها ، أم بالمنطقة التجارية فى البحر الأسود ، لذا فقد ذهب ازدهارهم التجارى أدراج الرياح بسقوط القسطنطينية . اما كافا Caffa والموانىء الأخرى فى البحر الأسود فقد وقعت فى أيدى العثمانيين فى سنة ١٤٧٥ . وفى بحر ايجه ، فقدت جنوة كلا من أمبروس Imbros اليمنوز Lemnos وساموثراس Samothraces فى سنة ١٤٥٦ ، كما استسلمت ليسبوس Lesbos فى سنة ١٤٦٢ . وكان المركز الأمامى الوحيد المتبقى للجنويين هو جزيرة شيوز Chios الغنية ، غير أن العثمانيين قد حاصروها ونهبوها فى سنة ١٥٦٦ ، أثر غضبهم عقب هزيمتهم فى مالطة فى العام السابق (سنة ١٥٦٥) . ولم يكن للجنويين القدرة على الانسحاب على أفضل وجه ، بالطريقة التى كان البنادقة يحسنونها ، فالجمهورية الليجورية – التى شاع فيها التنافس الفردى المسعور ، فى المجالين ، التجارى والسياسى – كانت تبعا لذلك تفتقر الى رصيد الغيرة الوطنية ، الذى يمكنها التعويل عليه ، مثلها مثل البندقية . فمنذ القرن الرابع عشر ، كانت جنوة فى حالة نزاع مرير ، ناشب بين قدامى النبلاء والطبقة الوسطى Popio Grasso احرزت الفئة الأخيرة السيطرة على الحكومة منذ سنة

١٣٣٩ . وبفضل الأسرات الغنية القوية، كأسرة صولى Sauli وجستنيانى Giustiniani ـ سيطروا على تجارة مدينة جنـوة القادمة من الشرق . وخـلال القرن الخـامس عشر ، كان الأرستقراطيون يجمعون خيوط الامور الداخلية في ايديهم، كما تناقصت التجارة المشرقية تحت ضغط التوسع العثمانى، ونتيجة قيـام مصـرف (بنك) القـديس جورج للتسـليف الحكومى ، فى سنة ١٤٠٧ ، والذى هيمنت عليـه رابطـة الارستقراطيين . لقد كانت الالتزامات المتزايدة والخسائر المتوالية ، فى البحر الاسود والشرق الأوسط ، قد أغرقت حكومة الطبقة الوسطى الجنوية في مصاعب مالية مزمنة لم يكن من السهل مجابهتها الا بالتخلى عن أرض الدولة (المراكز التجارية في الخارج) وقبول رهن الأراضى مقابل القروض. وفي بواكير القرن السادس عشر ، وجدنا المراقب الفلورنسى الداهية ، نيكولو مكيافللى Niccolo Machiavelli قد لاحظ ممتى هذا التطور واقترح عـلى النبلاء ، أنهم باحتـكارهم قدرا كبيرا من السلطات الادارية ، فى فترة تكون الحـكومة فيها قد غرقت فى المشاكل الحزبية او الحربية أو أصيبت بعـدوان خارجى ، فانه من المحتمـل سـاعتها أن يقفزوا (النبلاء) للحكم ، مزيحين بذلك الطبقة الوسطى عنـه . وباختصار فان الارستقراطية الليجورية ، من خلال سيطرتها على الميزانية العامة ، تسللت مرة أخرى للنفوذ السياسى ، وعلى هذا فان الخلافات والصراعات الداخلية كانت هى السبب الأول ، لفشل جنوة ، فى مقاومة الغزو العثمانى ، مقاومة فيها حزم وتصميم وتنظيم - وثمة تفسير أبعد من هـذا ، يتمثل فى الفرص المدهشة والاستثنائية والتى تجلت أمام الجنويين فى أواخـر القرن الخامس عشر وبواكير القـرن السـادس عشر ، لتسد مسـد الخسائر التى نشـأت بسبب استيلاء العثمانيين على مستعمراتهم الشرقية فقد كان انهيار امبراطوريتهم الاستعمارية التجـارية فى البحـر الأسـود والشرق الأدنى سببا فى تكييف اقتصـاد جنـوة تكيفا كبيرا (اعادة توجيهه) بتأسيس امبراطورية تجارية ومالية فى

ممالك آيبيريا الصاعدة وملحقاتها • وفي ذروة هذا التطور خلال القرن السادس عشر ، اختلف تكوين الامبراطورية الجنوية عما كانت عليه قبل وقوع ملحقاتها ومراكزها التجارية الشرقية في يد العثمانيين ، ويكمن هذا الاختلاف في أمور ثلاثة : لقد أصبحت امبراطورية اقتصادية في الأساس ولم تعد تعتمد على ضم أراضي ، كما أصبحت تركز على الأمور المالية والعقود أكثر من تركيزها على التجارة التقليدية رغم وجود استثناءات بطبيعة الحال ، وثالث هذه الأمور أن هذه الامبراطورية الاقتصادية قامت على أكتاف الارستقراطية النيجورية التي أزاحت الطبقة الوسطى وحلت محلها ، وأصبحت هي — أي الارستقراطية الليجورية — هي الطبقة الحاكمة في سنة ١٥٢٨ •

وكلما انتعشت البرتغال خلال القرن السادس عشر كلما وجدنا ممثلين عن بيوت أعمال الارستقراطية الجنوية يتسابون الى لشبونة ، كمؤسسة (أو بيت) دوريا Doria وسنتريون Centorione وكاتانيو Cattaneo وسالفاجو Salvago وسبينولا Spinola وفي سنة ١٥٠٠ سيطروا على تجارة السكر وامتلكوا مؤسسات ومصانع للتكرير في ماديرا Madeira وأزورو Azores وصدروا عبر لشبونة ، الى جنوة ، وسوقوا في أوروبا الجنوبية والوسطى ، وفي الواقع فان الجنويين الذين أخرجوا من الشرق الادنى ، قد أصبح حالهم جيدا تماما فراحوا يغترفون من موارد أسبانيا ، ويقومون بدور في اقتصادها المزدهر •

ولقد أظهر لنا البحث في دور الوثائق الأرشيفية باشبيلية Seville كيف انهم كانوا الوسطاء الرئيسيين في التجارة بين أسبانيا والعالم الجديد خلال الفترة من ١٥٠٢ الى ١٥٢٠ ، باعتبارهم حملة الأسهم غير المعلنين في بيوت التجارة الأسبانية ، وباعتبارهم مقرضي نقود وأصحاب وكالات تأمين بحرى • وقد كانت ملحقات التاج الاسباني في البحر المتوسط ، كسردينيا والصقليتين قد أصبحت

قرض حصل سائغا في أفواه الجنويين بفضل انتشار مستوطناتهم التجارية هناك في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر • وفي اسبانيا اشتكي برلمان قشتالة ، بمجلسيه Castilian Cortes • في سنة ١٥٢٨ ، من أن السوق والحرير والصلب والصابون ، أصبحت حكرا على أهل جنوه • ولقد ازداد التوغل الاقتصادى لأهل جنوة واتسع ، في هذا العام ، عندما انفصل اندريا دوريا Doria الأدميرال الجنوى ، بأسطوله عن خدمة فرنسا ، وانضم الى خدمة الاسبان ، وفي نفس الوقت كان قد أحكم قبضته السياسية على موطنه جمهورية جنوة • لقد تدهورت موارد الطبقة الوسطى الجنويه بفقدان المستعمرات الشرقية ، ولكنها عوضت ذلك بتدعيم وتوسيع مستعمراتهم التجارية الارستقراطية نتيجة استثماراتهم فى اسبانيا • لقد كان الانحياز للأسبان أمرا فرضته رغبه الأرستقراطية الجنوية في البحث عن الحماية والامان • ولقد ادى الانقلاب الذى قام به دوريا ، الى قيام مؤسسات وتنظيمات سياسية في جمهورية جنوة ، انسجمت مع الواقعية الاقتصادية • فعندما صار استيراد الذهب من الامريكتين ، وجلبه الى اشبيليه ، كأنه المد في تدفقه ، كان ذلك يدفع التوسع الاستعمارى الأسباني بسرعة فائقة ، وهذا الامر قد أدى الى ازدياد نشاط رجال المال الجنويين في أسبانيا ، فخلال أواخر العقد الخامس من القرن السادس عشر ، فاقوا معظم منافسيهم من الألمان ومن الفلورنسيين • ففى سنة ١٥٥٨ تقدمت شركة جريمادى Grimadi بمليون سكودى ذهبى Scudi كقرض واحد للتاج الاسباني • وكانت هذه القروض ذات نسبة فائدة عالية ، تتراوح مابين ١٠و١٤٪ ، كما كانت هذه القروض تحسب كديون طويلة الأجل ، لهذا كان الدائنون يحصلون على أقاليم بأكملها كمنح ، كما كانوا يحصلون على حجج ملكية ومزايا متعلقة بالضرائب الزراعية (القبالة) اذا ما تخلف التاج عن السداد • اوفي مواجهة تلك الصفقات والتحويلات المصرفية ، كرر البرلمان الأسباني في سنة

١٥٤٢ وفي سنة ١٥٩٢ اعتراضه الذي تقدم به في سنة ١٥٢٨ ، على تطفل الجنويين على الاقتصاد الاسباني • اذ شاع على الاسبان ، بغير جدوى ، ما يساوي ٢٤ مليون دوكات ، ذهبت مباشرة للجنويين ، لاعادة دفع الديون ، وذلك وفقا لحساب جرى في سنة ١٥٩٥ ، وهذا المبلغ يساوي قيمة المعادن الثمينة الاسبانية التي تم توريدها من العالم الجديد لأسبانيا خلال السنوات الستة والاربعين السابقة على عام ١٥٩٥ •

لقد أدى توثيق العلاقات الرسمية بين جنوة وأسبانيا ، على يد دوريا ، لحاجة الاسبان الملحة للسفن الحربية الجنوية ، لتتحمل عبء الدفاع البحري ضد العثمانيين مما ادى الى فتح باب واسع أمام الجنويين ، ليمارسوا من خلاله لعبة التعاقدات البحرية ، فأسطول ايطاليا بقيادة دوريا كان هو ضمان شارل الخامس للسيطرة على شبه الجزيرة الايطالية كما كان ـ اي أسطول دوريا ـ يشكل خط الدفاع الأول عن العالم المسيحي ضد الهجوم الاسلامي • وكانت نواة هذا الأسطول سفن يمتلكها دوريا شخصيا ، ويؤجرها لأسبانيا ، لقد كان دوريا ـ اذن ـ متعاقدا بحريا معتمدا دائما وهاما ، ومالكا لاثنتي عشرة سفينة Galleys ، عندما التحق بخدمة شارل الخامس ، في سنة ١٥٢٨ ، وارتفع عدد السفن التي يمتلكها الى ٣٩ سفينة في سنة ١٥٥٢ • ولقد كانت دوره السفن هي التي تحكم ايقاع ونبض الجهود الحربية الاسبانيه ضد العثمانيين ، في البحر المتوسط ، في السنوات الوسطى من القرن السادس عشر • وكان دوريا مسئولا عن تنظيم الرحلات (الزيارات) الضرورية ، التي كان يتعين على شارل الخامس أن يقوم بها الى ايطاليا ، اذ كان دوريا يقدم السفن والبحارة ، ومجموعات زوارق الحراسة والتسهيلات في موانيء ليجوريا ـ اللازمة لهذه الزيارات ، وتعتبر رحلات (زيارات) شارل الخامس وحدها ، دليلا يوضح دور دوريا كمسئول عن ايصال المسئولين الى حيث يريدون ، بالاضافة الى رحلات الذهاب والعودة ، التي كان يعدها دوريا

لشخصيات أخرى ثانوية ، ومن هذه الرحلات (الزيارات) التي نظمها تذكر : رحلة من بالاموس Palamos الى سافونا Savona في سنة ١٥٤٩ ، ومن جنوة الى برشلونة في سنة ١٥٣٢ وفي سنة ١٥٣٦ ، ومن جنوة الى أجيوس مورتيس Aegues Mortes ومن ثم الى برشلونة في سنة ١٥٤١ ،ومن جنوة الى سبيزيا Spezia ومن ثم الى الجزائر، في سنة ١٥٤١ ، ومن برشلونة الى سافونا ، ومن ثم الى جنوة ، في سنة ١٥٤٣ ، ولقد تحملت سفن دوريا عبئا ثقيلا آخر ، ممثلا في نقل العرق العسكرية ، ففي سنة ١٥٥٠ عندما كان أسطوله مساحلا لنابلي في طريقه لمهاجمة المهدية قاعدة القرصنة في شمال افريقيا ، حمل الأسطول ٢٠٫٠٠٠ جندي أسباني ، وفي وقت لاحق ، من نفس العام، ارسل سفنه من سواحل شمال افريقيا لتحضر مدافع الحصار وتعزيزات المشاة من ايطاليا • وخلال العمليات البحرية في تراسيا Terracia في سنة ١٥٥٢ ، استولى العثمانية على سبع من سفن دوريا بما فيها من عسكر ، وفي سنة ١٥٥٩ عندما كانت التجريدة العسكرية الأسبانية تعمل ضد درغوث Draught عند جربة ، قام جيان دوريا (ابن أخ دوريا الكبير) بارسال سفنه لنقل بضعة آلاف من المشاه الألمان والطليان من جنوة الى مسينا Messina

وثمة عدد آخر من النبلاء الليجوريين ، خاصة أسرات نيجرون negrone وامبريال Imperiale وجريمالدي Grimaldi واوسوديمير Usodimare وسيجولا Cigola قد حذوا حذو دوريا في هذا المجال • فقد كان الأسطول الذي يقوده جيان أندريا دوريا في سنة ١٥٦٠ ، يضم بالاضافة الى السفن العسكرية الضخمة التابعة لعمه ، ١٢ سفينة أخرى أجرها متعاقدون جنويون •

واذا ما وضعنا في اذهاننا هذه المعلومات ــ الجديرة بالملاحظة ــ عن هذا التغلغل المالي والاقتصادي للجنويين ، لم يعد مدهشا ما نجده في التراث والآداب الاسبانية السياسية، من قدح وذم في أهل جنوة ، ووصفهم بأنهم طفيليون

مصاصو دماء ، فقد أنتج هؤلاء الطفيليون واضعفوا من استضافوهم ، ومع هذا ، فقد كان من الصعب أن يستطيع نظام الهبسبرج المتقل ان يستمر في مواجهة الهجوم العثماني دون الاستعانة بالمهارات المالية والادارية للارستقراطية الليجورية خاصة في مجال الأعمال والملاحة . فالجنويون بتخليهم عن اهتماماتهم التجارية التقليدية في شرق البحر المتوسط وفي البحر الأسود ، لصالح دورهم الجديد في خدمة الاستعمار الأسباني ، كانوا مازالوا يعملون من خلال الأوضاع التي أوجدها التوسع العثماني في القرن السادس عشر . فالخطر العثماني هو الذى أجبر ومكن شارل الخامس من احياء الأفكار الاستعمارية الأسبانية ، والتي كانت على وشك الاندراس . وكان الخطر العثماني هو الذى حدا بالجنويين الى الاتجاه للامبراطور الاسباني وخلفائه ، اذ كان ابتلاع العثمانيين لمستعمراتهم التجارية في بحر ايجة والبحر الأسود ، قد أجبر الجنويين على نقل اهتماماتهم التجارية صوب أيبيريا ، اذ أن الهجمات البحرية التي اشترك فيها العثمانيون وسكان الشمال الافريقي ضد أوروبا المطلة على البحر المتوسط ، والتي كانت — أى الهجمات — ذات بأس شديد ، والتي بدأها بربروسا في الأربعينات من القرن السادس عشر ، ووصلت ذروتها خلال الستينات من نفس القرن — هي التي جعلت رجال المال الجنويين ، يحكمون الحصار على اقتصاد أسبانيا ويوسعون دورهم فيه ، وخلال معظم فترات القرن السادس عشر ، كانت كميات الذهب الأمريكي الاسبانية ، التي كانت تعتبر ضمان عظمة أسبانيا — تشحن عادة بعد عبورها الأطلنطي ، من اشبيلية الى الأراضي المنخفضة ، ثم من أنتورب Antwerp تدور عبر أوروبا الشمالية والغربية والوسطى ، لتتم المقايضة عليها بالبضائع والخدمات التي ترسي دعائم الحكم الأسباني .

ومنذ أوائل السبعينات من القرن السادس عشر ، أصبح ثمة طريق مغاير ، يستخدم بزيادة مضطردة .

فالمعادن الأمريكية النفيسة أصبحت منـذ أوائل السبعينات من القرن السادس عشر ، تنقل عبر البحر المتوسط فى سفن من برشلونة الى جنوة ، وسرعان ما حلت المدينة الليجورية محل انتورب ، كمركز توزيع ضخم للفضة الأسبانية ، وعلى هذا فقد أصبحت جنوة (المدينة الليجورية) هى العاصـمة المالية لأوروبا ٠

وكان استخدام هذا الطريق الجديد ، مرتبطا بالحروب البحرية الكبرى فى البحر المتوسط ، فقد اتجهت معظم موارد الامبراطورية الأسبانية الى هذه الجهة ذات التكاليف الباهظة ٠ وقد جعل هذا لجنوة وضعا استراتيجيا فى مجال الاقتصاد ، ليس للامبراطورية الاسبانية فحسب ، بل بالنسـبة لسكل أوروبا المطلة على البحر المتوسط ، وقد استمر هذا الوضع الجنوى الاستراتيجى حتى بدأ فيض سبائك الذهب الاسبانية الامريكيـة ، يميـل للنضوب فى العقد الثـالث من القرن السابع عشر ٠

الوعى الاوروبى بالزحف العثمانى :

يختلف تأثير العثمانيين على أوروبيى القرن السـادس عشر ، من طبقة الى طبقة ، ومن قطر الى قطر لقد رأينـا كيف أن العثمانيين قد لاقوا ترحيبا متـلاحقا ــ باعتبارهم محررين ــ من قبل الفلاحين فى البلقان ، ومن قبل سـكان الجزر اليونانيين ، لكن ذلك يرجع الى أن هـؤلاء السـكان كانوا ينتمون الى ثقافة نصف شرقية ، وقد كانوا القوا ــ عبر الأجيال ــ قرب الامبراطورية العثمانية منهم ٠ بالاضافة الى ان سادتهم الأوربيين قد أخضعوهم لاستغلال اقتصـادى بشع ٠ ولقد كان استعدادهم لقبول الحكم العثمانى يتردد صداه فى بعض مدن ايطاليا نفسها ٠ ففى أنكونا Ancona فى سنة ١٤٨٠ ، وفى رافنا فى بداية القرن السادس عشر ، قال أحـد نـواب المدينـة للكاردينـال جيـوليو ميـدتشى Giulio Medici السـفير البـابوى (القاصد الرسـولى) :

« سيدى ! اذا ما وصل الترك الى راجوسا ، فاننا سنضع انفسنا بين أيديهم » ، لقد كان هذا ملجأ أخيرا للوطنيه فى العصور الوسطى اذا ما اضطرت لمواجهة سياسة البابوات المركزية فى عصر النهضة ٠

وبوجه عام ، فقد كان العثمانيون موضع اشمئزاز واثارة للفزع ، كلما أوغلنا غربا فى مجتمعات قلب أوروبا ، فقد أسهم تقدم جيوش العثمانيين على نحو لا يقاوم فى اثارة روح التشاؤم والخوف العميق اللذين مارا النفسية الشعبية للشعوب الأوربية فى ذلك العصر ولقد أسهمت عوامل أخرى بطبيعة الحال فى تنمية هذه الأحاسيس الكئيبة ، منها انتشار الزهرى والطاعون فى أوروبا ، بالاضافة لمناخ الحركة الاحيائية المستعرة التى كانت سببا للحركة الاصلاحية ، ونتيجة لها -

لقد صور مارتن لوثر — الذى عرف أكثر من الآخرين كيف يلعب على أوتار الخوف والفزع عند جماهير العامة — ذلك الرعب الذى كان يملأ قلوب مواطنيه الأوربيين ، فى كتاب له صدر سنة ١٥٢٩ بعنوان عظات عن الحرب ، اذ قال ان العثمانيين (الترك) يمثلون السخطة الخاتمة التى أنزلها رب غضوب على الشعوب المسيحية المتقاعسة ، وقد رأى مارتن لوثر فى العثمانيين تحقيقا لنبوءة حزقيال القائلة : « سوف ينطلق الشيطان من سجنه » كما رأى فيهم الهام القديس يوحنا : « انظروا ٠٠٠ ستجعل السيف على رقابكم ، وسآتي بأسوأ الأمم ليمتلكوا دياركم » ٠ أما فى أوروبا الشمالية والغربية ، فلم تكن المخاوف الشعبية متأصلة ، نظرا لبعد هذه المناطق وانزوائها على الرغم من أن الدعاية الصليبية لم تكن تكف عن ممارسة نشاطاتها حتى فى هذه المناطق ، وعلى أية حال فان الخطر العثمانى قد نتج عنه « فزع أعظم » بين فلاحى المانيا ووسط أوروبا ٠ وكانت ردود الفعل لدى كثير من الرجال المؤثرين وأصحاب النفوذ ، عاطفية حماسية ، فقد كان المؤلفون ورجال الدين

قد أعادوا للأذهان روح الحروب الصليبية ، واصفين العثمانيين بكل صفات ومثالب الكفار ، بل لقد أكدوا على أن الترك قوم ميئوس من هدايتهم ، ليس للمسيحية فحسب، وانما لطريق الحضارة الانسانية . لقد كتب الكاردينال بيساريون Bessarion الى دوق البندقية ، بصدد سقوط القسطنطينية قائلا : المدينة التي كانت مزدهرة ، رمز الفخامة والسناء والعظمة في الشرق .. موطن كل ماهو جيد .. هذه المدينة قد سقطت وخربت ونهبت تماما على أيدى أكثر البرابرة همجية ووحشية . حدث لها هذا على أيدى القساة غلاظ القلوب ، ذوى الطبائع الحيوانية .. وثمة أخطار كبيرة تهدد ايطاليا ـ ولن اذكر مناطق أخرى ـ اذا لم تكبح جماح الهجوم المدمر لأكثر أنواع البرابرة الهمج ضررا » .

وقد انتشرت هذه الأفكار بين العامة ، واستمرت خلال القرن السادس عشر ، بسبب حرب الدعاية الفجة التى شنها بارثولوميو جورجوفتش Bartholomew Georgevich وهو كاتب منكرواتيا، أصدر كتابا راج وانتشر، وأسماه : (الويل والثبور للمسيحى اذا وقع فى أيدى الترك كعبد أو دافع ضريبة) وقد صدر هذا الكتاب عام ١٥٤٤ ثم توالت طبعاته وبعدة لغات . ومع هذا ، كان لابد أن تظهر وجهات نظر ورؤى جديدة وهامة من خلال هذا الرفض العنيف والقاسى لكلما هو عثمانى ، فلقد تمكن كتاب العصور الوسطى ، بدون اسفاف، من تصور «حوار عالمى» وابراز، فكانوا يرون الأمر صراعا بين الاسلام فى كفة ، والقوات المشتركة للعالم المسيحى ، فى كفة أخرى . وكان « العالم المسيحى » مصطلحا لا يعنى على الدوام ، سوى تعبير عن المثل والتطلعات أكثر مما كان يعبر عن حقيقة وواقع ، فالتطورات السياسية والدينية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد افرغت ، فى خاتمة المطاف ، هذا المصطلح من محتواه . بل انه أضحى تعبيرا محرجا مضللا ، الا أن الواقعية السياسية فى شكلها البسيط ، جعلته مصطلحا ضروريا لبعض القوى

المسيحية ، كفرنسا ، أو دول التخوم في شرق أوروبا ، عند تفاوضها مع العثمانيين أو تحالفها معهم ، فالتركيز المستمر على مفهوم العالم المسيحي يعني التزاما بالعداء الكامل للكفار .

وتبقى حقيقة ، وهي أن الامبراطورية العثمانية ، كانت تبدو نوعية مختلفة عن الدول الاخرى ، فالحرب ضد العثمانيين ، كانت تعطي احساسا بأنها نوع من الصراع ، يختلف عن الحروب الأخرى التي خاضتها اوروبا ، والتي كانت اما مجرد معارك بين أسرات حاكمة على التاج او اراض أو مناطق أو بسبب تفسيرات انجيلية ، ان الحرب ضد العثمانيين وفقا لعبارة جيمس السادس ، ملك اسكتلندا ، هي حرب مرتبطة بأسباب عامة (قضية عامة) ، وقد مال لنفس الرأى ، البريكو جنتيلي Gentili وهو قانوني عاش في العصر الاليزابيثي ، فقد ناقش في كتابه De iure belli (١٥٨٨ ــ ١٥٨٩) هذه المسألة بقوله ان مجتمعات الكفار المسيحيين يؤلف بينها ترابط انساني مما يجعل الحروب بينها أمر عرضي وغير طبيعي، أما الحرب ضد العثمانيين فهي أمر أكثر من طبيعي ، لتعطشهم الدائم للعدوان ، ان لدينا أسبابا قانونية دائما لشن الحرب ضد العثمانيين » . ومهما كانت الاتصالات بين الأوربيين والعثمانيين ، فانها اتصالات أملتها الضرورات السياسية ، اذ كان العثمانيون دائما جديرين بكل شك وارتياب وعدم ثقة .

وتبقى مشكلة أو صعوبة ، وهي أنه اذا كانت فكرة العالم المسيحي قد ماتت بالفعل ، او كانت في حالة احتضار، كبؤرة تستقطب ولاء الأوربيين وتأييدهم ، ولم يبق لها وجود الا في الصلوات وافتتاحيات المعاهدات الدولية ــ فما هو الرابط الذى يجمع دول أوربا اذن ؟ ان الاجابة التي ظهرت طوال قرن كامل من الجدال والمناقشة ، تتمثل في كلمة واحدة ، انها أوروبا ، فحتى القرن الخامس عشر ،

بقيت أوروبا مصطلحا جغرافيا محايدا ، ولما زادت الهجمات العثمانية بوحشية ، بدأ خبراء القانون والسياسة البولنديون والهيسبرجيون يقترحون على حكوماتهم تبنى المقولة القائلة بأنهم لايدافعون عن مجرد حدود أوروبا ، وانما يدافعون بشكل أساسي عن القيم الأوروبية في مواجهة العدوان الاسلامي . وقد لاقت هذه الفكرة قبولا في دوائر الانسانيين والأدباء ، فالشاعران الايطاليان ، أريستو Ariosto وتاسو Tasso ، استخدما كلمة (أوروبا) للدلالة على نظام اجتماعي وقيمي موحد بنفس القدر الذى استخدماها كتعبير جغرافي ، أما ارازم Erasmus فقد ناشد أمم أوروبا — والتي لم يعد يخاطبها كقوى مسيحية متفرقة — أن تشن حربا صليبية ضد العثمانيين . أما الشاعر الفرنسي رونسارد Ronsard فيطلق لخياله العنان مقترحا في سنة ١٥٥٥ ، على الأوربيين ترك أراضي أوروبا للعثمانيين ونقل المجتمع الأوروبي بأسره الى العالم الجديد ، حيث يمكنهم — أى الأوربيين — أن يحتفظوا بقيمهم ، ويحموا تطورهم من هجمات المسلمين . هذا الانتقال من فكرة (العالم المسيحى) الى فكرة (أوروبا) هو انتقال من فكرة دينية الى أخرى علمانية . وعلى هذا فان هذا الانتقال لا يعنى نبذ الفكرة المسيحية ، فالعقيدة المسيحيه كانت ما تزال ضرورية في عيون معظم الأوروبيين لاحتفاظ أوروبا بكيانها (أو بتعبير آخر ، بدون مسيحية لا تصبح أوروبا أوربية) . ويمكننا تمثل الفكرة بوضوح بمجرد قراءة عنوان الكتاب الأول في هذه السلسلة التى صدر ضمنها كتابنا هذا ، فقد كان الموضوع الذى كتب فيه الأستاذ تريفور روبر Trevor Roper هو : قيام أوروبا المسيحية The Rise of christian Europe

لقد أدى الضغط العثماني على أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الى عملية اختبار للذات (نقد ذاتي) مما أدى بأفراد المجتمعات الأوروبية الى التحقق من ذواتهم والى تلمس الفوارق بين أنفسهم من ناحية وبين أعدائهم العثمانيين من ناحية أخرى ، وذلك

بتأكيد ميراثهم الأوروبي ، أكثر من تأكيد ميراثهم المسيحي، اذ كان ظهور حركة الاصلاح الديني من بين العوامل التي جعلت من الصعب على الأوربيين في القرن السادس عشر ، أن يقروا فكرة مؤسسات العالم المسيحي ، اذ كانت حركة الاصلاح الديني قد أدت الى تقسيم المجتمع المسيحي الى مذاهب متعددة متحاربة • فمتى كانت القوى الكاثوليكية تحت زعامة الهبسبرج تحمل لواء المقاومة ضد العثمانيين كان من المتوقع ان ينظر البروتستنط للعثمانيين كعناصر أخف وطأة وأكثر اعتدالا من الكاثوليك ، ورغم أن الادلة على أن البروتستنط قد فعلوا ذلك ـ قليلة، الا أنه من المؤكد أن اليزابيث الاولى ملكة انجلترا ، قد دخلت في علاقات دبلوماسية وثيقة مع اسطنبول ، وسبقها في ذلك في وقت مبكر من القرن السادس عشر ، اكثر ملوك فرنسا تمسكا بالمسيحية ، ونعني به فرنسيس الاول Francis I وربما كان المستشارون الدينيون للملكة الانجليزية يمثلون بصورة أفضل الموقف الدائم للبروتستنط من العثمانيين • وفي سنة ١٥٦٥ ، طلب أسقف سلسبوري ، جويل Jewel من المصلين في أسقفيته الدعاء لخلاص مالطة • وعندما وصلت الأخبار بأن الجزيرة قد تم انقاذها ، أمر أسقف كانتربري ، باركر ، بتادية صلاة الشكر • وهذا الذي فعله البروتستنط هو رد فعل متوقع ولا يدعو للدهشة • ففي سنة ١٥٢٨ على سبيل المثال ، عندما دعا لوثر ، شارل الخامس ، للاتحاد مع ألمانيا ، لشن حرب ضد العثمانيين ، فان على الباحث أن يشك في أنه لم يغب من عقل لوثر أن هذا التحالف بين اللوثريين وشارل الخامس سيصرف انتباه هذا الأخير عن اضطهاد البروتستنط • وثمة سياسي آخر عاش في عصر اليزابث ، وكان سياسيا داهية شديد المراس، وهو السير فرانسيس والسنجهام Francis Walsingham أجرى حساباته ، وخرج منها بفكرة أبعد • لقد كان والسنجهام يرى أن الصراع بين الكاثوليك والعثمانيين في البحر المتوسط ، ما هو الامعركة بين طرفي شيطان واحد،

وهو يأمل أن يذهب كلاهما ـ الكاثوليك والعثمانيون ـ في داهية (يفني بعضهم بعضا) ، ولكنه لم يعلن رأيه هذا امام الجمهور • وثمة قس اليزابيثي آخر هو السير روبرت سيسل Cecil ، كان رأيه اكثر التصاقا بالرأي البروتستنطي المقنن ، فقد قال : « لمصلحة المسيحية ، انا لست براغب في أي انتصار أو ازدهار وتنى » اما توماس فولر Fuller في القرن السابع عشر فربما كان افضل من عبر عن التآلف الطيب الذي يجمع بين المصلحة الذاتية والنفاق ـ وهو السمة المميزة لموقف البروتستنط ، فقد مدح فولر ملك اسبانيا في كتابه الذي اصدره في سنة ١٦٣٩ جاعلا عنوانا له : تاريخ الحرب المقدسة The Rise of Christian Europe اذ يقول : « نعم •• ان كل العالم المسيحي الغربي نيام مطمئنون بسبب يقظته الدائمة •• انه هو (يقصد الملك الاسباني) الذي ، بسمنه الكبيرة كمم أفواه تونس والجزائر •• نعم •• ان الله بمشيئته أمره أن يفعل هذا •• فسيادة الأمراء الكاثوليك في الجنوب والجنوب الشرقي ، قد حفظت وصانت ودافعت عن المناطق البروتستنطية » ، وقد رفض قليل من المهتمين بأمور أوروبا ، من ذوي العقول النيرة ، الانضمام الى جماعات العازفين الأوربيين ، على نغمة الخطر العثماني • وكان معظم هؤلاء من الدبلوماسيين الذين عبروا الى الحدود العثمانية ورأوا بأنفسهم ، حقيقة الدولة العثمانية ، أو من الدارسين الذين كانوا قادرين على انجاز دراسات وبحوث هادئة ونزيهة عن تطور الامبراطورية العثمانية وتكوينها ، ومن أشهر هؤلاء دي بوسبك Ogier Ghiselin De Busbecq مبعوث الامبراطورية الى اسطنبول في الفترة من ١٥٥٤ الى ١٥٦٢ ، الذي كتب باعجاب يفوق الوصف عن العسكرية العثمانية والتنظيمات الادارية في الامبراطورية العثمانية :« انه بالجدارة وحدها يرتقي الانسان في سلك الخدمة العامة •• انه نظام يؤكد أن المناصب لا تشغل الا بالكفاءة وحدها •• ان أولئك الذين عينهم السلطان في المناصب

الكبرى هم فى غالبيهم أبناء رعاة أو أصحاب ماشية ، وهم لا يعانون من اى خجل من أصولهم هذه ، بل انهم لفخورون بها بالفعل ·· انهم لا يدينون بشىء لأنسابهم ، فهم يعتقدون أن الكفاءة العالية لا دخل لها بالوراثة أو الميلاد ·· كما انهم يعتقدون أنه ليس من الضرورى أن ينحدروا من أصلاب آباء ·· أو أن يكونوا أبناء أحد ·· ولكنهم يعتقدون أنهم منحة من الله ، وأنهم نتيجة تدريبات طيبة وصناعات عظيمة وحماسة مستمرة لا تعرف الكلل ··· وعلى هذا فان الشرف والمناصب العليا والقضاء ، لا يحوزها الا من حاز كفاءة عالية وكان فى عمله متمانا ·· ان هذا هو السبب فى نجاحهم وتفوقهم على الاخرين ·· وهذا هو السبب فى أنهم — أى العثمانيين — يوسعون امبراطوريتهم يوميا ·· ان هذه ليست أفكارنا ، ففى بلادنا (أوروبا) ليس الطريق مفتوحا للكفاءة ، فالنسب والأصل هما مقياس كل شىء ، ان الشخص فى أوروبا يحقق وضعيته الاجتماعية بمجرد انتسابه · ان النسب هو المفتاح الوحيد للترقى فى مدارج الخدمة العامة » ·

ان مكيافيللى كان قد عود الأوربيين النظر الى الحرب كعلاقة طبيعية بين الدول ، ومن ثم فقد كان يمجد الروح العسكرية عند السلف ، الا أن الانسانيين الذين أتوا بعده قد خصوا التنظيمات العسكرية العثمانيه بمديح مميز · فقد كتب باولو جيوفو Paolo Giovio فى كتابه الذى عنوانه . Turcicarum Rerum Commentarius الصادر فى سنة ١٥٣٩ ، يقول :

« ان نظامهم العسكرى يتميز بالعدالة والصرامة ومن اليسير ان تدرك أنه يبز الأنظمة الاغريقية والرومانية القديمة » ·

أما الدبلوماسى الفرنسى فرنس ــ كاناى Frense — Canaye Philppe du فقد كانت نوعية الادارة المدنية العثمانية هى التى آثارت انتباهه ، لقد كتب فى كتابه الذى أسماه

(رحلة الى الشرق الأدنى (Vouyage du Levant
الصادر في سنة ١٥٧٢ عن نظام حكم السلطان قائلا :

« انه يحكم صنوفا من البشر ، متباينين في اللغة والدين والعادات ، ولكن كل امبراطوريته تبدو كأنها مدينة واحدة يسود جميع أرجائها السلام والطاعة » .

أما جين بودن Jean Bodin ففى كتابه الصادر في سنة ١٥٧٦ والذى وسمه باسم (كتب الجمهورية الستة (six books of the Republic والذى ألفه خلال الحقبة المريرة التي يمكن تسميتها بحقبة الحروب الفرنسية الدينية ، فيبدى اعجابا واحتراما شديدين بالتسامح الديني الذى يمثل شعارا عثمانيا أساسيا . كتب بودن يقول :

« ان ملك (سلطان) العثمانيين (الترك) الذى يحكم جانبا كبيرا من أوروبا ، يحمى شعائر الاديان بطريقة افضل من اى أمير في هذا العالم - أضف الى هذا أنه لا يجبر أحداً، بل على العكس انه يسمح لكل فرد أن يعيش وفقا لما يمليه ضميره . بالاضافة الى ذلك ، فانه في قصر حريمه يسمح بممارسة شعائر اديان أربعة مختلفة -- شعائر اليهودية ، وشعائر المسيحية ، وفقا لطقوس الكنيسة الرومانية ، وشعائر المسيحية وفقا لطقوس الكنيسة الاغريقية ، وشعائر الاسلام »

الا ان هذه الأقوال فيها مبالغة وتضليل ، فهؤلا الملفقون من الكتاب من أمثال بوسبك وبودن ، ربما كانوا مهتمين بدفع عجلة الاصلاح في أوطانهم ، أكثر من اهتمامهم بتقديم صورة دقيقة عن العادات العثمانية ، انهم يمثلون رغم هذا قطاعا هاما من رأى الأقلية التي ترفض ان تندرج في هذا السيل الهستيرى من الكره الموجه للعثمانيين . وكان هذا الاتجاه يظهر من خلال كتابات الباحثين عن الامبراطورية العثمانية ، لقد كانت أوروبا في القرن السادس عشر شغوفة وظمأى للمعلومات في هذا الموضوع ، أكثر من شغفها

وطمئها للمعلومات عن العالم الجديد • ففي فرنسا وحدها ظهر في الفترة من ١٤٨٠ الى ١٦٠٩ اكثر من ٨٠ كتابا عن تركيا (الدولة العثمانية) بينما لم يصدر فيها في نفس الفترة ذاتها الا ٤٠ كتابا عن الأمريكتين • ومن بين الأوروبيين الذين ساهموا في الكتابة عن العثمانيين في هذه الفترة العالم اللغوى الشهير والمستشرق الفرنسي بوستل Guillaume pistel وهو باحث عظيم رغم غرابة أطواره ، والايطالى سانسو ڤينو Sansovino في كتابه :
Historia universale del origine imperio de Turchi
الذى نشر في ڤينا في سنة ١٥٦٨ • وتعتبر كتابات بوستل وسانساڤينو ، ذات قيمة عالية • ان حب الاستطلاع الذكى الذى تجلى في مثل هذه المؤلفات ـ والتى لم يكن لها مماثل على الجانب العثمانى ، بمعنى أن العثمانيين لم يحاولوا فهم نظم أوروبا الغربية بنفس القدر الذى حاول فيه الأوروبيون فهم النظم العثمانية ـ برهن على المدى الطويل أنه خير ضمان لكفاءة أوروبا ، وخير دافع لها للثورة على العثمانيين والتغلب عليهم • ان مثل هذه الدراسات المتأنية برهنت على أنها أفضل لأوروبا من التعصب الأعمى الذى شنه رجال الدعاية ومؤلفو النشرات الرخيصة •

المتحولون عن المسيحية ، واللاجئون في رحاب الدولة العثمانية :

كل الامبراطوريات ، على نحو ما ، لها اجهزتها التى تكرس للسلب والنهب ، ولكن قليلا من تلك الأجهزة ، كانت تستطيع أن تضارع الكفاية والعزم اللذين كان يعمل بهما الجهاز العثمانى ، كما لم تستطع أى من هذه الامبراطوريات أن تنافس العثمانيين في القدرة على استيعاب العمالة والعناصر الاجنبية لقد كانت ضريبة الأطفال في البلقان ، بأفضل جنودها واداريها ، وكان الحريم السلطانى يجلب وحصلات جلب العبيد التى قام عليها تتر القرم Tartars في بولندا وأكرانيا ، تمد الامبراطورية العثمانية Crimean

من نفس المصادر ، فقد كانت زوجة سليمان القانوني الأثيرة وأم سليم الثاني من جنوب روسيا ، كما كانت محظية سليم الثاني من أسرة يونانية من كورفو Corfu وقد جذبت اسطنبول أنظار سيل المرتدين عن المسيحية ، واللاجئين القادمين من الدول الأوربية التي كانت الدولة العثمانية في حالة صراع معها ، فلم تكن ضريبة الأطفال من المناطق المهزومة ومناطق الحدود لتمد شهية العثمانيين النهمة بطلب العناصر البشرية •

وقد ركز المؤرخون على كون أوروبا القرن السادس عشر ، كانت محلية الجذور ، وكانت تجد أمانها واطمئنانها في هذه المحلية . فمن المؤكد أن غالب الفلاحين والحرفيين نادرا ما كانوا يتركون بلداتهم التي ألفوها ، لكن عدة عوامل أدت الى ظهور طبقات عديدة وافدة لا جذور لها ، طبقات دخيلة لم ترث مواقعها ولا وضعياتها الاجتماعية ، وكان أفراد هذه الطبقات على استعداد لعبور كل الحدود وتجاوزها ، الحدود العرقية ، بمعنى بعدهم عن أبناء جلدتهم ، بل وحتى الحدود الدينية ، بمعنى استعدادهم لتغيير دينهم بحثا وراء الثروة والقوة • ولقد كانت هناك عوامل عدة هي التي أدت لذلك ، منها التضخم المالي الناتج عن تدفق السبائك الذهبية الأمريكية ، والاضطهاد الديني ، وحاجة السوق للمهارات الخاصة في الطباعة والتعدين وصناعة السفن والجند (وقود الحروب) •

لقد مارس العالم العثماني تأثيرا هائلا على سائر الشعوب ، فقد كان العثمانيون يطبقون مبدأ التسامح الديني على نطاق واسع بينما كانت أوروبا تفتقر الى ذلك • وكانت النظم العسكرية والاقتصادية العثمانية تدفع برجال لا أصل لهم أو من أصول متواضعة ، بسرعة ، الى مواقع اجتماعية وسياسية متفوقة ، بينما كان هذا أمرا غير مقبول في أوروبا • وكان الموظفون المتجهون الذين يتسمون بالجرأة والجسارة ، يجدون في الامبراطورية العثمانية

مصدر كسب عظيم ومغنم كبير • ولقد ادرك المعاصرون الأوربيون ذلك ، واعتبروه سر جاذبية الدولة العثمانية فمارتن لوثر ، كان يناشد بصفة خاصة ، تلك النفر من بنى جلدته الذين وقعوا فى أسر العثمانيين بالحرب أو بالغواية ـ أن يقاوموا ويبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بدينهم ، وعدم دخول الاسلام ، على الرغم من مغريات الحياة العثمانية ، التى يعترف لوثر بصعوبة مقاومتها •

لقد كان التحول الرسمى للاسلام ضروريا للانسان الراغب فى اعتلاء سلم المجد فى الحياة العامة العثمانية ، فاذا ما اتخذ الانسان هذه الخطوة ـ أى التحول الرسمى للاسلام ـ كان ما يحصله بعد ذلك وقفا على حظه ومواهبه الطبيعية • ففى سنة ١٥٧٣ صحب النبيل الفرنسى فيليب دى فرسن كانيDu Fresne Canaye السفير فرنسيس دى نوبلى De Noailles الى اسطنبول فى وقت كانت فيه المدينة عامرة بالنشاط. فقد كان العثمانيون يكملون ترميم الأسطول الذى كان قد تلف معظمه فى معركة ليبانتو ، قبل ذلك بعامين ، وقد كان Du Fresne حاضرا استطلاع الأسطول الجديد قبل اقلاعه الى بحر ايجه ، وقد علم دى فرسن أن القائم على ترميم الأسطول كان هو الصدر الأعظم (الوزير الأول) محمد سوكولى Sokolli الذى كان مبدأ ترجع أصوله الى مسيحيى البوسنة ، أما تفاصيل انشاء الأسطول وامداده بالرجال ، فكانت من اختصاص أمير البحر (الادميرال) ucchiali الذى كان نائبا للسلطان فى الجزائر ، وعندما أبحر الأسطول كان يأتمر بأمر بيالى Piali ، وكان حسن أغا مسئولا عن الأمور المالية ، وكان أوكهيالى كالابيرى الموطن Calabrian أما بيالى فكان مجريا ، أما حسن فكان من مسيحيى البندقية وقد تحول للاسلام ، وكان ثلاثتهم من أعظم رجال العالم • ولقد التقى فرسن ومرافقوه ، فى أثناء عودتهم بعدد من تاركى المسيحية ، ممن كانوا فى أوضاع اجتماعية أقل من أوضاع بيالى ، وحسن أغا وأوكهيالى ، وقد قامت حامية عثمانية باحتجاز فرسن ومرافقيه عند جاليبولى Gallipoli

ولكن أسبانيا متحولا للاسلام كان يعمل سباهيا تمكن من تخليصهم من أيدى رتل من الموظفين العثمانيين الفاسدين ، في مقابل رشوة مجزية .

والواقع أن الانتقال للجانب العثماني ، لا يعني بالضرورة نهاية اتصال الانسان بوطنه الاصلي ، فالمراسلات المحفوظة بأرشيفات الدولة في جنوة ـ وهي المراسلات الخاصة بباتريستا فراري Batrista Ferrari ممثل جمهورية البندقية في اسطنبول ، في الفترة من ١٥٦٢ الى ١٥٦٧ تتضمن تقارير مفصلة عن النشاط السياسي العثماني واستعداداتهم البحرية كان قد أرسلها موكات اغا Mocat Aga ومصطفى ريس و Ferrato Beij ، وثلاثتهم جنويون تركوا المسيحية وتحولوا للاسلام ، وكانوا يعملون في خدمة السلطان ، وقد عاد بعض تاركي المسيحية الى أوروبا ، بعد فترة قضوها في ركاب الدولة العثمانية نالوا فيها جوائز ورواتب . وعندما قام المؤرخ الايطالي باولو جيوفيو Paulo Giovio بتصنيف كتابه عن تاريخ العثمانيين ، والذى حقق شهرة كبيرة في القرن السادس عشر ، فقد كان جل اعتماده على المادة التي استقاها من عائدين كانوا في خدمة العثمانيين واعتنقوا الاسلام ، ثم عادوا لأوروبا وارتدوا الى المسيحية كرة أخرى . فعلى سبيل المثال قدم الايطالي ميناڤينو Minavino ـ والذى كان يعمل وصيفا في خدمة السلطان بايزيد ، معلومات عن ظروف الايام الأخيرة التي كان بايزيد يعاني فيها سكرات الموت في سنة ١٥١٢ ـ لباولو جيوفيو Giovio ، كما كانت معلومات جيوفيو عن حصار جرين Gran في المجر في سنة ١٥٤٣ مستقاة من مناقشاته مع أربعة أسبان كانوا قد تركوا المسيحية والتحقوا بالجيش العثماني ، ولكنهم هربوا من الخدمة وهم في مواجهة الحصن .

أما اللاجئون فيمثلون نوعا آخر من الهجرة الأوروبية للمجتمع العثماني ، فهناك اللاجئون من المسلمين الأسبان

الذين كانوا قد أجبروا على التحول للمسيحية وقد نزحوا بأعداد غير قليلة الى ممالك القرصنة في شمال أفريقيا ، ولـكن أكثر جمـاعات اللاجئين أهميـة كانـوا هم اليهود الأيبريون • وسيرة واحد من هؤلاء اللاجئين اليهود الايبيريين تستحق أن نتابعها ، ونعني به يوسف ناسي Nasi فسيرته تثبت بصورة واضحة ، ما يمـكن أن يصـل اليـه الأجنبي ذو الموهبـة والطمـوح ، من درجة عالية ، في ظل الدولة العثمانية • ان التعصب الأعمى الذى مارسه المسيحيون في أيبيريا تجلى واضحا في أواخر القرن الخامس عشر في سياسة طرد غير المسيحيين أو تحويلهم للمسيحية قسرا ، لقد ولد ناسي حوالى سنة ١٥٢٠ من أسرة يهودية تمارس التجارة والتطبيب وطـردت أسرته من أسـبانيا في سـنة ١٤٩٢ ، وأجبرت على التحول للمسيحية وترك اليهودية في لشبونة في سنة ١٤٩٧ ، وكان لانشاء محاكم التفتيش في البرتغال في سنة ١٥٣٦ أثره في أن قررت جراسيا ناسي Gracia Nasi وكانت أرملة تأتمر الأسرة بأمرها ـ أن ترتحل بالأسرة كلها بما فيها يوسف ـ ابن أخيها وزوج ابنتها فيما بعد ـ الى انتورب Antewerp ، وقد أصبح يوسـف ثريا ورجـل أعمال محترما ومشهورا ، يلقى الترحاب في بلاط فرنسـا ومجتمعاتها ، وفي بلاط الهبسبرج في الأراضى المنخفضة ، وفي ايطاليا ، وجعله شارل الخامس فارسـا ، واصـطفاه صديقا لابن أخيه ـ الذى صار امبراطورا فيما بعد باسم مكسمليان الثانى • ولما كان اعتناق يوسـف ناسي وأسرته للمسيحية أمرا شكليا وغير حقيقي ، ولما تزايدت الشـكوك حول حقيقة مسيحيته ومسيحية أسرته ، اضطروا للهجرة الى البندقية في سنة ١٥٤٤ ، ومن البندقيـة انتقـل الى فرارا Ferrara في سنة ١٥٥٢ وأخيرا اتخـذ سبيله الى اسـطنبول في سـنة ١٥٥٣ هاربا من الاضـطهاد • وفي اسطنبول ، سرعان ما عاد الى دينه (اليهودية) وأعلن ذلك على الملأ في سنة ١٥٥٤ • وفي الاعوام التالية أصبح تاجرا مشهورا ، خاصة في مجال تجارة النبيذ ، كما كان مستشارا

سياسيا يحظى بالثقة في الدوائر الحكومية العثمانية ، ونصيرا سخيا للدوائر الأدبية العبرية في اسطنبول وسالونيك ، وتشير اليه الوثائق العثمانية لذلك الوقت باسم فرنك بك اوغلو Frank Bey oglu (ويعني الأمير الافرنجي) • وكان بالنسبة لسكان اسطنبول ، هو (اليهودي الكبير) وقد فتح له باب التأثير والسلطة واسعا ، عندما تولى صديقه سليم الثاني عرش السلطنة في سنة ١٥٦٦ • وقد عينه سليم الثاني دوقا على ناكسوس Naxos وجعلها له اقطاعا خالصا يورث ، وناكسوس هذه تتكون من ١٢ جزيرة في بحر ايجه، ولها أهمية تجارية كبيرة ، وأهميةاستراتيجية على نحو ما • وقد بنى يوسف ناسي شبكة من الاتصالات السياسية والتجارية في بولندا ومولدافيا (البغدان) وفاليشيا (الأفلاق) ووهبه السلطان سليم الثاني حق احتكار توريد الخمور الى اسطنبول • وكان يوسف ــ في البلاط العثماني ــ عضوا بارزا في الحزب المنادي بالحرب ، مؤيدا الاستمرار في سياسة خير الدين بربروسا ، داعيا باستمرار للكراهية والعداء لكل القوى الكاثوليكية فيالبحر المتوسط• وكان يوسف ناسي يرنو الى تاج قبرص عندما دخلتها القوات العثمانية في سنة ١٥٧٠ وقد قل تأثير يوسف ناسي بعد نهاية السلام مع البندقية في سنة ١٥٧٣ ، وبعد موت سليم الثاني في سنة ١٥٧٤ ، فانعزل وعاش مغمورا ــ كما يقول جامع سيرته سيسل روث Roth ــ في قصره في بلفدير Belvedere على البسفور • وسرعان ما حل محله في البلاط العثماني ــ يهودي آخر ، اشتغل بالأعمال والتجارة والسياسة الخارجية ــ وهو يهودي من أصل الماني، كان مثل يوسف ناسي لاجئا وهو سولومون ناثان اشكنازي Soloman Nathan Ashkenazi الذي يشير له الحوليون العثمانيون باسم الأمان أوغلو (أوغلو الألماني) (١) • وعلى أية حال ، فان التعاطف العثماني مع اللاجئين اليهود القادمين من أوروبا ، كان قد بدأ يقل ، وان كانت أبواب

(١) كذا في النص ، والصحيح ابن الألماني (المترجم) •

التقدم ظلت مفتوحة بالنسبة لبعضهم ، وان كان التعصب المتشنج الذى كان يهب أحيانا ضد اليهود فى الدولة العثمانية ، جعل حياتهم فى ظلها أقل أمنا من ذى قبل ، لقد كانت سطوة اليهود وهيمنتهم تعتمد على ميزتين جلبوها معهم الى اسطنبول: الاتصالات المستمرة بالاصدقاء وعلاقاتهم ووكالاتهم التجارية المنتشرة فى أوروبا ، مما جعلهم مصدرا فريدا للمعلومات اللازمة للمعارك العثمانية ضد الاسبان، بالاضافة لامتلاكهم مهارات فنية (تقنيـة) وماليـة كانت نادرة فى المجتمع العثمانى ، بل كانت ضرورية لاستمرار الجهاز الادارى ، كثير الأعباء ، لهذه الامبراطورية العظمى وكلما مرت السنون ، قل اتصال يهـود الدولة العثمانيـة بأوروبا ، وبالتالى أضحت معلوماتهم أقل دقة ، وفى نفس الوقت ، وجدنا فى المدن الكبيرة وفى المـراكز الزراعيـة العثمانية ، تجارا يونانيين ــ وهم من المسيحيين الأرثوذكس ــ قد تحدوا احتكار اليهود للاعمال البنكية والمصرفية وأعمال التسليف وذلك خلال القرن السابع عشر ، ومن هنا أصبح المجتمع اليهودى فى الدولة العثمانية ، يشكل مرتبة ثانوية اذ أصبح اليهود حرفيين وأصحاب محلات تجارية ومرابين ومسلفين بالرهن، وأطباء ، أما شعوب البلقان، فقد احتفظت لنفسها بعدة مهارات مما جعل لهم دورا فى الدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، شبيها بالدور الذى لعبه فى نفس الفترة ، أهل جنوه بالنسبة لأسبانيا ، سـواء فى الحيـاة الاقتصـادية أم فى العمليـات البحرية الأسبانية فى البحر المتوسط .

الفصل الخامس

بداية النهاية

كان استغراق القوى الأوربية ، في صراعات بين الأسرات الحاكمة من ناحية ، وصراعات دينية من ناحية أخرى ، في النصف الأول من القرن السادس عشر — قد أسهم ، بلا شك ، في انجاح الغزو العثماني ، الذي كان مذهلا (دراماتيكى) وواسع المدى ·

وفي المقابل ، كان نجاح الأوربيين في ايقاف بعض المد العثماني واحراز بعض النجاح خلال منتصف القرن — مما ساعد على ايجاد توازن استراتيجي بين العثمانيين والهبسبرج في منطقة الدانوب بعد معركة سليمان (القانوني) الأخيرة في المجر — ناتجا عن أن سلام أوجز برج في سنة ١٥٥٥ قد أوقف صراعا دينيا مريرا دام حوالى أربعين سنة في الامبراطورية الرومانية المقدسة ، كما أن معاهدة كاتو كمبرسيس في سنة ١٥٥٩ قد أنهت صراعا طويلا بين الهبسبرج وأسرة الفلوا المالكة في فرنسا ، كما أصبح الهبسبرج النمساويون قادرين على تكريس وقت أكثر وموارد أضخم للدفاع عن حدود شرق أوروبا ودرء الخطر العثماني عنها ، اذ تخلصوا من ورطتين كبيرتين على الأقل في القرن السادس عشر بفضل استعداداتهم وتنظيماتهم ·

غير أنه في العقد الثاني من القرن السابع عشر ، عادت ألمانيا وأوروبا الوسطى لخلافاتها السياسية والدينية القديمة ، وبلغت ذروة هذه الخلافات في سنة ١٦١٨ التي

شهدت اشتعال حرب الثلاثين عاما • وقد حـذر معـاصرون كثيرون من ان هذه الاضطرابات الناشئة بين الأوربيين ، قد تؤدي لتكرار المتاعب في اكثر منـاطق اوروبا حسـاسية وتعرضا للمواجهة، والتي كانت تشمل الصرب والامبراطورية البيزنطية ومملكة المجر طـوال قرون خلت ، خاصـة وان الجيوش العثمانية تتقدم الآن صوب قلب أوروبا • ولـكن سرعان ما تبددت هذه المخاوف فالاضطرابات في المانيا قد تزامنت مع تركيز الدولة العثمانية عـلى أمورها الداخلية التي كان من الصعوبة بمكان جعل العثمانيين ينهمكون فيها، مما جعلهم غـير قادرين عـلى استثمار الوضع المضطرب في ألمانيا ، اما الآمال الأوربية في أن تكـون الامبراطـورية العثمانية قد تفسخت وأن يكون عصر العدوان العثماني في أيامه الأخيرة فقـد اتضح أنها امال مبالغ فيها فرجال الدولة العثمانية ذوو القدرات الهائلة والذكاء البـاهر ، كانـوا ما يزالون قادرين على ايقاف التدهور وتأخير السقوط ، فقد شهدت السنوات الوسطى من القرن السابع عشر ، علامات دالة على تجديد الدولة العثمانية واستئناف التقدم العثماني، ففي سنة ١٦٧٦ امتدت الحدود العثمانية في أوروبا أكثر من أي وقت آخر• وفي سنة ١٦٨٣ حاصرت القوات العثمانية فيينا للمرة الثانية ، الا أن هـذه النجـاحات كانت جزئيـة عابرة • لقد كان التفاؤل الأوروبي (فيما يتعلق بتفكك الدولة العثمانية وانهيارها) سابقا لأوانه ، وان كان قد تحقق عـلى المدى الطـويل • فعلى اثر تقهقرهم عن فيينا ، تعرض العثمانيون لسـلسلة من الهـزائم العسـكرية أمام الامبراطورية في المجر وصربيا والبوسنة ، وأمام البنادقة في دلماشيا والمورة • وفي معركة زنتا Zenta في سنة ١٦٩٧ ، كان العثمانيون مضطرين للتوسل ــ بكل ما في الكلمة من معنى ــ للحصول على السـلام ، وكان عليهم ان يقبلوا بنودا صعبة في معاهدة كارلوفتس في سنة ١٦٩٩ • وقد ظلت الامبراطورية العثمانية قوة كبرى في أوروبا ، وظلت محتفظة بمناطق على طول الدانوب الأدنى تمتد من

مصبه على البحر الاسود متابعة مجراه حتى التقائه بدرافا Drava شمال بلجراد • وقد دافع العثمانيون عن هذه الممتلكات بجسارة ، لكن موجة الفتوحات العثمانية الأولى كانت قد انكسرت وخمدت • وهكذا تقلص الصراع العالمي بين الشرق والغرب ، وتدنى الى أن أصبح مجرد مشكل ، وهو مشكل المسألة الشرقية •

أسباب الأفول :

لم يعد لائقا بالمؤرخين أن يركزوا على أهمية شخصية الانسان الفرد في العملية التاريخية • فهذا الكتاب بتركيزه على العوامل الاجتماعية في تفاعلاتها ودورها ، فانه بوجه عام يتمشى مع العرف الحديث • ومع هذا فليس ثمة تحليل وتعليل لعدم الكفاءة العثمانية بعد موت سليمان والى منتصف القرن السابع عشر الا أن السلاطين العثمانيين بعد سليمان كانت كفاءاتهم الشخصية في انحدار دائم ، فبعد سليمان (القانوني) مباشرة ، تولى سليم الثاني (السكير) وهو نموذج يبين لنا ميل سلاطين آل عثمان الذين أتوا بعد سليمان ـ للاعتكاف عند الحريم والشغف بين ومخالطة تلك الجماعة الشاذة المتحلقة حول السلطان في بلاطه السلطاني ، فنادرا ما كان سلاطين القرن السابع عشر يتعبون للمعارك ، وحتى عندما كانوا يفعلون ذلك ، فان قيادتهم تكون مسألة زينة وتشريف• ان سليمان وأسلافه العظماء كانوا يمارسون عنفا يمكن وصفه بأنه عنف مشروع • أما الحكام الذين أعقبوا سليمان فقد أطلقوا العنان لشهواتهم وأهوائهم ، وكانت تصرفاتهم وتحركاتهم تتسم بالتقلب واتباع الهوى والنزوات ، فكان عنفهم مبتذلا كعنف نيرون ولم يكن عنف الحزم كعنف يوليوس قيصر • وبعض سلاطين القرن السابع عشر كانوا سذجا مثل السلطان مصطفى ، الذى عزل مرتين بسبب بلاهته وحماقته البالغة مرة في عام ١٦١٨ وأخرى عام ١٦٢٢ ، والسلطان ابراهيم الأول (١٦٤٤ ـ ١٦٤٨) وحتى مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) الذى كان حاكما مؤثرا ، فقد ترك انطباعا بأنه

حاكم منفلت ، لا يحسن توجيه طاقاته ، ولم يكن يتمتع برؤية واضحة ، ولم يكن يسخر سلطانه لاعتبارات سياسية بعيدة المدى ، وهذا القصور الذى اعترى الكفاءات الشخصية للسلاطين ـ والذى كان واضحا بحيث لا يمكن لأحد انكاره ـ لم يكن من الضرورى لو كانت ظروف الامبراطورية العثمانية مواتية أن يفضى الى تبديل فى شخصية الامبراطورية ويؤثر على فعالياتها • أما فى أوروبا فقد كان نمو البيروقراطية (الأجهزة الادارية) قد مكن الدولة كثيرا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، من أن تستمر وتبقى ، متجاوزة عدم توازن الملوك ، الذى ينتج عنه عواقب وخيمة ، فقد كانت هذه الأجهزة قادرة على تجاوز تصرفات هؤلاء الحكام غير المتوازنين ، حتى لو كانوا مجانين أو قاصرين ، وقد كان توسع البيروقراطية العثمانية ونموها ، متوازيا مع بيروقراطية القوى الأوربية ، مع وجود فارق واحد هام • لقد كتب المراقب الهولندى ريكوت Rycaut « اذا تأمل الانسان نسيج (تكوين) الحكومة العثمانية ككل فسيجدها مصنعا للرقيق ، فقد كان مما يدعو للدهشة أن تجد من بين أفراد الجهاز الحكومى من ولد متحرر الروح مبدعا » ، وقد أدى اهتمام السلطة المركزية بالرق وجعله أساس النظام العثمانى العسكرى والادارى الى أن كان السلطان يجمع بين يديه صلاحيات ومسئوليات وسلطات عديدة فيما يتعلق بصنع القرار واتخاذه • فقد كان الوزير الأول (الصدر الأعظم) لا يزال صنيعة للسلطان ، حتى عندما كان الوزير الأول يرتب لاغتيال حاكم (سلطان) غير كفء ، فانه يكون فى نفس الوقت تحت رحمة السلطان الذى يتولى بعد السلطان المعزول، لقد كانت الامبراطورية العثمانية ـ تعتمد الى حد كبير جدا ـ أكثر من أى دولة أخرى معاصرة لها ـ فى نشاطاتها وتوجيهاتها على كفاءة الحاكم (السلطان) فى ممارسة ـ أو تمثيل ـ السلطة والحكم • ونادرا ما كان هذا الأمر متاحا (كفاءة الحكام) فى النصف الأول من القرن السابع عشر

لكن اللدد في الخصومة والامعان في المداء ، البادين في حكم وايكوت السالف آنذكر لا يمنعاننا من الاعتراف بالأمور الواضحة التي يمكن ادراكها بالحس • فقد كان كثيرون من المسئولين العثمانيين في أوائل القرن السابع عشر يحسون بأن هناك شيئا ما خطيرا يجرى على غير مايجب ، ولم يكن هناك من هو قادر على تقديم تحليل عميق يصل لأعماق الوضع • ولم يكن هذا لقصور في الجهد ، اذ أن مرادا الرابع تلقى من القاضي المسلم المشهور خوجه بك Khodja Beg مذكرة عن أسباب التدهور ، واذا ما قارنا مذكرة خوجه بك هذه بالانتاج الفكرى السياسي المتسم بالبحث والتعمق العقلي ، والذى أفرزته عقول أوربا في نفس الفترة الزمنية ، ألفيناها مذكرة تدعو للاشفاق والأسى • فلم تكن هذه المذكرة التي تقدم بها هذا القاضي المسلم • اكثر من قائمة بملاحظات سطحية • وعلى أية حال، فهذه الرسالة (المذكرة) تمد برهانا تاريخيا هاما ، وما هو جدير بالملاحظة أن هذه المذكرة لاتقدم برنامجا اصلاحيا ، وانما تطالب يبعث جديد regeneration ولاتطالب بتجديد innovation وانما تطالب بالعودة الى الممارسات التقليدية بنقائها في أصولها الأولى (١) • لقد خضعت الطبقة الحاكمة العثمانية المتحجرة للأمر الواقع رغبة منها في الحفاظ على بقائها ، وتخلت عن المقاومة — لتواجه الحقيقة الصعبة ، التي يصعب تجاهلها ، وهي أنهم ما عادوا يسيطرون على الأحداث بنفس المقدرة التي كان أسلافهم في القرن السادس عشر ، يسيطرون بها عليها • ان أى تفسير مقنع للتاريخ العثماني في القرن السابع عشر يجب أن يقدم لنا بعض التوضيح لهذا التغير النفسى (السيكلوجى) الذى حاق بالطبقة الحاكمة • فكل حشد الأمبراطورية العثمانية لم يعد كافيا لاحراز مزيد من النصر على الحدود

(١) يقصد العودة الى الكتاب والسنة ، والواقع ان السلفية في الاسلام تعنى التجديد أيضا ، والدعوة السلفية تعنى تنقية للمجتمع والعقيدة مما علق بهما من شوائب ، وهذا في حد ذاته دعوة للتجديد ، لكن هذا المعنى غاب عن المؤلف ، كما ارد يغيب عن كثير من الكتاب الغربيين — (المترجم) •

المجرية ، أما الى الشرق فقد كانت الحدود لاتزال مفتوحة ، ذلك لأن أوروبا المطلة على البحر الأسود لم يكن بها سلسلة قلاع وحصون مماثلة لتلك التي منعت العثمانيين من مزيد من التقدم صوب المجر • لقد كانت هناك أراض واسعة وخصبة متاحة للغزاة الأول مما شجعهم على تأسيس حكم يساعد على الاستيطان • لكن هذا التأثير العثماني الاستيطاني في هذه المنطقة قد توقف في الفترة التي تحالفوا فيها ـ أى العثمانيين ـ مع تتر القرم Crimean Tartar الذين أدت غاياتهم للحصول على الرقيق ، الى جعل المنطقة خالية مهجورة في معظم انحائها ، ولم يكن بعض رجال الدولة الاستراتيجيين العثمانيين مقتنعين بترك المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود في هذه الحالة الموصوفة (غير المتطورة) • وفى سنة ١٥٦٩ تغلغلت تجريدة عسكرية عثمانية حتى استراخان Astrakhan وبدأت في شق قناة تربط الدون Don بالفلجا Volga ، ولكن ثورة الروس في استراخان ومقاومة تتر القرم ورفضهم التعاون مع الكتائب العثمانية في مثل هذا المشروع الذى ـ اذا ما تم ونجح ـ فانه سيطوق تتر القرم في دائرة واسعة ، كما أن المنطقة الجرداء (الخاليه) كانت منطقة لا يمكن العيش فيها وكان الدفاع عنها من الناحية العملية يشكل عبئا ثقيلا ـ لكل تلك الأسباب مجتمعات لم ينجح المشروع • ومن بين ٣٠٫٠٠٠ شخص أبحروا من اسطنبول في سنة ١٥٦٩ لتنفيذ هذا المشروع ، لم يعد في العام التالى منهم سوى ٧٫٠٠٠ ـ بدون أى جدوى وبدون أى تقرير مفيد يدل على جهودهم • وبعد هذا الاخفاق لم يفكر أحد في تنفيذ هذا المشروع مرة أخرى •

لقد شهد عام ١٥٧٠ ، اذن ، نفاد طاقة العثمانيين التوسعية ، مؤقتا ـ في اوروبا الدانوبية وأوروبا المطلة على البحر الأسود ، أما الحدود الأخرى للامبراطورية فقد

فشلت في تقديم أى بديل مناسب ، فالتوسع في هذه الحدود الشرقية لم يتوقف ، فالحملات العسكرية والبحرية في البحر الأحمر اكدت السيطرة العثمانية على الحجاز في سنة ١٥٧١ ، وفوق هذا كانت الفتوح العثمانية في جورجيا وأذربيجان ، والتى نتجت عن حروب طال امدها ضد الفرس من سنة ١٥٧٧ الى سنة ١٥٩٠ • لكن هذه الفتوح ، كانت ذات أهمية على الخريطة فحسب ، اذ ان حقيقة السيطرة الادارية العثمانية على هذه المناطق أمر مشكوك فيه • فقد كانت أذربيجان على الاسلام كواقع فعلى عندما دخلها العثمانيون ، وبعد الفتح لم يتم تقليص سلطات ملاك الأراضى ولا الزعامات القبلية المحلية ، أما جورجيا فقد ظلت تحت حكامها المسيحيين ، في ظروف سيادة مشابهة لما كان في ولاية ترانسلفانيا • فلم يعد من المتاح ان تحصل الجيوش العثمانية على اقطاعات جديدة لتوزيعها على المحاربين •

وقد مال السباهيون عبر الامبراطورية العثمانية كلها للاستقرار في مزارعهم وعقاراتهم المستقلة • ونتيجة لهذا وجدنا النظام العثمانى العسكرى المرن ، يعتريه تغير وتحول سريع وحاد • فالمقاتلون الذين لا جذور لهم والذين عاشوا على صهوات الجياد في خدمة جيش دائم الانتصار ، ولم يكونوا يهتمون الا قليلا بأصولهم ، ولا أعقابهم (نسلهم) ــ هؤلاء المقاتلون تحولوا الى اصحاب أراض كسالى ، يقطنون المدن في الولايات ، حيث يتولى أتباعهم تسليمهم عوائد مزارعهم وعقاراتهم التى يتعيشون منها •

وقد أدت زيادة ارتباط السباهيين بمناطق بعينها ، الى مزيد من التعقيدات ، اذ أن الرغبة الفطرية لدى السباهيين وغيرهم في أن تنتقل ممتلكاتهم ومراكزهم الى ابنائهم ــ هذه الرغبة كانت تشكل عائقا قاسيا أمام المبدأ القانونى العثمانى الذى مؤداه أن هذه الممتلكات تمنح للمقاتلين خلال فترة حياتهم فقط ، كوسيلة يرتزقون منها أثناء الشتاء حيث

لا حرب ، وكمقابل لخدماتهم التي أدوها • وقد يكون الأولاد لم يبلغوا عمرا مناسبا عند موت آبائهم ، وقد أدى هذا الى صعوبات ومشاكل حتى في عهد سليمان القانوني • وفي سنة ١٥٣٠ أصدر السلطان عدة اجراءات وتظم مفصلة لتحديد النسبة التي تؤول لأولاد المحارب المتوفي ـ من دخله ، اذا كانوا صغارا ، على أن تزداد هذه النسبة اذا ما كان الآباء قد ماتوا في المعركة • ان هذا الاتجاه التوريثي بين النخبة العسكرية في الامبراطورية ، قد ادى الى تركيز القوة في الأجيال المتعاقبة مما أدى الى تدمير الجهاز البيروقراطي للحكم ، الذي كان سليمان قد ورثه وأضاف اليه وأكمله •

هذا التغيير في روح الطبقة العسكرية العثمانية قد وجد تعبيرا عنه في قلة الحماسة الفردية اثناء المعارك ، وقلة المرونة الادارية خلف خطوط القتال • ونتيجة لهذا ، تقلصت السلطة الفعلية ـ ممثلة في قدرة السلطان الشخصية على الحسم ـ بشكل خطير خلال النصف الاول من القرن السابع عشر ، ومع هذا ، فان بنية الدولة العثمانية قد بقيت عظيمة جليلة مهيبة كما احتفظ التراث (الثقافة) العثماني بقوة جاذبية عند غير العثمانيين ، لمدة طويلة ، بعد سنة ١٥٧٠ ، فلم تتفسخ الامبراطورية العثمانية تفسخا تاما ، وانما كانت تنحصر مجرد انحدار الى مستوى عادى من الفوضى الادارية والمالية ، وهو المستوى الذى كانت قد ألفته منذ فترة طويلة تدل في أوروبا ، والهند في ظل المسلمين ، وشمال أفريقيا •

وكلما ألفت الفوضى ، وشاع الخلاف ، وجدنا الحكام العثمانيين ، والمسيحيين ، وان كانوا يحملون من خلال نفس البنية الادارية ، الا أن القيود أمامهم زادت زيادة نسبية ، فما عادوا يتصرفون بنفس الانطلاق ، وفي الدولة العثمانية، كما في المجتمعات الأوربية ، كانت طبقة ملاك الأراضي تناضل ضد النظام الذى فرضه التاج (أو السلطنة) ، ذلك

النظام الذى كان يقـوم على كاهـل موظفين رسـميين ليس لديهم أى حقوق أو دعاوى وراثية ، للاستحواذ على السلطة •

وقد اتخذ هـذا الصراع طابعـا حادا (دراماتيكيا) خاصة فى روسيا ، حيث عرفت هذه الفترة تقليديا باسـم فترة الاضطرابات ، ويمكننـا استخـدام نفس المصطلح (فترة الاضطرابات) لوصف الصـعوبات الداخليـة التى واجهها الدولة العثمانية فيما بين عامى ١٥٧٠ و ١٦٥٠ •

فترة الاضطرابات فى الدولة العثمانية (١٥٧٠ ـ ١٦٥٠)

لقد استمر العثمانيون ، غالبا ، فى حـروب مستمرة بعد سنة ١٥٧٠ ، لكن هـذه الحروب ، فى هـذه المرحلة ، نادرا ، ما كانت تجلل بانتصارات حاسمة وفتوحات دائمة ، اذ ادى توجيه الجهود لمشروعات حربية بعيدة ومتعددة ، ضد أسبانيا وايطاليا ، وضد الفرس فى شرق الأناضول ، وضد الهبسبرج فى المجر ـ الى قلة شأن كل منها ، فسرعان ما كانت تتمخض هذه الحروب فتلد فأرا • وتزايد تقاعس أصحاب الاقطاعات وتلكؤهم فى قبول التعبئة العامة ، لخوض مغامرات عسكرية نظرا لأنهم لم يعودوا يتوقعون منها مغنما سوى التعب والخسر • كما كان الأبناء ـ غالبا ـ فى هذه المرحلة ما يرثون اراضى آبائهـم ، بدون أى التزامات عسـكرية ، وكان هذا يتم خروجا على القانون أو تحايلا عليه •

وفى نفس الفترة كان الرقيق السلطانى ـ وهو المؤسسة الرئيسية التى يمارس السلطان من خلالها سيطرته الشخصية على الشئون المدنية والعسكرية ـ مهددا بالانقلات من أيدى السلطة • فلقد كانت ماليـة الامبراطورية تعتمد بشـكل أساسى على الغنائم دخلا ـ ومن هـذا الدخل كان المقاتلون الأفراد يحصلون على أجورهم • لقد كان التفوق العثمـانى الحاسـم عـلى جيوش أوروبا فى النصف الأول من القـرن السادس عشر ، يعود ، فى جانب منـه ، لمـوارد السـلطان الهائلة ، تلك الموارد التى مكنته من الاحتفاظ بقوات مسلحة

أضخم وأحسن تجهيزا بالمعدات ، وأكثر تنظيما من أى قوة مسلحة منافسة فى أوروبا - وكانت هذه الموارد تأتى كغنائم من مناطق الحدود ، نتيجة عمليات الجيوش العثمانية ، وما كانت هذه العمليات الصيفية تؤتى أكلها عندما تكون فى بلاد قاحلة ، يحكمها حكام فقراء ، يحارب عنها عسكر بائس ، فمثل هذه المناطق لم تكن تدر غنائم حتى لو تم الاستيلاء عليها .

ونظرا لقلة الغنائم فى المناطق الحدودية للامبراطورية العثمانية ، فان السلطات قد عوضت ذلك بزيادة ما يتم اغتصابه من السكان الرعايا فى الوطن العثمانى نفسه . فقد كان ملاك الأراضى والاقطاعات يطلبون مزيدا من العوائد والخدمات من الفلاحين فى عقاراتهم الزراعية ، كما أن الرسميين من عبيد البيت السلطانى كانوا يطلبون مزيدا من الاموال ، سواء مقابل أداء واجباتهم ، أو كرشاو ، ومثل هذه الممارسات قد مكنت كلا من السباهيين والموظفين الرسميين من العيش فى بحبوحة ورخاء أكثر مما كان عليه أسلافهم الذين عاشوا أيام التوسع السريع والغنائم الوافرة .

لكن الشرائح الدنيا من القوات المسلحة لم تكن بطبيعة الحال لتحصل على فرص مماثلة ، ومع التضخم العام فى الأسعار ، الناتج فى جانب منه ، عن دخول الفضة الأسبانيه الأمريكية فى النظم الاقتصادية لعالم البحر المتوسط ـ أصبح ما يتقاضاه العثمانيون المحاربون غير كاف . وكان الحل الرسمى الذى تبنته الدولة هو السماح للنخبة العسكرية (الانكشارية) فى استغلال وقتهم الضائع فى العمل كفنيين وكحرفيين وصناع ، فى مواقعهم ومعسكراتهم ، لزيادة دخولهم من بيع ما يصنعونه ـ كمن سبقهم من المغامرين السباهيين الذين بدأوا يتكيفون مع الوضع الجديد ، فعاشوا كطبقة طفيلية من ملاك الأراضى ـ فان الجنود العاديين (الانكشارية) عندما غدا دخلهم الأساسى يعتمد على ما يصنعونه ، أدى هذا الى اندماجهم مع السكان الحرفيين فى

اسطنبول وغيرها من المدن التي بها مواقع عسكرية ، وفقدوا كثيرا من نظمهم التقليدية ، كما فقدوا حماسهم للقتال .

وعندما أصبحت الانكشارية مؤسسات حرفية ، وبدا افرادها يختلطون ـ بحرية ـ مع السكان المدنيين ، اصبح من الصعب للغاية منع مبدأ التوريث ، فأبناء الانكشارية كانوا هم وحدهم ، في البداية ، الذين يتقدمون للانضمام الى كتائب الانكشارية تحت غطاء شرعي (قانوني) وهو ان المسلم بالميلاد لا يمكن شرعا (قانونا) ان يغدو رقيقا ، وفي عهد سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤) تم تحديد نسبة لقبول ابناء الانكشارية وادراجهم في السجلات العسكرية . وفي سنة ٦٣٨ الغى السلطان مراد الرابع نهائيا الطرائق التقليدية في جمع العبيد السلطاني ، عن طريق ضريبة الاطفال (الدفشرمة) التي كانت تجبى من قرى البلقان النربية ، وقد ادى هذا التشريع الى اعتراف رسمي بحقيقة قائمة بالفعل ، فأبناء أصحاب الوظائف كانوا لفترة طويلة يشغلون الوظائف الممتازة ذات المزايا في المقر السلطاني وكل المراكز والوظائف المتاحة ، وبذلك اصبح يمكن شغل هذه المراكز بدون ضرورة الحصول على أطفال جدد بطريقة قسرية من قرى البلقان البعيدة . وقد ميز هذا التطور الحادث في المؤسسات العثمانية ، سكان المدن والمراكز الحضرية بشكل واضح ، على حساب الزراع في قلب الامبراطورية الا انه لما كانت غالبية افراد الطبقة الحاكمة العثمانية ، كانوا في أساسهم أولادا مجلوبين من القرى بعد استرقاقهم ، فان وضعهم هذا قد ادى الى تعاطفهم مع السكان الفلاحين ، ولكن الرسميين (الديوانيين) الذين نشأوا في المدن ثم التحقوا بالعبيد (المماليك) السلطاني عن طريق نفوذ عوائلهم أو شراء المناصب ، فلم تكن تحركهم عواطف انسانية مماثلة نحو أهل الريف . وكان هؤلاء الرجال يعتمدون في شهرتهم وفي مجال عملهم على ممارسة اقصى درجات الشدة في الأعمال الادارية والمالية ، التي ـ ان أدوها وتابعوها بفاعلية ـ حققت لهم شراء أعلى المناصب .

ومع كل هذا فقد ظلت الفضائل العسكرية القديمة أمرا هاما ، ولكن حتى القادة العسكريين ذوى الكفاءة قد خسروا المرة تلو المرة شهرتهم في مناطق الحدود البعيدة حيث كان احراز النصر أمرا صعبا ، بينما ـ على النقيض من هذا ـ كان الرجال النشيطون القابعون بالقرب من مركز السلطة في اسطنبول يحققون مكاسب في حالة الفشل والهزيمة اكثر من المكاسب التي يحققونها في حالة الانتصار ، وذلك اذا ما ربطوا انفسهم بالعصبة الرابحة في البلاط السلطاني بسرعة ، أو دفعوا المبلغ الكافي لشراء وظائف او مناصب جديدة ، أكثر ادرارا للمال . وفي مثل هذه البيئة وتلك الظروف تنتعش خبرات المؤامرات والمقالب السياسية وكان يتعين على الذين وصلوا للقمة ان يخوضوا منافسات قاسية وكان من الطبيعي ان يمتازوا بطاقات وذكاء غير عادي ، رغم أنهم اكتسبوا خبراتهم من خلال تراث لا يعترف بالقيم والاخلاق .. تراث ضيق الافق يتسم بالمحافظة والحذر .

وكان لنمو أهمية المدن في المجتمع العثماني ، أثره في تمتع افراد الطبقات العليا برفاهية ورخاء متزايدين ، ثم تأثرت المدن ، بالتالي ، برفاهية افراد هذه الطبقة . ففي خلال القرن السادس عشر ، وجدنا السباهيين الذين كانوا أولادا او احفادا للقرويين المعدمين أو رجال القبائل ذوي الطبع الجوعي ـ قد قبلوا حياة الخشونة والجلد في المعارك كأمر طبيعي الفوه ، أما في الشتاء فلم يكن لديهم وقت ولا فرص لتعميق معرفتهم السطحية باغراءات المدن والمراكز الحضرية ، بينما أصبح نسلهم ينعم بمباهج المدينة يأتيهم رزقهم رغدا من اراضيهم ، وكانوا نادرا ما يمتطون صهوات الجياد ، وان فعلوا فعلى كره منهم ، وكانوا يتعاملون مع السوق الرحب كتجار وحرفيين . كما أنهم من ناحية أخرى كانوا يطلبون مزيدا من العوائد وأجورا مرتفعة من الفلاحين . لقد اتسع الخرق ، اذن ، بين المدينة والقرية ، لقد أصبح سكان القرى ناقمين على النظام العثماني ، وكان الارتفاع الملحوظ

فى عدد اللصوص وقاطعى الطرق فى البلقان فى القرن السابع عشر خير دليل على هذا التغيير ، فالشباب ـ الذين كان من المحتمل فى الزمن الباكر ان يؤخذوا ليجوبوا ضمن العبيد السلطاني حيث يظهرون فى بعض الحالات كحكام للامبراطورية ـ هؤلاء الشباب اضطروا تحت ضغط الضرائب الثقيلة ان يصبحوا لصوصا ، لم تمنعهم هجماتهم الموسمية على المسئولين وسكان المدن ، من أن يعيشوا معظم وقتهم كطفيليين وعالة على الفلاحين المسيحيين الأورثوذكس •

ويمكن وصف ما حدث بطريقة اخرى ، وذلك بأن نقول ان النظام العسكرى والادارى الذى انعش نفسه فى بداية الامر بالغارات الحدودية التى ادت الى توسيع الدولة العثمانية ، قد نقل ميدان الغارات الضاريه الى قلب الامبراطورية العثمانية نفسها نظرا لأن المناطق الاخرى على تخوم الامبراطورية كانت قد الم بها الانهاك والعقم • فالنظام الاجتماعى العثمانى غير العادى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والذى كان قد وصل الى ذروة التوسع، كان يتعين ان يعيد تكييف نفسه وتشكيل ظروفه بشكل مؤلم ليتمشى مع أسلوب حياة جديد لا تتاح فيه غنائم طارئة ومكاسب مفاجئة تقذف بها الريح بغير تحسب • لقد ادت الظروف المفروضة على المؤسسات العثمانية بسبب توقف التوسع وتدنى العائد من الغنائم ، الى سلسلة طويلة من الاضطرابات والمشاكل فى مقر الحكم فى اسطنبول - وعادة ما كان مثيرو هذه الاضطرابات والثورات هم الانكشارية وغيرهم من الكتائب السلطانية أو طلاب العلم وعلماء الدين فى المؤسسات الدينية فى المدينة (اسطنبول) •وفى سنة ١٥٨٩ تمرد الانكشارية عندما سلمت لهم رواتبهم بعملة مخفضة القيمة وأجبروا الصدر الأعظم وبعض المسئولين الكبار على التنحى • وكانت هذه هى المرة الاولى التى ينجح فيها تدخل الجند العاديين فى احداث تغيير فى السياسة العليا لكن سرعان ما انتشر هذا ففى سنة ١٦٢٢ وفى سنه ١٦٤٨ خلع المتمردون الانكشارية السلطان وأعدموه •

ورغم هذا كله ، ورغم اضطرابات كثيرة أقل تطرفا ، الا أن النظام العسكرى والادارى العثمانى ظل قادرا بين الحين والآخر على استعادة قواه ، ففى سنة ١٥٩٦ ، على سبيل المثال ، عبأ السلطان محمد الثالث كل موارد الامبراطورية لخوض حرب ضد الهبسبرج النمسويين ، حيث جمعت الغنائم بالطريقة التقليدية • وفى حكم مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) شهدت الامبراطوريه حركة احياء اكثر أهمية ، اذ كان هناك تمسك شديد بالمبدأ القائل : لا شيء يؤمن التقدم سوى المقصلة

Rien n'avance les choses comme les exécutions

لذلك فقد كان مراد يواجه التقصير والفوضى الادارية وعدم الكفاءة العسكرية ، بعقاب قاس للغاية كما خطط مراد لاصلاحات عسكرية بعيدة المدى ، بقصد خلق جيش ـ وان كان اقل عددا ـ الا انه سيوفيه كل احتياجاته وينفق عليه بسخاء ليجعله اكثر تجهيزا واحترافا ، ولكن موت مراد الباكر أوقف كل اصلاحاته باستثناء تعطيل ضريبة أطفال البلقان ، اذ توافق هذا مع اهتمامات ومصالح الطبقة الحاكمة العثمانية •

وعلى اية حال ، ففى ظل الظروف العادية ، عندما لم يكن يقبض على ناصية السلطة سلطان أو وزير قوى ، كان التضامن الناتج عن المصالح المكتسبة يسود الدوائر الحكومية ، ان اية محاولة لاعادة الحياة للنظام العثمانى من خلال عمل عسكرى فعال ، كانت تسير على عكس ما تشتهى السفن ، اذ أن هذا كان يتطلب نفقات متزايدة متعاظمة وجهدا اداريا ، لقد كان الحكام العثمانيون ، حقيقة ، يواجهون مأزقا صعبا ، وكان أمامهم أمران ، أحلاهما مر ، فالاصلاح يعنى التجديد ، ولكن التجديد فى نفس الوقت يهدد المصالح الموروثة التى يقول أصحابها ان اعادة عظمة الامبراطورية ، ليس فى التجديد وانما هو بالتمسك المخلص بتراث الاسلاف ، فمزايا الانكشارية يجب ألا تمس ، وتجهيزاتها المتعارف عليها يجب الا تتبدل لما التطورات

الأوربية في مجال التكنولوجيا العسكرية فلا دخل لهم بها ، وهي بالنسبة لهم ، ليست ذات علاقة بالموضوع ، فارادة الله التي وهبت العثمانيين هيمنة شاملة في القرن السادس عشر ، ـ لا يمكن تغييرها (١) •

فلو كانت الانتصارات العثمانية السابقة أكثر تواضعا ، والماضي أقل الهاما وابهارا وقدوة ، لأمكن تحقيق اصلاحات جذرية كتلك التي قام بها ايفان الرهيب وبطرس الأكبر في روسيا ، فالروس لافتقارهم الى ماض امبراطوري باهر ، كانوا أكثر استعدادا للاقتداء بالأجانب ، أما العثمانيون ـ من ناحية أخرى ـ فان تحررهم من تراثهم كان أمرا صعبا • ولم تتقلص السلطة الاوتوقراطية بالسرعة الكافية ، اذ كان هذا في اوروبا أسرع ، فأدوات الحكم الاستبدادي ووسائله كانت دائماكامنة في المجتمع العثماني وتجد من يدافع عنها ، حتى عندما كان يشغل عرش السلطنة ضعفاء او أطفال • فقد استمر القساة المقتدرون يتبوءون وظائف الادارة العثمانية ، ولم تكن قسوتهم لخدمة الصالح العام ، وانما لتحقيق أهداف ضيقة الافق ، ودخلوا في صراعات لتكوين أوضاع مميزة لانفسهم والاثراء السريع وقهر منافسيهم ، ومع ذلك ، فقيام حاكم قوي ذي بصيرة على راس النظام ، قد يستقطب في زمن وجيز سائر طبقات الرسميين (الديوانيين) حوله ، تماما كما يفعل المغناطيس بالبرادة الحديدية ، ليصوغ منهم أداة طيعة تمضي عن مشيئة الحاكم الفرد ، وهذا ـ كما سنرى ـ كان انجازالصدرين الأعظمين، محمد وأحمد كوبريلي ولكن التراث الاستبدادي للمجتمع العثماني الذي ، وان سمح بمثل هذه الومضات الاحيائية ، الا انه كان يحد من انطلاقها بحصرها وتقييدها في نطاق أهدافه ووسائله التقليدية •

---

(١) هذا هو السبب الحقيقي للجمود ، وليس السلفية ، أو المثالية بالعودة للكتاب والسنة ، فالرغبة في الحفاظ على الكراسي ، هي التي تجعل بعض القادة المالكة تطالب بالتمسك بالماضي ، وهم يتخذون ذلك ذريعة للحفاظ على مصالحهم ، وليس حبا في الماضي ذاته ـ (المترجم) .

لقد حسب التفكير في قالب محافظ ، وفي نفس الوقت كان العمل يسمار للحفاظ على المكاسب والمزايا وترك هذا تأثيره المسيطر على نظام حيازة الأرض ، وادارات الحكومة • وكان الشعور العام غير راض عن ذلك ويعتبره خطأ ، ولم يصل الأمر الى حد اغتصاب السلطنة ، فهذا كان يمكن تجاوزه اذا كان الحاكم قويا وناجحا في تعيين عملاء جديدين له •

وعلى أية حال ، فان كل هذا قد أدى الى اتجاه مهلك اذ تفاعلت في اسطنبول سياسات الفوضاء والتكتلات المتنافسة • لقد كان عصر الاضطراب العثماني عصرا سطحيا بالمقارنة ، فلم يؤد الى تغييرات أساسية ودائمة في موازنة القوى الاجتماعية كما لم يؤد الى تخلي العثمانيين - حقيقة - عن أفكارهم ومثلهم في الحياة والحكم •

العثمانيون يتقدمون من جديد (١٦٥٠ - ١٦٨٣) :

لقد أوجدت الفتوحات العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في أطراف اوروبا - سواء في شرق أوروبا ، أم في أوروبا البحر الاسود - سلسلة من الدول التابعة Client states مثل ترسلفانيا ومولدافيا وفاليشيا وخانيات التتر Tartar Khanates حول البحر الاسود وبحر ازوف Azov وكانت هذه الدول التابعة - رغم قيام العثمانيين بفتحها ، الا أن علاقاتها بالعثمانيين كانت أساسا ممثلة في دفع الضرائب • ونتيجة المشاكل الداخلية التي واجهها العثمانيون خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، قامت سلسلة محاولات قام بها جماعة من المتآمرين العسكريين لتأسيس نظم حكم استبدادية في هذه المناطق حيث استقلوا عن الحكم العثماني ، وتمردوا في نفس الوقت على الهبسبرج ، في المناطق المجرية التي كان يحكمها الهبسبرجيون • ففي السنوات الوسطى من هذا القرن السابع عشر ، تدهور نجاح هؤلاء الأمراء النسبي ، ذلك النجاح الناتج عن المكائد والخداع ، اذ أن المعارك خلال

الخمسينات من القرن السابع عشر قد أعادت الهيمنة العثمانية على خدنات القرم وبحر آزوف . وبتوقيع معاهدة وستفاليا westphalie في سنة ١٦٤٨ ، أعادت القوى الأوربية تنظيم صفوفها وضمنت استقلال ترانسلفانيا Transylvania ، ولكن في سنة ١٦٥٨ وصل الجيش العثماني الى درجة أكد فيها السلطة العثمانية . وفي نفس الفترة ، قامت المؤسسات والوكالات العثمانية مع الماليين اليونانيين الذين كانوا رعايا عثمانيين ـ بسحب نتاج المزارع الرومانية لبيعها في سوق اسطنبول كسوق نوفى للطعام ، مما أعاد مولدافيا وفاليشيا للدوران في فلك الدولة العثمانية .

وهذا برهان واضح على أن الدولة العثمانية قد عاصرت ـ ولو بشكل مؤقت ـ مشاكلها الداخلية وجددت طاقاتها وقدرتها على الفتح والاستيعاب .

وكانت أول علامة على انفتاح شهية العثمانيين للحرب والعدوان ضد الأوربيين ممثلة في حروب العثمانيين في البحر المتوسط منذ سنه ١٦٤٥ عندما غزوا كريت ، احدى أهم مراكز جمهورية البندقية اذ سرعان ما طرد العثمانيون البنادقة من الجزيرة ، ولكن فشلهم في الاستيلاء على قلعتها في كندية جعل الطرفين (العثمانيين والبنادقة) يخوضون حرب حصار طويلة ومؤلمه . وقد أدى عدم فعالية الانجاز العسكرى لقوات المسلحة العثمانية في المراحل الأولى للحرب الكريتية ، الى أن صرف المؤرخون انتباههم عن هذا التطور الهام جدا الحادث في الدولة العثمانية . فلم تقاوم الجزيرة الا من خلال قلعتها التي كانت تلقى الدعم والامدادات من البندقية ذاتها (المدينة الأم) أما سكان الجزر اليونانية فقد رحبوا في بداية الأمر بالعثمانيين كمحررين يخلصونهم من حكم الايطاليين الرومان الكاثوليك المتسم بالعدوانية ، وفي السنوات التالية تحولوا للاسلام بأعداد غير قليلة .

ويعد هذا تراجعا خطيرا في الممارسات العثمانية خلال

القرن السادس عشر ، فباستثناء اجبار صبية البلقان على الاسلام ـ اولئك الصبية الذين كانوا يلحقون بخدمة البيت السلطاني ـ فان العثمانيين لم يبذلوا جهودا في عهد سليمان القانوني وبعض من خلفه لنشر دينهم بين شعوب أوروبا الشرقية المهزومة وكان المسلمون السنة ـ السلفيون ـ يطبقون مبدأ التسامح الديني مع المسيحيين ، ويركزون على الفرق بين العقيدة الاسلامية والاديان الأخرى ، وكانوا يجرمون جماعات الدراويش المبتدعة من المسلمين ، وهم بهذا كانوا يحظرون أحد الوسائل التي يدخل فيها غير المسلم الى الدين الاسلامي بالحسنى ·

فكل المؤسسات الدينية قد مارست بين الحين والآخر ، نوعا من التردد بين عقيدة السنة النقية ، والاتجاهات الأخرى الراغبة في التوائم مع المذاهب الدينية الموسومة بالابتداع (الهرطقة) الا أن سليمان القانوني عرف الاسلام تعريفا صارما ، وفرض عقيدة السنة ، وكان لابد أن ينتج عن ذلك رد فعل حتمي ، اذ عجل هذا بسلسلة من الحروب ضد فارس خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، وكانت هذه الحروب تخضع لاعتبارات المد والجزر ، مما عرض الحدود الشرقية للامبراطورية العثمانية لتدفق تأثيرات الشيعة المبتدعين (الهراطقة) · الا أن الانكشارية كانوا دائما مرتبطين بطريقة البقطاشية وهي احدى طرق الدراويش · وكان تدخل الانكشارية الدوري في سياسة القصور قد أدى الى اتجاهات تحررية في تفكير الطبقات الحاكمة · فقد كان الاسلام قد فقد صرامته العقائدية عند الممارسة الفعلية في الدولة العثمانية من القرن السابع عشر ، وانما عمد معتنقوه الى اظهاره بمظهر جذاب وطاقات جذابة أيضا وذلك بقصد العمل على كسب أنصار جدد ، ويمكن تفسير تحول الكريتيين وغيرهم من الجماعات في الأماكن النائية الفقيرة ، الى الاسلام ، بالرغبة في انتهاز الفرص التي يتيحها تحولهم للاسلام من تحسين أوضاعهم الوظيفية ، في ظل هذه الظروف المتغيرة · فتركوا المسيحية بأعداد كبيرة ودخلوا في

الاسلام ، وكان هذا واضحا وبشكل جماهيري بين الألبان وسكان جبال مونتنجرو (الجبل الاسود) Mon.negrin M.unt.aren والبلغار في تلال رودوب Rhodope ، وبلغ تحول هؤلاء للاسلام دروته فيما تبقى من هذا القرن السابع عشر. ولقد كتب على الألبان الذين تحولوا للاسلام أن يلعبوا دورا حاسما في احياء الامبراطورية العثمانية ، لقد كانت طرائق التقدم لا تزال مشرعة في الجيش العثماني والادارة العثمانية ، بدفع الكفاءات القادرة من الفلاحين ذوى الأصول المتواضعة .

لقد انطلق الألبانيون من تلالهم وجبالهم كأسراب النحل في السنوات الوسطى من القرن السابع عشر ، ليقوموا بنفس الأعمال والوظائف التي كان يقوم بها رفيق البوسنه والهرسك خلال القرن السادس عشر . لقد كانت مهارات الألبانيين واتجاهاتهم العسكرية التي جلبوها معهم بعد اسلامهم كافية لتجعل لهم مكانا حفيا ، عندما التحقوا بالالاف في الجيش والادارة ، فلعبوا بذلك دورا جدد الشخصية المدوانية للعثمانيين . لقد كانت طبيعتهم القبلية قد جعلتهم غير أنانيين اذ عملوا كخدم مخلصين للسلطان العثماني بطريقة لم تكن الامبراطورية العثمانية ، لتجدها الا نادرا في هذه الفترة . ولقد كان أقوى اتفاق مع الألبانيين سكان الجبال هو الذى يحكمه القسم على الولاء أو الصداقة (البيسا besa) ، ولقد اكتسبت البيسا معنى جديدا بالنسبة لهؤلاء الألبانيين الذين دخلوا في خدمة السلطان .

لقد اعتبر الألبانيون أشكال وصيغ الاتفاقات التي دخلوا بمقتضاها عرضا ، في خدمة السلطنة العثمانية ، متفقة ومساوية لقسمهم التقليدى على الصداقة والجندية (البيسا) . وعلى هذا فقد كان المهجرون الألبانيون الى مدن الامبراطورية العثمانية يلوذون بالموظفين الألبانيين الذين كانوا يكنون لهم الولاء والاخلاص الناتج عن قسم الصداقة

(البيسا) أو رفقة السلاح ، وكان هؤلاء الموظفون الالبان يعتمدون بالتالي على هؤلاء المهاجرين من ابناء جلدتهم لحماية مصالحهم • وكن هذا رغبة في شرف الكلمة او الوعلو بالقسم على الطاعة مهما كانت الظروف ، ولم تكن أى جماعة عرقية أخرى في الامبراطورية العثمانية ، غيرهم لتصمد بولائها وقسمها مثلهم •

لقد شكلت الحرب الكريتية اتجاها في الشئون العثمانية، فقد أصبحت أسرة كوبريللى قادرة على وضع الامبراطورية في طريق الاهتمام المتجدد بالفتوحات غير ان الاضطرابات التي كان يثيرها الانكشارية كانت تعبر عن انتشار السخط على طريقة ادارة الحرب فقد تم خلع واعدام السلطان ابراهيم في سنة ١٦٤٨ • وفي سنة ١٦٥٦ حدث المزيد من الاضطرابات في اسطنبول عقب انتصار البنادقة البحرى في الدردنيل ، مما أدى الى استدعاء محمد كوبر يللى من منزله، ليتولى منصب الصدر الأعظم • وكان محمد كابريللى هذا مسئولا عثمانيا كبيرا كثير الخبرة محترما ، وكان قد بدأ عمله كمساعد طباخ (غسال صحون) في المطابخ السلطانيه• ولم يكن محمد كوبر يللى ليقبل هذا المنصب الا في ظروف تخويله السلطة كاملة دون اعتراض أو تحد • فسياسته الحاسمة التي اتبعها خلال خمس سنوات قبل أن توافيه المنية في سنة ١٦٦١ غيرت الوضع تماما ، فقد طرد البنادقة من الجزيرتين الاستراتيجيتين ، ليمنوز Lemnos وتنيدوز Tenedos • وفي سنة ١٦٥٨ بدأ سلسلة من التجريدات العسكرية جعلت أمراء ترنسلفانيا ومولدافيا وفاليشيا ، يلتزمون بالطاعة ، أما في الداخل ، فقد اتخذ أجراءات شديدة ، لتحسين نوعية الادارةواعادة النظام بين الكتائب السلطانية وقد خلف محمد كوبر يللى في منصب الصدارة العظمى ابنه أحمد كوبر يللى الذى ظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٦٧٦ • وبالتنظيم العسكرى الذى ورثة عن أبيه والذى أعاد القوات العثمانية المسلحة الى مستوى من الكفاءة قريب مما كانت عليه في القرن السادس عشر ـ استهل

أحمد كوبريللى استلامه لمنصبه بالتجهيز والاعداد لمعركة تقليدية ضد الهبسبرج فى المجر ومورافيا وسيلزيا • ولقد وضع العثمانيون قوات بلغت أكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ محاربه فى ميدان المعركة فى سنة ١٦٦٣ ، ولكن هذه المعركة اتخذت طابع الغارة ، اذ غلبت عليها عمليات السلب بشكل أساسى — أكثر من كونها معركة فتح أو غزو • لقد كانت غارة Razzia بشكل أساسى • وعندما استأنف العثمانيون أعمالهم العدائية فى العام التالى ، واجهوا مقاومة جيدة حسنة التنظيم ، فقد اصطدم الجيش العثمانى بكتائب أوربية ضخمة يقودها القائد الايطالى الألمى الجنرال رايموندو مونتكوكولى Riamondo Montecuccoli الذى هزم العثمانيين هزيمة منكرة فى معركة القديس جوثارد St Gothard وقد اضطر أحمد كوبريللى نظرا لما واجهه من احباط فى ميدان المعركة الى اللجوء الى فنون الدبلوماسية ، اذ أجبرته بنود اتفاقية هدنة فاسفار vasvar فى سنة ١٦٦٤ للتنازل عن أجزاء من المجر العثمانية للهبسبرج ، غير أن العثمانيين حصلوا على تعويض مماثل فى بعض القلاع الحدودية من النمسويين كانوا قد استولوا عليها اثناء معارك سنة ١٦٦٣ التى أشرنا اليها •

وعلى هذا فقد كان من الواضح أن الهبسبرج الآن يعيدون توزيع قواتهم العسكرية ، التى كانت وحدات المشاة فيها تتمتع بقيادة فعالة ، كما كانت وحدات مدفعيتها قادرة — فى الظروف العادية — على التقليل كثيرا من كارثة تقدم الجيوش العثمانية ، تلك الكارثة التى ما عادت أوروبا تتحملها •

وعلى هذا فان أحمد كوبريللى قرر أن يتحسس نقاط الضعف فى النظام الدفاعى الاوروبى ، فتابع الحرب الكريتية ليحسمها فسقطت كانديه وتخلى البنادقة عن الجزيرة فى سنة ١٦٦٩ • وقد أدى هذا النجاح الى تفرغ القوات العثمانية للقيام بمغامرات جديدة فى الشمال ، فقد

قدمت أوكرانيا امكانات مغرية للعثمانيين ، اذ كانت أوكرانيا مجال نزاع بين روسيا وبولندا بينما كان سكانها الوطنيون وهم القوزاق Cossack يحاولون الظفر بالاستقلال بعيدا عن القوتين المتصارعتين ، لذا فقد قام العثمانيون بارسال سلسلة من الحملات العسكرية القوية المدمرة الى أوكرانيا البولندية (الخاضعة لبولندا) خلال السبعينات من القرن السابع عشر ، مما مكن أحمد كوبريللي من تتويج عمله باملاء معاهدة زورافنو zoravno على جون سوبسكي John Sobieski ـ ملك بولندا ـ في سنة ١٦٧٦ ، وبذلك تخلى البولنديون عن كل ادعاءاتهم في أوكرانيا ، ودخلت مقاطعة بودوليا الأوكرانية تحت الادارة العثمانية المباشرة ، كما تم اعلان بلاد القوقاز الزابوروريين saporozhian Cossacks على الشاطيء الغربي لنهر دنيبر Dnieper كرعايا خاضعين للسلطة العثمانية .

لقدكانت أسرة كوبريللي من أصول ألبانية ، وكان لنجاح اول وثاني صدر أعظم من هذه الأسرة ، اثره المحتمل في تحول الألبانيين تحولا جماعيا للاسلام خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر ، كما وثق العرى بين الحكومة العثمانية وقبائل الجبال الألبانية .

وقد أمد هؤلاء الألبانيون المسلمون ، الجيش والادارة العثمانية ، بطاقات وحماسة جديدة ، عملي نحو جزئي ، على التقليد القديم المتمثل بادراج أفراد الطبقات الدنيا ، في الطبقة الحاكمة ، تقليدا ساريا أو أعيد احياؤه على الأقل ، وبمثل هذه الوسائل ، فان بعض فعاليات الادارة العثمانية المتميزة ، قد نجت من الخلل المتمثل في الرشوة والفساد والتمسك بالمزايا الموروثة ، تلك المزايا التي مرتبطها للادارة العثمانية خلال القرن السابع عشر ، الجماعات الحضرية (سكان المدن) وملاك الأراضي . وحتى حركة الاحياء والتجديد التي قام عليها آل كوبريللي ، كانت حركة

مؤقتة ، لا تتسم بالاستمرارية • وقد ماقت الجبال القاحلة في ألبانيا وكريت وبلماريه اولئك المتحولين للاسلام ، كما أن جماهير السكان في البلقان خاصة سكن السهول والفلاحين ، ظلوا بمعزل عن الاسلام غير معتنقين به ، في القرن السابع عشر ، كما كان عليه الحال في القرن السادس عشر •

حقيقة لقد أنعش المهاجرون الجبليون الطبقة الحاكمة في الامبراطورية العثمانية ، لكن ذلك لم يكن كافيا لتغيير النهاية المحتومة ، فقد كان الوهن الاجتماعي ساريا أطنابه، وتجلى هذا بوضوح خلال الفترة التي اصطلح على تسميتها بفترة الاضطرابات العثمانية

وحتى النجاحات ذات الطابع المبهر التي أنجزها أحمد كوبريللى في أوكرانيا خلال اوائل الثمانينات من القرن السابع عشر ، كان ينقصها الديمومة والثبات اللذان مارا الفتوحات العثمانية في البلقان في القرن السادس عشر ، فالضغط الروسي أجبر العثمانيين على التخلى في سنة ١٦٨١ عن بعض ما حصلوا عليه ، وعلى أية حال فان الجيش العثماني الغازى كان قد تسبب في ايجاد منطقة خالية في الاقليم بعد أن كانت امكاناتها الهائلة كمخزن بشرى ومصدر للضرائب والطعام ، لا تحد ، مما أضاع ذلك كله على الأجيال التي أتت بعد ذلك •

لقد خلف أحمد كوبريللى كصدر أعظم أخو زوجته قره مصطفى الذي كان حالما بعيدا عن الواقعية مهتما بمصلحته الذاتية ، وكان اقل فهما لمجريات الأمور من آل كوبريللى ، فلم يدرك ضرورة توافر الموازنة لتحقيق الطموح (علاقة الطموح بالامكانات) • لقد نسى قره مصطفى الدروس القاسية التي قدمها النمسويون في التكتيكات العسكرية خلال أوائل السبعينات من القرن السادس عشر ، فأوقف (قره مصطفى)التوسع العثماني في أوكرانيا ويمم وجهه شطر أوروبا الوسطى ضد الهبسبرج ، وللحق ، فان الفرصة

كانت تبدو سانحة لذلك • غير أن جهود الهبسبرج الدائمة بعد سنة ١٦٤٨ لاخضاع نبلاء المجر المتمردين لمزيد من سيطرة فينا الادارية ، وذلك لتهيئة الفرصة أمام جهود حركة الاصلاح المضاد Counter reformation للعمل خلال الولايات التابعة لمسا ولانشاء استحكامات قوية فى المجر لمواجهة العثمانيين ـ وقد أدت هذه الجهود لاخضاع نبلاء المجر ـ للأسباب التى ذكرناها ـ الى زيادة القلق والاضطراب لدى هؤلاء الحكام المجريين المحليين ولقد يمم هؤلاء النبلاء المجريون المنشقون وجوههم فى بداية الأمر صوب فرنسا ليحصلوا منها على المعونات والامدادات والتأييد السياسى ، لكن المساعدة الفرنسية أضحت غير مأمول فيها بعد توقيع سلام نمويجن Nimwegen بين فرنسا والنمسا فى سنة ١٦٧٨ ، وسرعان ما تقدم قره مصطفى يعروض ليحل محل لويس الرابع عشر كظهير ونصير لثورة المجريين ضد السلطة المركزية الهبسبرجية • لقد وجد قره مصطفى تعاونا ورغبة من توكولى Imre Tokoli الأمير الشاب ، والذى كان جده قد اشترك فى ثورة ضد الهبسبرج حيث اعدموه فى سنة ١٦٧١ ، وقد وجد الزعماء المتمردون فى توكولى قائدا قويا • وهكذا أصبح توكولى ممثلا لتحالف الحكام المحليين المجريين مع الامبراطوريه العثمانية لاحباط تقدم البيروقراطية النمسوية ، ويذكرنا هذا بجون زابولى خلال القرن السادس عشر •

لقد كان حلم قره مصطفى فى احراز نصر ساحق على الهبسبرج يجعل من الضرورى تاجيل ذلك ليصبح سنوات بعد تعيينه ، لاعداد وتدريب الجيش العثمانى لتنفيذ هذا المشروع ، وقد استفاد آل هبسبرج من فترة التقاط الأنفاس هذه لتعديل سياستهم فى المجر وفى سنة ١٦٨١ عندما أعاد الامبراطور ليوبرلد الاول Leopold 1 دستور مملكة المجر القديم ، أدى هذا الى زعزعة مركز توكولى وحرمانه من عضوية جماعة النبلاء المجريين ، الذين لم يكونوا راضين

فى التخلص من طلبات امبراطور فينا ، لا لشىء ، الا ليقعوا فى قبضة السلطان العثمانى .

وفى ربيع سنة ١٦٨٣ ، أطلق قره مصطفى العنان لجيشه الهائل المتعدد العناصر ، فانساب عبر كل الولايات والدول التابعة للامبراطورية العثمانية على طول الدانوب ، فتراجعت القوات العسكرية الهبسبرجية بأعداد كبيرة وارتدت الى فينا ، وفى يوليو من نفس العام وصل العثمانيون ليحكموا حصارهم التاريخى الثانى حول فينا .

لقد ادرك الأوربيون معنى حصار فينا ، ومدى ما يمكن أن يحيق بأوروبا اذا ما سقطت ، فحتى لويس الرابع عشر الذى كان ساخطا على الهبسبرج قد أجبر فى مقابل تنازلات دبلوماسية هامة ، على الموافقة على تأجيل مهاجمة الحدود الغربية للامبراطورية الرومانية المقدسة .

وبعد ستين يوما من الحصار ، تم انقاذ فينا ، بسبب تدخل الجيش البولندى الذى كان على رأسه ملك بولندا ذو القيادة الواعية ، جون سوبيسكى John Sobeiski وهزم العثمانيون وتراجعوا ، ولم ينج الجيش العثمانى من الابادة الا بسبب الانقسامات التى حدثت بين الأوربيين . ولقد كتب جون سوبيسكى :

« ها نحن الآن على الدانوب ، كما كان اليهود على الفرات ، نندب خسائرنا من الخيول ، ونواجه الجحود ونكران الجميل من أولئك الذين أنقذناهم » .

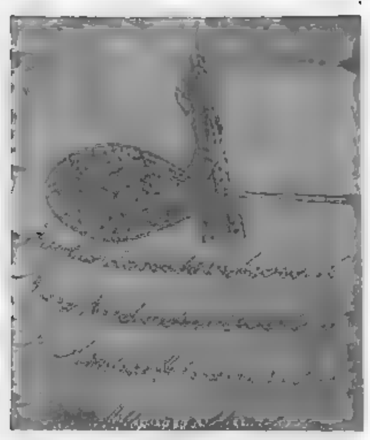
لقد خاطر قره مصطفى مخاطرة كبيرة وفشل فشلا ذريعا مسببا كارثة ، لذا فقد تم اعدامه بأمر من السلطان ، ولقد كانت هزيمة قره مصطفى منعطفا دالا على ان المبادرة العسكرية والسياسية فى أوروبا الشرقية قد تفلتت ـ والى الأبد ـ من أيدى العثمانيين .



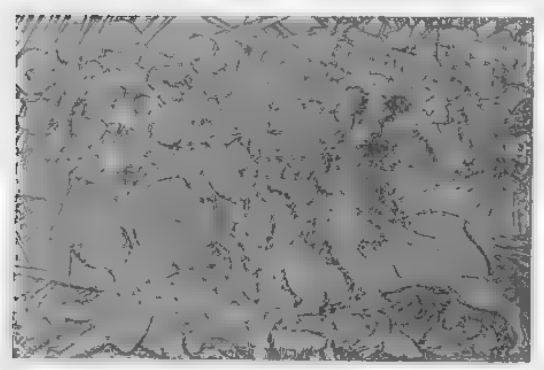
إعادة الاستيلاء على تونس بواسطة قوات شارل الخامس سنة ١٥٣٥ إلا أن الترك استعادوها سنة ١٥٧٤



صورة رسمها فنان أوربي في القرن السادس عشر ، توضح ما كانت تتصف به الطبقة الحاكمة العثمانية في القرن السادس عشر من عظمة وأبهة .
وربما كانت الصورة لسليمان القانوني



طغراء سليمان القانوني



حفر على الخشب من انتاج فنان ألماني في القرن السادس عشر يوضح أن الفرسان الترك (العثمانيين)
في القرن السادس عشر رغم دروعهم الخفيفة الا أنهم كانوا أكثر قدرة على الحركة
وأكثر فعالية من الخيالة المسيحيين



صورة رمزية تعبر عن قوة الدولة العثمانية وهي تقف أمام القرن الذهبي وتطل على أوروبا وآسيا
وأفريقيا المنكسرة ويرى تحت قدمه رمز الدولة المقتام والصولجان اللذين يرمزان للسلطة
الكهنوتية والزمنية في العالم المسيحي

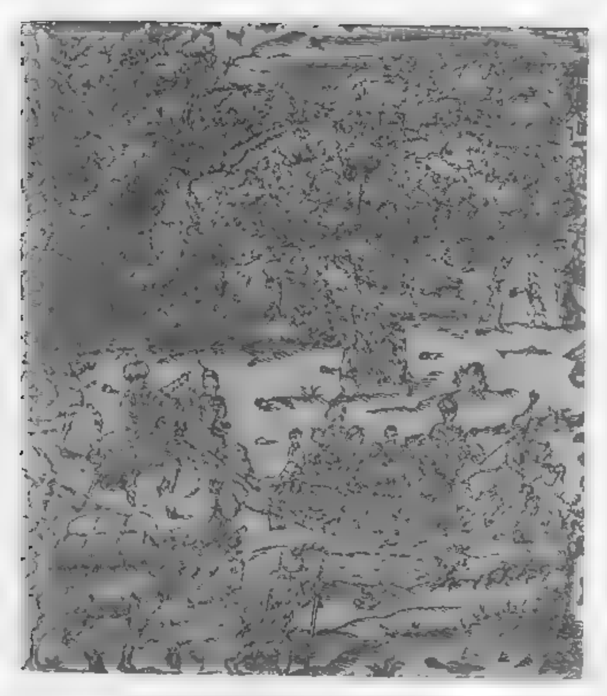


السلطان مراد الأول　　　　السلطان اورخان

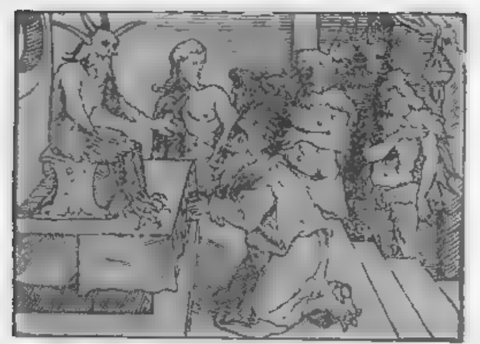
من رسوم فناني القرن السادس عشر في أوربا



قبر السلطان مراد الاول بأرض معركة كوسوفو (١٣٨٩) التي قضى فيها السلطان على بقايا
المقاومة الصربية وكان السلطان قد اغتيل في ظروف غامضة
عقب نصره الكبير مباشرة



مطشرجة البنقاني : لقد بدأ هذا المطهر منذ بداية القرن الخامس عشر



«حفر على الخشب «صورت الدعاية المسيحية في القرن السادس عشر العثمانيين -وكانوا يسمونهم بالمسلمين) بشكل عام - كعبدة شيطان»



تاجر من راجوسا - وقد كان التجار الراجوسيون الماهرون بسفنهم الشراعية الضخمة يحصلون على نصيب كبير من تجارة شرق البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر وكان للراجوسيين نشاط واسع في مختلف أنحاء الولايات العثمانية الأوروبية

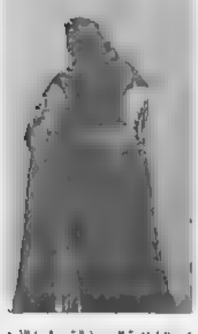


الترك كما صورهم الأوروبيون في القرن السادس عشر
(مطبوع معاصر في [illegible])

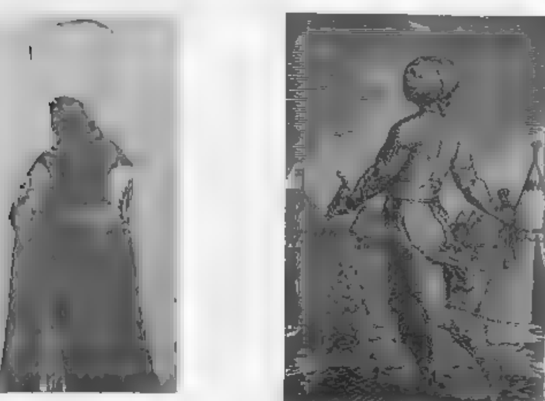


(مخطط اسطنبول (القسطنطينية) في سنة فتح العثمانيين لها وفي الصورة الأخرى منظر المدينة نفسها في أواخر القرن السادس عشر كما تصورها الزائرون الأوروبيون

منظر من سوق الرقيق في اسطنبول



احد الطواشية السود (الخصيان) الذين
كانوا يشرفون على الحريم السلطاني

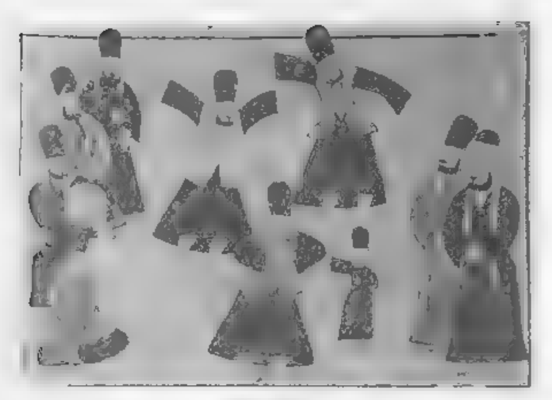


محارب عثماني يرتدي الزي الرسمي لطائفته الحرفية

كان وجهاء اسطنبول ينفقون مبالغ طائلة لشراء المماليك والخدم



لعب الحريم دوراً هاماً في البلاط العثماني ، وفي توجيه سياساته ومن ذلك أن زوجة سليمان القانوني الجركسية قد عملت على ضمان عرش السلطنة ، لأبناء سليمان منها



الدراويش يرقصون

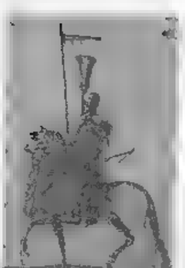


إنكشاري في طريقه للمعركة . لقد كانت كتائب الانكشارية أكثر الكتائب الحربية بثاً للرعب في قلوب الأوربيين في القرن السادس عشر

سليمان القانوني يمتطي صهوة جواده



جندي مشاة مغربي ،
الأصل من الشمال
الأفريقي من الأندلس



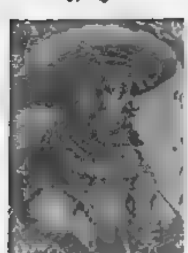
السباهي - وكان
السباهيون شعوبيين بالترقي
ويسمون بالطموح

جندي مشاة من
فلاحي الأناضول



مقاتل عثماني يستحم

ملوك المجر



ماتياس كورفينوس



الشاه اسماعيل الصفوي القائد الشيعي (١٥٠٠ ـ ١٥٢٤)
الذي ادى ظهوره إلى تقسيم العالم الاسلامي ـ على نفس
النحو الذي قسمت الحركة البروتستانتية أوروبا



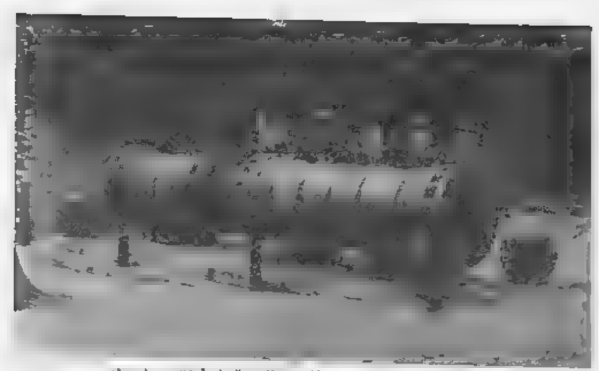
لاديسلاس الخامس



فتاة مجر



ا لويس الثاني

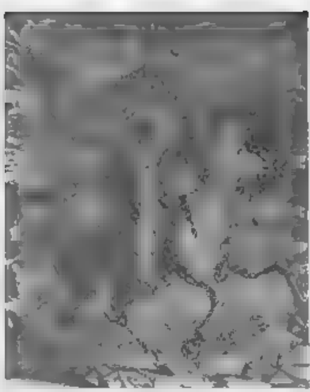


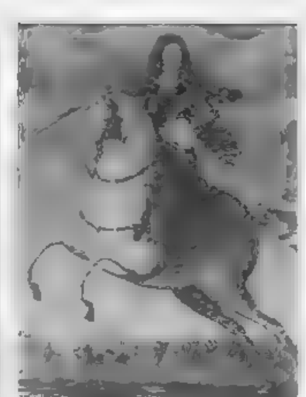
مدفع عثماني من القرن الخامس عشر وكانت هذه المدافع النحاسية مدافع حصار، ويبلغ
وزن الواحد منها ما يزيد على ١٨ طنا ، اما المسورة فهي من قياس ٢٥ بوصة

تاجر أرمني

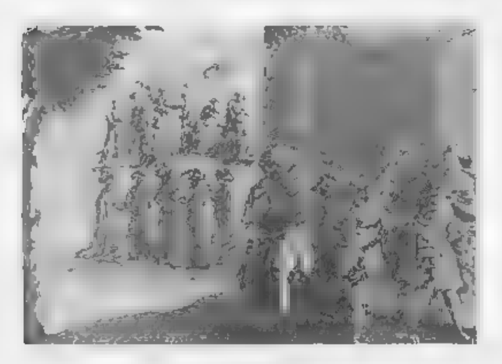
تاجر يهودي

لقد أصبح الاقتصاد العثماني - وليس الجهاز الإداري والحربي فحسب - يعتمد
على غير المسلمين في القرن السابع عشر





يوحنا الثالث سوبيسكي ، ملك بولندا (١٦٢٩ - ٩٦) ورايموندو مونتيكوكولي ، الذي أحرز النصر في معركة القديس جوتار.

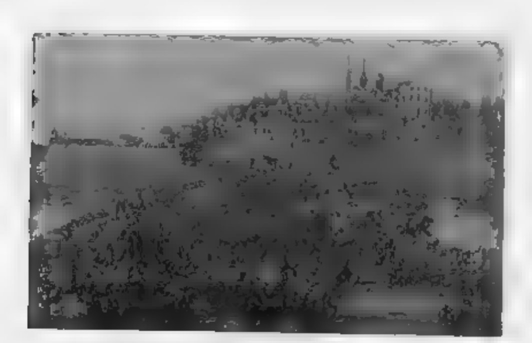


ثمن الفشل : إعدام قرة مصطفى

غلاف كتاب ريتشارد كنولز المعنون تاريخ الترك العام ، والمنشور سنة ١٦٠٣



صفحة العنوان لمعاهدة كارلوفتش الموقعة سنة ١٦٩٩



مقهى خارج أسوار فيينا القرن السابع عشر إنه تأثير تركي (عثماني) ، فقد دخلت عادة شرب القهوة إلى أوربا بنتائج العثمانيين ، وهو أكثر عناصر تأثيرهم دلالة على حد قول كنولز

فترة التراجع العثماني والسيطرة النمسوية :
(١٦٣٠ ـ ١٦٩٩) :

كان ميزان القوى خلال حكم سليمان (القانوني) يميل لصالح العثمانيين ، ومنذ سنة ١٥٧٠ ، كان هذا الميزان متعادلا بين العثمانيين والأوربيين ، اذ كان الموقف الاستراتيجي بينهما مقفلا (متعادلا) وظل كذلك حتى أواخر القرن السابع عشر ، الا ان هذا التعادل (التوازن) بدأ يختل بشكل حاد لصالح النمسويين وحلفائهم • الا أن الجهود التي كان يقوم عليها صدر أعظم قادر ومؤثر ، كانت لا تزال قادرة على احياء النظم الادارية والعسكرية العثمانية وبث الروح فيها ، كما رأينا في الفترة من ١٦٨٩ الى ١٦٩١ ، وهي الفترة التي شغل فيها هذا المنصب مصطفى زاده ابن محمد كوبريلي ، غير ان سلسلة الهزائم العسكرية التي مني بها العثمانيون ، وخسرانهم لمناطق كانت تابعة لهم اظهر أن الروح العدوانية القديمة والقدرة على الاندفاع قد استنفدا ولم يعد العثمانيون بقادرين على ممارستهما ، أما تفسير كون العثمانيين لم يتخلوا الا عن الولايات النائية في امبراطوريتهم الاوربية ، خلال ما تبقى من سنوات في هذا القرن السابع عشر ، فيمكننا أن نعزو ذلك الى حد كبير للمعارك والإنقسامات الناشبة بين القوى الأوربية أكثر مما يمكننا أن نعزوه الى طاقات العثمانيين وامكاناتهم وقدرتهم على المقاومة • لقد شغلت الحكومة العثمانيه عدة سنوات بتكوين قوات مسلحة، تحل محل تلك التي تمزقت اربا أمام أسوار فينا في سنة ١٦٨٣ • وقد أسرع قادة الهبسبرج باستغلال الموقف لصالحهم ، ففي سنة ١٦٨٤ أزاحوا توكولي ، ومن تبقى من مؤيديه عن المدن ذات القلاع في المجر العثمانية ، وفي سنة ١٦٨٦ اجتاحت قوات الهبسبرج بودا Buda العاصمة الاقليمية والقاعدة الاستراتيجية وبذلك تخلصت معظم مملكة المجر القديمة من الاحتلال العثماني وفي سنة ١٦٨٧

دخل العثمانيون الميدان بجيشهم الاحتياطي والتقوا مع النمسويين في موهاكس في نفس الموقع الذي سبق لسليمان القانوني ، فيه ، أن بعثر قوات الملك المجري وقادته المحليين في سنة ١٥٢٦ . غير أن النصر في هذه المرة (١٦٨٧) كان حليف الجانب المسيحي ، الذين اعقبوا انتصارهم باجتياح مولدافيا Moldavia وفاليشيا Wallachia وكرواتيا Croatia ، واجبروا ترنسلفانيا على نبذ السلطة العثمانية . وبينما كان العثمانيون يواجهون ضغطا كبيرا في المجر ، ضرب البنادقة في جنوب شرق اوروبا ، فغزو المورة Morea واستولوا على اثينا وكورنث Corinth وطردوا العثمانيين من معظم دلماشيا بين عامي ١٦٨٦ و ١٦٨٨ ، وخلال سنة ١٦٨٨ استغل الهبسبرج انتصارهم في موهاكس فاستولوا على مدينة بلجراد وقلعتها ، وهي (المدينة) مفتاح الدانوب الأوسط ، ودفعوا بطوابيرهم (كتائبهم) الاستطلاعية حتى فيدن Vidin وبوابات الحديدية Iron Gates في بلغاريا وتيس Nis في جنوب الصرب .

غير أن انسحاب القوات النمسوية الاضطراري من مسرح عمليات الدانوب لمواجهة الأعمال العدوانية التي قام بها الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ، في البالاتين Palestinate في سنة ١٦٨٨ أعطى العثمانيين فرصة التقطوا فيها أنفاسهم ، واحسن مصطفى زاده استثمارها ، ففي سنة ١٦٩٠ استعاد العثمانيون نيس Nis وبلجراد واكدوا نفوذهم في ترنسلفانيا حيث تم تثبيت توكولي كامير . غير أن كل هذا لم يكن الا عمليات لكسب الوقت ، ففي سنة ١٦٩٧ ، كانت الحكومة النمسوية قادرة على سحب كتائب لها من ايطاليا ، لتوظيفها في عمليات شرق أوروبا . وفي هذا العام (١٦٩٧) قام القائد الهبسبرجي الجديد واللامع يوجين السافوي Eugene of Savoy بتجهيز جيش نمسوي جيد الاعداد ومتميز ، انزل بالقوات العثمانية

هزيمة ساحقة في زنتا Zenta على نهر Theiss في ترسلفانيا ، ولقد تضافرت عوامل عدة اقنعت العثمانيين بضرورة البدء في مفاوضات سلام ؛ ومن هـذه العوامل ، قيام الثورات في بلاد العرب والرافدين وصعوبة تمويل حرب كبرى لسنوات طويلة، بالاضافة لمصالح سفير بريطانيا وهولندا ، لقد اصيب الكبرياء العثماني بفقد مناطق كانت تابعة للامبراطورية العثمانية ، وبالقبـول غـير المشروط لهزيمة كبرى على يد القوى المسيحية . ولم يكن من الممكن استعادة الكبرياء العثماني الا اذا تخلت القوات العثمانيـة عن أساليبها التقليدية وبدأت في محاكاة التقنيات العسكرية الأوربية بشكل منتظم ففي هـذه الحالة فقط ، كان يمـكن للعثمانيين أن يأملوا في النصر ، لكن هذا التغيير ، حال دونه وتصدى له ، تمسك العثمانيين بتقاليدهم (١) ، حتى لـو أدت الى ترقيمهم على معاهدة مهينة ، ولان العثمانيين كانوا قد فقدوا أربعة جيوش على التوالى في ميادين المعارك ، فقد كانوا مستعدين للتنازل عن بعض المناطق التابعة لهم لتجنبه مزيد من المتاعب المؤلمة ولنحافظ على تراثهم ومؤسساتهم .

وبتـوقيع مـعاهدة كارلوفتس Karlowitz في يناير سنة ١٦٩٩ تخلى العثمانيون عن معظم المجر ـ بما في ذلك ترنسلفانيا ـ للنمسا ، واعادوا بودوليا Polodia لبولندا ، واعترفوا بحق الروس في احتلال ميناء أزوف Azov وأعادوا معظم دلماشيا والموره وجزر بحر ايجة للبندقية .

المشاكل العسكرية والاقتصادية :

أجمع المراقبون الأوربيون في القرن السادس عشر على الاعجاب بالتنظيم العسكرى العثماني ، أما في حالة حروبه أواخر القرن السابع عشر ـ والتي أشرنا اليها في الصفحات السابقة اجمالا ـ فقد بدأ هذا التنظيم عتيقا غير متمش مع

(١) استخدم المؤلف تعبير Amour propre ويعني حب الذات او احترام الذات ، وقد فضلنا ما اوردناه في المتن العربي للسياق .

العصر ولا يعمل بالكفاءة المطلوبة • فقد فشل العثمانيون — في اللحاق بالعصر ، اذ كانت الطبقة الحاكمة العثمانية غير متعاطفة مع أى تغيير في الأساليب والتقنيات العسكرية التقليدية ، ونتج عن هذه السياسة اضطرابات عامة كانت هي السمة التي وسمت فترة الاضطرابات التقليدية التي أشرنا اليها ، ولم يكن حتى بطرس الاكبر وأمثاله — اذا ما قدر لهم الوصول الى قمة السلطة العثمانية — بقادرين على استخدام سلطاتهم الأوتوقراطية لاغراض ثورية رغم الرغبة في مواجهة هذه الأخطار ، وما كان أى صدر أعظم (وزير أول) بقادر على احداث هذه الثورة نظرا لأنه لو فعل سيكون عرضة دائمة للنقد ، وعرضة للسقوط ، وما كان ليتأتى له ذلك اذا كان مشغولا دوما بمكائد القصر ومؤامرات الحاشية كما كان الاتجاه المعمن في المحافظة الناتج عن التعليم الاسلامي في الامبراطورية العثمانية في هذه الفترة قد غرس في الأذهان أن النجاح والفشل — في الحرب والسلم — مسألة خاضعة لارادة الله (سبحانه) وليست ناتجة عن الآلات في أيدى الرجال ، كما أدى التعليم الاسلامي العثماني في هذه الفترة الى النظر لأى برنامج للتغيير الراديكالي متناف مع التقوى ، ولا جدوى منه • أما على الجانب الأوروبي ، فقد أدت الخبرة الطويلة والقاسية الناتجة عن حرب الثلاثين عاما ، الى أن أصبحت المانيا وسائر دول وسط أوروبا تألف التقنيات العسكرية المتطورة ، والاسلحة المتطورة ، كما تم الغاء التشكيلات العسكرية غير الفعالة والمسببة للهزيمة • لقد برهن سلاح المشاة الجيد التدريب على قدرته على مجابهة سلاح الفرسان مهما كان كثيفا ، وعندما يدعمه سلاح المدفعية ، فانهم يكونون قادرين على ابادة المهاجرين • وكلما كانت هجمة الخيالة عنيفة ، كلما ازدادت خسائرها ، خاصة بالنسبة لسلاح الفرسان قديم الطراز الذى يسود معارك شرق أوروبا سابقا •

لقد كان العثمانيون من بين القوى الأولى التي أدركت أهمية سلاح المدفعية ، ولا يستبعد استخدامهم للمدافع منذ

سنة ١٣٨٩ في معركة كوسوفو الأولى، ولكن في هذه الحالة، كما في حالات أخرى، ظلوا أسرى عاداتهم (١)، فبينما كانت كتائب الفرسان العثمانية لا يمكن مقاومتها في المناطق المفتوحة، الا انها كانت تواجه سلسلة من الصعوبات في مواجهة المدن المحصنة الصغيرة • لهذا وجدناهم يرحبون ويطورون سلاح المدفعية ـ في بداية الأمر ـ كسلاح حصار، خاصة في انشائهم مدافع ثقيلة الوزن واسعة مواسير القذف bore وقد أدى تركيز العثمانيين على مدافع الحصار، الى تشكيل صعوبة عسكرية، نظرا لثقلها الشديد مما كان يعوق حركتها، وقد ظلت هذه المشكلة قائمة في القرن السابع عشر، وكان العثمانيون يصبون المدافع من النحاس الأصفر فقط، وقد يكون هذا راجعا الى أن الامبراطورية العثمانية لم تكن تضم الا مناجم حديد قليلة وفقيرة، بعكس النحاس الذي كان متوفرا في مناجم الأناضول الغنية • وخلال نفس الفترة ـ حيث كانت السويد تقود المسيرة الأوربية ـ أحرزت أوروبا تطورا سريعا وجوهريا في تصنيع مدافع ميدان ذات كفاءة حركية عالية • وعلى هذا فقد حدث فارق خطير في تكنولوجيا المدفعية بين القوات العثمانية والقوات الأوربية، وهو المعنى الذي ركز عليه وتحقق منه ريامندو مونتوكوكوللي Riamondo Montecuccoli محقق الانتصار ـ على العثمانيين في موقعة القديس جوثارد Gothard (٢) فهو يقول :

« هذه المدفعية الضخمة تسبب تدميرا هائلا عندما تطلق قذائفها، لكن تحريكها كان عملية صعبة جدا كما كانت تحتاج لوقت طويل لاعادة حشوها (تعميرها) ولتثبيتها • وأكثر من هذا فهي تستهلك كمية كبيرة من البارود،

---

(١) لم يطوروا سلاحهم ـ هذا هو المعنى المقصود (المترجم) •

(٢) تكتب أيضا سنتجوثار (المترجم) •

بالاضافة لهذا ، فهناك القضدح وتكسر العجلات والعربات العاملة ، بل وحتى تحطم المتاريس أو الحواجز الساندة للمدافع ... اما مدافعنا فهى أيسر حركة واكثر كفاءة ، ومن هنا تأتى ميزات مدافعنا على مدافع العثمانيين » .

لقد كانت المدفعية الفعالة مصدر قوة لا تقدر ، ولكن فى أواخر القرن السابع عشر ، كان العامل الحقيقى الحاسم فى الحروب هو الجيش الضخم المكون من فرق مشاة جيدى التدريب ومزودين بالأسلحة والمعدات .

لقد كان اعداد قوة عسكرية يكلف تكاليف باهظة وهذا يوضح أن الامبراطوريات الكبيرة فى شرق اوروبا هى وحدها التى كانت قادرة على تحمل نفقات اعادة هيمنتها على الامارات الصغيرة التى كانت تتمتع بقدر من الحكم الذاتى والاستقلال ، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، عندما كانت كل القوى الأخرى تواجه صعوبات داخلية قاسية ، فالمشكلة الرئيسية التى واجهت حكومات كل شرق أوروبا هى الموارد الاقتصادية والبشرية لتكوين جهاز حرب فعال ، وكانت الخصوصيات المحلية فيما يتعلق بالبيئة الدينية والثقافية والاجتماعية تؤثر فى الوسائل المستخدمة لتحقيق ذلك ، كما كانت مقاييس النجاح مختلفة وفقا لاختلاف هذه الخصوصيات المحلية ولكن الهدف العام كان واحدا ، سواء بالنسبة للأورثودكس الرومانيين أو الكاثوليك الهبسبرج ، أو سلاطين آل عثمان المسلمين .

وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر اعتمد العثمانيون على اداتين كانتا الأساس الاقتصادى والمالى لمؤسستهم العسكرية ، أولهما نظام التيمار والحصول على الغنائم والاسلاب ، ورغم الضغط المستمر واسع النطاق ، الناتج عن المصالح المكتسبة التى دفعت البعض الى تشجيع مبدأ التوريث، الا أن الاقطاع غير القابل للتوريث والمخصص للفرسان المسلمين خلال حياتهم أو خلال فترة خدماتهم الفعلية ــ هذا النظام ظل حيا خلال القرن السابع عشر فى

بعض المناطق المختلفة في الامبراطورية العثمانية حيث استمر وجنود الزراعة في امداد المقاتلين العائدين الى اراضيهم شتاء بالتموينات والمؤن استعدادا للقتال •

فالجيوش العثمانية في المرحلة الكوبريللية كانت تضم فرق فرسان كبيرة كانت تقضي الشتاء في المدن الكبيرة وتعيش على عائد عقاراتها الزراعية كما كان يفعل أسلافهم منذ عهد سليمان القانوني ـ لكن كتيبة أو فرقة من هذه الكتائب أو الفرق ، كان الزمن قد تجاوزها ، نظرا للتطورات التكنولوجية الجديدة والتنظيمات العسكرية المستحدثة ، وحتى الاصلاحيين من آل كوبريللي لم يحدثوا تاثيرات هامة لترميم واصلاح نظام الاقطاع العسكري (اقطاع الفرسان) بالماء تلك الاجراءات والتنظيمات ـ التي لا تخصى مساوئها ـ المتعلقة بنظم حيازة الأرض في الامبراطورية العثمانية ، والتي جرى اعتمادها في الأيام الخوالي •

أما الغنائم والأسلاب ـ كما رأينا ـ فلم تعودوا متوافرتين بما فيه الكفاية لتمويل مشروعات تدريب وتمويل واطعام وتجهيز جيش ضخم من العساكر المحترفين فالحكام العثمانيون في القرن السابع عشر ، مثلهم مثل نظرائهم في موسكو وكراكوف Cracow وفيينا ـ لم يعد امامهم بديل عن الأسلاب والغنائم الا فرض الضرائب النظامية لتكون موردا أساسيا للتمويل - ولم يكن من الممكن تحصيل الضرائب الا بجهاز اداري تدعمه قوة عسكرية لمواجهة سكان المدن والفلاحين والارستقراطية القابعة في الأماكن النائية ، وكان تحصيل الضرائب من هذه الارستقراطية يتم نادرا وفي المناسبات • وبينما كانت القوات المسلحة ضرورية لتحصيل الضرائب ، فان تحصيل الضرائب كان ضروريا لتدعيم وتقوية القوات المسلحة - انها دورة اذن ، ولا يمكن توظيف هذه الدورة بفاعلية الا اذا كان المسئولون قادرين على التاكد من أن الأموال المجموعة والمواد المجهزة (مثل

المدافع والبارود والملابس والأغذية وغيرها كالمخالي ــ أو حقائب الظهر ــ وعصى القادة) (١) تتخذ طريقها بالفعل الى القوات المسلحة ٠

ونتيجة انتشار الاقتصاد النقدى واتساع مدى الزراعة التجارية تغيرت الظروف في شرق أوروبا بما في ذلك المناطق العثمانية دون تدخل كبير من السلطات الرسمية ٠ وكانت هذه التطورات ثمرة التنسيق بين التجار في أوروبا العثمانية عامة من يونانيين ويهود وأرمن وصرب ٠ مع ملاحظة هيمنة وسيادة اليونانيين وأصحاب الأراضى (الرسميين العثمانيين) في القرن السابع عشر ، وقد ساعد على هذا ما كان معروفا عن هذه المنطقة منذ العصور الوسطى من ظروف جغرافية مواتية ، فالفائض الزراعى من لحوم وغلال كان يصدر عبر مسافات طويلة الى المراكز الحضرية والى اسطنبول بالذات، حيث كانت هذه الصادرات تسهم في دعم المؤسسة العسكرية العثمانية ، أما المناطق الداخلية كترنسلفانيا والمجر فلم تكن تتبوأ في هذه الزراعة التجارية مكانا متقدما ، نظرا لصعوبة جلب منتجاتها للسوق ، ومع هذا فان الزراعة التجارية قد اتسع نطاقها بسرعة وبشكل متواصل خلال القرن السابع عشر في معظم سهول أوروبا الشرقية ومناطقها المحيطة بالأنهار ٠ ونتج من هذه العمليات التجارية ، ظهور الدخل النقدى وهذا الدخل بشكل قوة أكثر مرونة وأقوى تركيزا، غير أن هذا الدخل النقدى كان دائما غير كاف لمواجهة الحاجات المتزايدة للدولة فمدت الى مزيد من الضرائب تفرضها ، والرسوم تطلب دفعها ، مقابل الحماية ، وزاد الطلب على الرشاوى ، وكانت هذه الأموال المجموعة من مصدر أو آخر من المصادر التى أشرنا اليها آنفا ، تستخدم في بناء مسجد او اقامة مهرجان عام أو تجهيز جيش ٠

الى هنا ، وكانت الحكومة العثمانية ــ على الأقل ــ في وضع يماثل أوضاع أى من نظيراتها في شرق أوروبا ، من

---

(١) حرفيا : عصا للارجالية التى يحملها القادة في الميدان (المترجم) ٠

حيث انشاء نظام عسكرى ذى طابع جديد ، وكانت القوات الضخمة التى قادها أحمد كوبريلى وقره مصطفى الى المجر مكونة بشكل أساسى من جيش محترف من المشاة مستقدم من المناطق الحضرية فى مصر واليونان والبلقان ومن المناطق الريفية فى الأناضول ، وكانت هذه القوات تضم قوات فرسان خفيفة كانت أكبر من أى قوة فرسان أخرى يضمها أى جيش من جيوش أوروبا المزامنة .

وما كان ينقص الممارسات العثمانية هو الترابط المنطقى والتناسق الماهر فى العمليات البنكية والمالية التى تدعم النظام العسكرى ، لقد كان ثمة فاصل عريض فى المجتمع العثمانى بين مهارات الحكم والمهارات التجارية ، فقد سلم العثمانيون العمليات المالية والتجارية فى امبراطوريتهم لرعاياهم من غير المسلمين ، الذين كانوا - اى العثمانيين - يحتقرونهم ، لذا فقد كان هؤلاء النصارى واليهود يمارسون القوانين العثمانية على نحو سرى ، ولكنهم لم يكونوا سبب الاضطرابات التى حاقت بالدولة العثمانية .

وفوق هذا ، فان المؤامرات المالية التى كان ينسجها الماليون اليونانيون واليهود والأرمن حول المحاربين والاداريين العثمانيين قد ضيقت الخناق على هؤلاء المحاربين والاداريين ، فلم تعد اسطنبول قادرة على اطعام نفسها الا من خلال الأجهزة المالية المعقدة (للماليين اليونانيين واليهود والأرمن) ولم يعد الجيش العثمانى قادرا على اعداد وتجهيز جنده بدون العمل من خلال هؤلاء الماليين . لكن حقيقة فشل المجموعات الحاكمة العثمانية فى فهم أسلوب تشغيل هذه الأجهزة المالية ، جعلتهم يميلون الى الظن فى أن أسلوب التهديد وممارسة العنف يمكنهم من كشف الأموال السائلة الضرورية لمواجهة أزمات الامبراطورية المتراكمة .

لقد كان الضعف الأساسى الذى اعترى المجتمع العثمانى فى القرن السابع عشر يتمثل فى الفشل الكامل فى فهم الصلة الوثيقة بين أجهزة الحكم من ناحية والمصالح المالية والتجارية من ناحية أخرى - خاصة اذا ما قارنا هذا مع مجتمعات غربية

اوروبا حيث كانت الحكومة ورأس المال والسلطة ، متداخلة بعضها مع البعض الآخر ومترابطة جدا ، وموجهة جميعا نحو قيم مشتركة وأهداف واسعة . وكان هذا الترابط مفتقدا في الامبراطورية العثمانية .

ففي أواخر القرن السابع عشر ، أساء العثمانيون أيضا وبوجه عام ادارة تنظيم الامدادات العسكرية ، بشكل فعال ، ولم يحسنوا استثمار نجاحاتهم العسكرية ، ونتج هذا من رفضهم الدائم لالغاء الاجراءات والتنظيمات التي كانوا قد احرزوا من خلالها انتصاراتهم الأولى في أزمنة سابقة كانت أقل تعقيدا . فقد كانت غارات السلب المنتظمة على المناطق الحدودية قد مكنت العثمانيين في القرن السادس عشر من العيش على ساحات واسعة من الأرض ، مما هيأ لهم محصولا كبيرا ، وما عاد هذا متاحا للقوات العثمانية في القرن السابع عشر خاصة اذا ما أخذنا في الاعتبار ان القوات العثمانية في هذا القرن السابع عشر ، كانت اكبر حجما ، اذ كانت غالبا قد بلغت ثلاثة أو اربعة أضعاف ما كانت عليه في القرن السادس عشر ، بالاضافة الى انها كانت تمارس عملياتها العسكرية في مناطق أقل سكانا كاوكرانيا البولندية أو المناطق المجرية المنعزلة الخالية من السكان . أضف الى هذا أن الحكومة العثمانية لم تتخذ اية خطوات لتحسين أو تحديث الميرة (نظام تمويل الجيش بالطعام) كما أن نظام تزويد الجيش بالأسلحة وامداد الفرق الخاصة ، كالعاملين في التعدين والمهندسين العسكريين — بالمهمات اللازمة ، كل هذا كان معرضا للاهمال ، ولم يكن منتظما . اما الهبسبرج ، فانهم قد أحسنوا استخدام الموارد التقنية والفنية في ألمانيا وايطاليا وبوهيميا لانتاج الأدوات والتجهيزات اللازمة للمعارك .

لقد كانت الطاقات الحرفية والصناعية في استنبول متعددة وماهرة ، ولكنها كانت ضيقة التفكير متسمة بالجمود والمحافظة ، وكانت قدرتها على الابداع أمرا مشكوكا فيه .

فقد كان وجود نظام الطوائف الحرفي ، كنظام قوى ومغلق (بمعنى عدم امكان دخول أعضاء جدد ضمن أفراد الطائفة الحرفية بسهولة) فى المجتمع العثمانى لا يشجع على أية مشروعات أو اختراعات أو ابداعات . فقد كانت معظم الطوائف الحرفية مدمجة ادماجا كاملا بجماعات الانكشارية الذين كانوا يحافظون على تقنياتهم العسكرية التقليدية ويغارون عليها ، مما حدا بهم الى رفض أية اقتراحات لتحسين التكنولوجيا العسكرية التى ترجع أصولها الى جماعاتهم الحرفية • وعلى هذا فقد أجبرت الجيوش العثمانية فى القرن السابع عشر ، على استخدام المواد غير المقننة أو المواد الاقل جودة •

ولقد أظهرت معركة القديس جوثارد Gotthard فى سنة ١٦٦٤ تفوق جيش الهبسبرج الجيد التدريب على أى جيش عثمانى . الذى كان يظلم امداده وتدريبه وتمويله ، عتيقا اعتباطى التخطيط اذا ما قورن بالنظم الهبسبرجية ، ومرور ما يقرب من عشرين عاما دون أن يترجم التفوق الهبسبرجى الى انتصارات متواصلة يرجع فى المقام الأول الى خلل فى قيادة الهبسبرج العليا ، متمثلا فى تداخل السلطات ، وقد تدارك الهبسبرج ذلك فى معركة سنة ١٦٨٣ عندما انسحب حلفاء النمسا على التوالى وبسرعة من الجيش النمسوى الذى كان يطارد العثمانيين المتراجعين عن فيينا ـ وبذلك وجد الهبسبرج أنفسهم يديرون بمفردهم وبفرقهم العسكرية وحدها ، حربا كبرى ، وقد أدى هذا الى إصلاح القيادة العليا فاصبحت اكثر توحدا وتآلفا • وما دام هذا قد حدث ، فلم يكن ثمة ما ينقذ العثمانيين من الانسحاب الى جنوب الدانوب ، والى الشرق من جبال كارباثيان •

المشكلة المجرية :

لقد ترك العثمانيون أثناء احتلالهم لمجتمعات شرق أوروبا ، أو عبورهم لها ، علامات عميقة ودائمة • وحتى

عند تراجعهم ، كانوا قادرين على ممارسة ضغوط وأخذ زمام المبادرة بهجومات مضادة ، تركت تأثيرات في تشكيل تاريخ بلدان أوروبية ، هي الآن (أواخر القرن السابع عشر) خارجة عن نطاق حكمهم المباشر • وظهر هذا جليا من خلال التطورات التي حدثت في المجر خلال التسعينات من القرن السابع عشر •

وعندما بدأت علامات الاحياء والتحديث تظهران في مسار التاريخ العثماني خلال منتصف القرن السابع عشر ، اتخذ الهبسبرج حذرهم بانشاء ادارة عسكرية خاصة على طول الحدود الجنوبية للجانب الذي يخص النمسا من مملكة المجر ، وهي الحدود موضوع النزاع كما اتخذ الهبسبرج ترتيبات محلية ، على نسق نظام Militargrenze الكرواتي القديم ، وان كانت الهيمنة الادارية الان لفينا ، وانتهى الوضع شبه الاستقلال الذي كانت تمارسه هذه المناطق من خلال مجلس تشريعي اقليمي • وقد وطن الجنود الصربيون والكرواتيون بشكل مستمر في هذه الأراضي وتم تنظيمهم في فرق كما تم اعفاؤهم من الضرائب العادية • ولهذا قامت مجتمعات صربية متعددة في جنوب المجر ، وكانت هذه المجتمعات الصربية ذات ولاء عميق للهبسبرج ، كما كانت تتمتع بحكم ذاتي خاص تحت ادارة الأساقفة الأورثوذكس وبطريارك الصرب •

لقد نقلت الحروب النمسوية ضد العثمانيين خلال الثمانينات من القرن السابع عشر ، خط المواجهة بعيدا الى جنوب وشرق حدود هذه المستوطنات التي سبق انشاؤها ، ولكن عندما كانت حكومة فينا مضطرة في عامي ١٦٩٠ و ١٦٩١ لسحب فرقها من شرق أوروبا لمواجهة العدوان الفرنسي من الحدود الغربية ، انتهز العثمانيون هذه الفرصة لشن هجوم مضاد ودمرت معاركهم هذه المستعمرات الصربية • وقد أشرف البطريارك الصربي على خروج اللاجئين الجماعي زاحفين شمالا من أيرشيته في Pec الى كارلوفتس ، وكان الزاحفون مع البطريارك شمالا يبلغون ١٠٠٫٠٠٠

من الرجال والنساء والولدان • وفى البداية ، كان ينظر لهذه الهجرة على أنها مؤقتة ، لأنهم كانوا ينتظرون تدبيرا انتقاميا نمسويا • ولكن استمرار النزاع والاضطراب فى غرب أوروبا أخر الهجوم النمسوى المضاد لبضع سنين ، فاستقر الصرب أسفل شمال الدانوب ، وتمتعوا بنظام شبه مستقل • وكان وجود هذه الجماعات التى تحكم حكما خاصا على الأرض المجرية ، أمرا غير مقبول للنبلاء المجريين (الماجيار) كما كان وجودهم يشكل خطورة للزعماء المحليين فى مملكة المجر ، حيث يهدد سيطرتهم العسكرية ، كما كانوا يمثلون نموذجا (مثلا) خطرا لعبيد الأرض الذين يعتمد عليهم الزعماء المحليون فى تحصيل دخولهم •

ولقد ارتبط غضب النبلاء المجريين وشكهم فى هذه الهجرة الصربية بالنشاطات العثمانية • فقد كانت احدى ملامح الممارسات العثمانية التى لم يعترها تغير من القرن السادس عشر حتى القرن السابع عشر ، أنها قوة شهوفة بالتدمير والتخريب شغفا يفوق الوصف • انها (الرعب الأعظم فى العالم) تلك الحقيقة التى عبر عنها رتشارد نولز Knolles ، الكاتب الانجليزى فى العصر الاليزابيثى من خلال وصفه لتقدم الجيش العثمانى ، وذلك فى كتابه التاريخ العام للترك الذى نشره فى سنة ١٦٠٣ : (باستثناء الحالة التى كان فيها العثمانيون يرسلون حملات تجميع الرقيق ، فانهم نادرا ما كانوا يحملون أنفسهم مشقة الاحتفاظ بالأسرى (١) كما كان اسرافهم فى استخدام الاكنجز Akinjis ــ وهم فرسان تتر خفاف يستخدمون فى مقابل مكافأة من الأسلاب والأسرى ــ يؤدى الى توسيع دائرة الدمار عدة أميال فى مختلف الاتجاهات حول الخط الذى يقفون عنده (خط سارس) • ففى سنة ١٦٨٣ ، على سبيل المثال ، كان تقدم قوات قره مصطفى الاستطلاعية الى

(١) يقصد انهم يقتلون الأسرى (المترجم) •

بوابات فينا ، سابقا لوصول القوات العثمانية الرئيسية بأسبوع .

ولم تؤد تجربة الهزيمة المريرة والتراجع الى تعديل العقلية الفردية الهمجية التى كانت تتحكم في قيادة الجيوش العثمانية ، والتى كانت تؤدى الى تخريب المناطق التى تمر بها هذه الجيوش ، لقد كان جنوب المجر مازال يعانى من الخراب وقلة السكان منذ اجتياح سليمان القانونى له ، وها هو مرة أخرى ـ جنوب المجر ـ يعانى من الخراب والاضطراب على ايدى العثمانيين خلال معارك الثمانينات والتسعينات من القرن السابع عشر . تلك كانت هى الصورة الحقيقية للأراضى التى لا تنبىء بخير كثير ، والتى الت للهبسبرج بموجب معاهدة كارلوفتس ، لقد كانت مروجا تتناثر سكانها ؛ تغمرها المستنقعات ، وتعلوها الكثبان . وفي ظل هذه الظروف كان من المتعذر اعادتها الى حالة الرخاء كما كانت ، فحتى منتصف القرن الثامن عشر كانت الدواب (التى كانت غالبا ماشية عجفاء يتركونها بدون زرائب صيفا وشتاء) تكون الصادرات الوحيدة الهامة للسهول المجرية ؛ كما كانت الزراعة هى وسيلة الاعاشة في معظم المناطق . وكان عبيد الأرض يعتمدون أساسا على ما ينتجونه محليا ، ولا يستهلكون الا قليلا مما لا تنتجه ايديهم . وقد صبغت هذه الظروف ـ الممثلة فى هذا التراث المرعب المخلف من انتصار العثمانيين وتراجعهم على سواء ـ نظرة النبلاء المجريين الأقل مرتبة بشكل أبدى ، اذ هاجر الزعماء المحليون الكبار الى صالونات ومحافل فينا وغدوا نمسويين وضعا وثقافة أما بالنسبة للنبلاء الأقل مرتبة ، فلم يكن أمامهم طريق مماثل للفكاك وتدهورت أحوالهم فى ظل المحلية الفقيرة الضيقة التى تمثلت فى العودة الى الشكل التقليدى للمجتمعات الريفية التى كانوا يحكمونها ، ولم يكن أمامهم من سبيل لتحسين أوضاعهم وأوضاع هذه المجتمعات . ولم تكن ثقافتهم تتميز بالأناقة والصنعة ، كما كانت ثقافة هبسبرج فينا التى يتصف أصحابها بالإنغماس فى الملذات

والاغـراق فى الترف مـع الـولاء والطـاعة للـكاثوليكية الرومانية .

وأخيرا فقد تقلصت حركة المد والجزر فى الفتـوحات العثمانيه الى الجنوب من الدانوب ، ولم يعد ثمه خطر خارجى يجبر نبلاء المجر على طلب الحماية مما ادى الى تراخى القبضه النمساوية ، مما ادى الى ظهور مشـكلة معقدة فى كيفيـة استيعاب هذه النقلة او هذا التحول ، اضـف الى هـذا عبئا جديدا على الجهاز الادارى وجهاز الحكم النمسـوى خـلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وهو استيعاب كل القوى المحلية ودمجها فى البنية الاجتماعية والسياسية وربطهـا بالسلطة المركزية فى الدولة النمساوية .

لقـد فرضت الانتصـارات العثمانية المشـكلة المجرية الهمجية على الهبسـبرج منذ العشرينات من القرن السـادس عشر . كما ان المعارك التى صحبت فترة انسحاب العثمانيين وهزائمهم بين عامى ١٦٨٢ و ١٦٩٩ قد انتجت مشـاكل اجتماعية وتدهورا اقتصاديا فى نفس المنطقة ، مما عمق من ابعاد المشكلة وحجب أى حل عاجل لها .

تراجع القوى العثمانية (١) :

كانت معاهدة كارلوفتس Karlowitz علامة ونقطة حاسمة فى التوازن العسكرى بين اوروبا والعـالم الاسلامى ، فقبل هذه المعاهدة بستة عشر عاما كان العثمانيون قد أثبتوا انهم مازالوا قادرين على تحـدى الغـرب بفاعليـة شديدة ، أما بعد كارلوفتس ، فقـد وجدت الامبراطورية العثمانية نفسها فى موقف دفاعى ونادرا ما كانت قادرة على أن تكون ندا للقوات المسلحة لأى كيان أوروبى . ولقـد أسهمت الفـوضى الداخليـة الخطيرة ممثلة فى قيام حـكام

---

(١) الترجمة العربية (تراجع الاسلام (وقد اثرنا ما اوردناه فى المتن (المترجم) .

الولايات المتمردين باغتصاب الاستقلال المرة تلو المرة ، وانتشار اللصوصية وقطع الطرق ، وانسامها مع الحركات الثورية في المناطق الأوربية التابعة للدولة العثمانيه في حركة قومية — أسهم كل هذا في الضعف العسكري الذي حدق بالامبراطورية . وقد شهدت نفس الفترة عجزا وتدهورا حاقا بالامبراطوريتين الاسلاميتين الاخريين الكبيرتين وهما الامبراطورية المغولية بالهند ، والدولة الصفويه بفارس •

وقد أدت هذه الفوضى الناشية في العالم الاسلامي ، الى افساد الحياة الاقتصادية ، وازاحت عصر الرخاء فقد كان تغير بنية التجارة — خاصة مع زيادة الحاجة الى المنسوجات الأوربية وغيرها من البضائع المصنعة — سببا في اضعاف روابط (نقابات) الصناعات اليدوية في المدن الاسلامية ، وفي القرن الثامن عشر وجدنا اقتصاديات العالم الاسلامي في كل مكان ، في حالة انكماش امام الضغط الاوروبي •

ولم يكن ثمة شيء من الماضي ، أعد المسلمين وهيأهم لمثل هذه المآسي والنكسات • فحتى نهاية القرن السابع عشر ، كانت نتيجة الصراع الطويل بين الاسلام والمسيحية في صالح الجانب المسلم غالبا • وهذا أمر متوقع من رجال الله الذين حقق نبيهم (صلى الله عليه وسلم) النصر في معاركه ضد الكفرة • لكن هذا التراجع المفاجئ في مسار التاريخ الذي واجه المسلمين كان يبدو مشكلة تدعو لليأس ولا حل لها ، هل تخلى الله عنهم ؟ اذا كان الامر كذلك ، فلماذا ؟ ومهما كان نقص عقيدتهم فكيف يمكن لله (سبحانه) أن يؤاثر المسيحيين ؟ حقيقة ، لقد شهد التاريخ العثماني قبل سنة ١٦٩٩ ، كثيرا من المشاكل والمآسي السياسية ، ولكنها — دائما — كانت مؤقتة ، لقد كان رد الفعل الغالب للمشاكل والمآسي التي بدأت في أواخر القرن السابع عشر ، غير سريع ولا حاسم ، وانما تلكأ حتى أتت العاصفة لتطفيء الشمعة ذاتها ، بينما كان التنبيش في الماضي بحثا عن نموذج أو مثل أصبح غير قابل للتحقيق في ظل الظروف الحالية • ولم

تستطيع العاصفة (حركة التجديد) فرض الاصلاح ، لذا فقد بذلت محاولات غير منضبطة وخرقاء لتطبيق نظم الحضارة الأوربية التي بدت للعثمانيين سبب النجاح . وكانت أكثر المحاولات وضوحا ، تلك التي اتخذت في مجال التكنولوجيا العسكرية ، فمنذ سنة ١٧١٦ بذل الرسميون العثمانيون جهودا دؤوبة لاعادة بناء القوات المسلحة التركية على النسق الاوروبي ، ولكن — لأكثر من قرن — كانت نزعات الانكشارية المتحفظة والعنيدة ، وموقف علماء الدين — تجهض اى مشروع في هذا المجال ، فالتغيرات التي كان يبداها سلطان مصلح أو صدر أعظم كانت تعرقل بسبب اضطرابات العامة أو ثورات الانكشارية . فالثورات والاضطرابات المتوالية في الداخل ، والكوارث الناجمة عن الحروب المستمرة ضد القوى الأوربية ، عاقت السلاطين عن بذل الجهود اللازمة لتدعيم وتقوية المؤسسة العسكرية . فلم يعد فرد مهما كان سلطانه وجبروته بقادر على فرض الاصلاح من عل . ولهذا ظل الاصلاح جهيضا (ولد ميتا) فغالب المسلمين كانوا في حالة ذهول واغماء غير قادرين على المواجهة سواء على المستوى الفكرى أو التطبيقى في ظل هذه الظروف الجديدة التى أوجدها التفوق الأوروبي العسكرى والثقافى ، فقد ساد الجمود الأعمى ، وزاد الالتصاق بنظام اجتماعي بدأ يتلاشى ، متمسكين بخرق بالية حتى منتصف القرن التاسع عشر .

ثبت بأهم الوقائع التاريخية

١٢٨١م موت زعيم الغزاة أرطغرل ، مؤسس الامارة العثمانية فى شمال غرب الاناضول .

١٣٢٦ العثمانيون يستولون على بروصا Brusa
الأمير أورخان يتخذ لقب سلطان .

١٣٢٩م استيلاء العثمانيين على نيقية Nicaea

١٣٣١ـ١٣٥٥ انشاء الامبراطورية الصربية على يد ستيفان دوشان
[redacted]

١٣٣٧م استيلاء العثمانيين على نيكوميديا Nicomedia

١٣٤٥م الأتراك العثمانيون يدخلون أوروبا كجنود مرتزقة لحساب البيزنطيين .

١٣٥٠م الأتراك (العثمانيون) يستولون على سالونيكا

١٣٥٢ العثمانيون يهزمون الصرب فى معركة ماريتزا الأولى (معركة نهر ماريتزا Maritza)

١٣٥٤م العثمانيون يستولون على ادريانبول

١٣٦٢م العثمانيون يفتحون ثراقيا Thrace

١٣٦٣م الامبراطورية البيزنطية تعترف بممتلكات السلطان العثمانى فى أوروبا .

١٣٦٦م اعلان ادريانبول عاصمة رسمية للدولة العثمانية .

١٣٧١م العثمانيون يستولون على نيس Nis ويهاجمون بلغاريا ، بعد انتصارهم الثانى فى معركة نهر ماريتزا Maritza الثانية .

١٣٨٩م العثمانيون يسقطون امبراطورية الصرب فى معركة كوسوفو Kosovo الأولى ·

١٣٩٣م العثمانيون يجتاحون بلغاريا ·

١٣٩٦م الأتراك العثمانيون يدفعون الحصار الأول عن القسطنطينية ليسحقوا الحملة الصليبية ضد نيكوبولس ·

١٤٠٢م العثمانيون يرفعون الحصار الثانى عن القسطنطينية عندما غزا المغول آسيا الصغرى ·

١٤٠٧م تأسيس بنك القديس جورج فى جنوه ·

١٤٢٨ تأسيس كتائب الانكشارية ·

١٤٤٤م العثمانيون يهزمون الحلف المجرى فى معركة فارنا Varna

١٤٤٤-١٤٩٠ ظهور مملكة المجر القوية على يد هنيادى Hunyadi (مات سنة ١٤٥٨) وماتياس كورفيلوس Corvinus

١٤٤٨م العثمانيون يهزمون الحلف المجرى فى معركة كوسوفو الثانية

١٤٥١م العثمانيون يبدأون الحصار الثالث للقسطنطينية ·

١٤٥٢م الجنويون يفقدون فوكيا phocaea لصالح العثمانيين ·

١٤٥٣م سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين وجعلوها عاصمة للامبراطورية ·

١٤٥٦م الجيش العثمانى يفشل فى الاستيلاء على بلجراد ·

١٤٥٦-١٤٦٢م الجنويون يخسرون مستعمراتهم الجزرية فى بحر ايجة لصالح العثمانيين ·

١٤٦٣م العثمانيون يفتحون البوسنة ·

١٤٦٤م فشل الحملة الصليبية التى كان يخطط لها البابا بيوس الثانى·

١٤٦٩م اتحاد المملكتين الأسبانيتين تحت حكم فرديناند وايزابيلا ·

١٤٧٠م البندقية تفقد يوبيا Eupea لصالح العثمانيين ·

١٤٧٥م العثمانيون يستولون على كافا Caffa وسائر الموانىء الجنوبية فى البحر الأسود ·

١٤٧٩م العثمانيون يفتحون البانيا

١٤٨٢ العثمانيون يفتحون الهرسك Herzegovania

١٤٨٤م العثمانيون يحكمون السيطرة
على مدخلي الدانوب ودنيستر

١٤٩٠ـ١٥٢٦م الارستقراطية المجرية (البويرية) تستعيد مواقعها (نفوذها) على حساب الملك لاديزلاس (مات ١٥١٦) والملك لويس .

١٤٩٢م سقوط غرناطة / كولمبس يكتشف العالم الجديد .

١٤٩٤م الملاحون البرتغاليون يصلون للهند عن طـريق الكيب (رأس الرجاء الصـالح) .

١٤٩٦م العثمانيون يحكمون القبضة على مونتنجرو (الجبل الأسود) Montenegro البنادقة يستولون على قبرص .

١٤٩٩ـ١٥٠٨م الشاه اسماعيل الصفوي يؤسس امبراطورية شيعية في ايران والعـراق .

١٥٠٢م اسبانيا تتبع سياسة التنصير القسري لرعاياها المسلمين .

١٥١٢ـ١٥٢٠م تولي سليم الأول السلطنة .

١٥١٤م العثمانيون يقمعون ثورة شيعية في الأناضول ويهزمون الفرس في موقعة جالديران .
الفلاحون المجريون يثورون .

١٥١٦م شارل الخامس ملكا على اسبانيا .

١٥١٦ـ١٥١٧م العثمانيون يفتحون مصر وسوريا .

١٥١٧م حركة (ثورة) لوثر في المانيا .

١٥١٩ـ١٥٥٨م شارل امبراطور للامبراطورية الرومانية المقدسة .

١٥٢٠ـ١٥٦٦م سليمان القانوني (الفاخر) سلطانا .

١٥٢١م سليمان القانوني يستولي على بلجراد .

١٥٢١ـ١٥٢٢م فرديناند الأول يمنح حق الاشراف على أرض اسرة الهبسبرج .

١٥٢٢م العثمانيون يستولون على رودس من فرسان القديس يوحنا .

١٥٢٦ العثمانيون ينتصرون في معـــركة موهاكس الأولى ويحتلون مملكة هنجـــاريا (المجـــر) ·

١٥٢٦ـ١٥٦٤م فرديناند الأول ملكا على النمســـا ، والمجر البوهيمية (امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة منذ ١٥٥٨) ·

١٥٢٨م اندريا دوريا يصبح أدميرالا (أمير بحر) اسبانيا ، وحاكمـا مؤثرا لجنـــوة ·

١٥٢٩م حصار العثمانيين الأول وغير الناجح لفينا / مارتن لوثر يدعو لحروب صليبية ضـد العثمانيين ·

١٥٣٤ـ١٥٤٦م ظهور خير الدين برباروسا كأدميرال للأسطول العثماني وزعيما للفريق الغالب بالحرب ·

١٥٣٥ حملة شارل الخامس لاستعادة تونس ·

١٥٣٧م القوات البحرية العثمانية تهاجم جنوب ايطاليا وكورفو ·

١٥٣٨م معركة بريفيزا Preveza البحرية غير الحاسمة · سليمان القـانوني يتخذ لقب خليفة ·

١٥٤١م ضم المناطق المجرية التي فتحها ســـليمان القانوني رســـميا للامبراطورية العثمانية ·
فشل حملة شارل الخامس ضد الجزائر ·

١٥٤٣م حلف تركي فرنسي / معركة عثمانية ناجحة في هنجاريا (المجر)

١٥٤٤م خير الدين برباروسا يهاجم سواحل ايطاليا الغربية ·

١٥٤٧م فرديناند الأول يعترف بالسلطة العثمانية في المناطق المجـــرية المفتوحة (التي فتحها العثمانيون) ·

١٥٥١ـ١٥٦٥م سنوات النشاط البحري للقرصان التركي (المجـاهد) أمير البحر طورغود المتمركز في طرابلس الغرب ·

١٥٥٤م يوسف ناسي ينتقل من ايطاليا الى القسطنطينية ·

١٥٥٥م صلح اوجزبرج ينهي الصراع الديني في ألمانيا ·

١٥٥٦ـ١٥٩٨م فيليب الثاني ملكا على اسبانيا ·

١٥٥٧م افلاس التاج الاسـبانى ·

١٥٥٩م مساعدة كاتو كمبرسيس لتخلص الهبسبرج من الصراع مع البيت المالك الفرنسي ·

١٥٦٠م موت اندريا دوريا / هزيمة عسكرية وبحرية اسبانية في جزيرة جربه ·

١٥٦٤ـ١٥٦٩م ثورة الفلاحين ضد الترك في مقدونيا ·

١٥٦٥م حصار عثماني فاشل لجزيرة مالطة ·

١٥٦٦م العثمانيون يستولون على خيوز Chios من الجنويين / السلطان سليم الثاني يمنح يوسف ناسي لقب دوق ناكسوس Naxos / معركة تركية حيمة الجدوى في هنغاريا ·

١٥٦٨ـ١٥٧٠م ثورة المسلمين الأسبان Moriscos في اسبانيا ·

١٥٦٩ـ١٥٧٠م فشل الحملة العثمانية على استراخان ·

١٥٧٠م العثمانيون يخرجون البنادقة من قبرص ·

١٥٧١م هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو البحرية / ثورة ضد الحكم العثماني في اليونان وجزر بحر ايجة ·

١٥٧٣م انسحاب البنادقة من الحلف الأوروبي ضد العثمانيين / التجار الانجليز يدخلون بفعالية ميدان تجارة البحر المتوسط / ثورة الفلاحين ضد الهبسبرج في كرواتيا وسلوفانيا ·

١٥٧٤م تونس في حوزة العثمانيين ·

١٥٧٥م الافلاس الثاني للتاج الأسباني ·

١٥٧٧م مفاوضات لاحلال السلام بين العثمانيين والأسبان ·

١٥٧٧ـ١٥٩٠م الحرب بين العثمانيين والامبراطورية الفارسية ·

١٥٨٠م اسبانيا تضم البرتغال ·

١٥٨١م هدنة بين الامبراطورية العثمانية واسبانيا ·

١٥٨٤م تجديد الهدنة بين الامبراطورية العثمانية واسبانيا ·

١٥٨٥م اسبانيا تعلن الحرب على انجلترا ·

١٥٨٧م تجديد الهدنة بين الامبراطورية العثمانية واسبانيا ·

١٥٩٣ـ١٦٠٦م حروب الحدود بين العثمانيين والنمساويين ·

١٦٠٦ـ١٦٣٩م حروب الصعود بين الامبراطورية العثمانية والدولة الفارسية .

١٦٠٩م طرد المسلمين (وغير المسيحيين) من اسبانيا .

١٦١٤ـ١٦١٧م حروب البنادقة ضد الاسكوكوس Uskokes في الادرياتيك

١٦١٨ـ١٦٤٨م حرب الثلاثين عاما على الأرض الالمانية .

١٦٢٢م تمرد الانكشارية يؤدي لخلع واعدام السلطان عثمان الثاني .

١٦٣٨م السلطان مراد الرابع يلغي تحصيل ضريبة العبيد الخاصين بالقصور السلطانية من اطفال البلقان .

١٦٣٩م احلال السلام الدائم بين العثمانيين والفرس .

١٦٤٥م العثمانيون يغزون كريت .

١٦٤٨م المتمردون الانكشاريون يعزلون ويعدمون السلطان ابراهيم الأول

١٦٥٦ـ١٦٦١م محمد كوبريللي يعين وزيرا أول (صدر أعظم) .

١٦٥٨م الامبراطورية العثمانية تحكم قبضتها وسيطرتها السياسية على ترانسلفانيا Transylvanya ومولدافيا Moldavia وفاليشيا Valicia .

١٦٦١ـ١٦٧٦م احمد كوبريللي وزيرا اول (صدر اعظم)

١٦٦٤م معركة سانت جوثارد التي هزم فيها العثمانيون .

١٦٦٩م البنادقة يسلمون كريت للعثمانيين .

١٦٧٦م معاهدة زورافنو Zuravno تعترف وتقر بالمناطق التي حصل عليها العثمانيون في اوكرانيا / تعيين قره مصطفى وزيرا أول

١٦٨٣م الحصار التركي الثاني الفاشل لفينا ـ اعدام قره مصطفى .

١٦٨٧م هزيمة العثمانيين في معركة موهاكس الثانية وخروجهم من المجر (هنغاريا) وصربيا .

١٦٩٠م العثمانيون يستعيدون Nis وبلجراد .

١٦٩٧م هزيمة العثمانيين في معركة زنتا

١٦٩٩م معاهدة كارلوفتش .

عـــن المترجم

أولا – كتب في مجال التاريخ :

١ – المدخل إلى عالم التاريخ ، الرياض ، دار المريخ .

٢ – حيازة الأرض في نيجيريا في القـــرن التاسع عشر ، الرياض ، دار العلوم .

٣ – التطورات التعليمية والثقافية في أفريقيا ، الرياض عالم الكتب .

٤ – دول الإسلام وحضارته في أفريقيا ، الرياض ، دار اللواء .

٥ – تاريخ جنوب أفريقيا (مترجم) الرياض ، دار المريخ .

ثانيا – مقالات في الدوريات العلمية (في مجال التاريخ) :

١ – أثر دخول الأسلحة النارية في مجتمعات جنوب أفريقيا في القرن ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود .

٢ – الحركة الأوربية المناهضة للتثليث ، حـــركة إصلاح ديني لم تلق الاهتمام الكافي . مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود .

٣ – كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات ، مجلة عالم الكتب – الرياض

٤ – كتب الأخبار مرحلة من مراحل الكتابة التاريخية عند المسلمين ، مجلة عالم الكتب (الرياض) .

ثالثا ـ في مجال المكتبات والمعلومات :

١ ـ تنظيم المكتبات العامة (مترجم) الكويت ، وكالة المطبوعات .

٢ ـ مكتبة المدرسة الابتدائية وما تؤديه من خدمات . (مترجم) .

٣ ـ مكتبة المدرسة الثانوية وأثر الاتجاهات التربوية عليها .

٤ ـ الأسس الفلسفية والاجتماعية لمهنة المكتبات . (مترجم) .

٥ ـ دليل القارىء والباحث لاستخدام الكتب والمكتبات . ساهمت جامعة الكويت في طبعه . (مترجم) . الكويت ، دار البحوث العلمية .

فهرس

صدر من هذه السلسلة :

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ ـ أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
٢ ـ الالكترونيات والحياة الحديثة	ى . رادوسكايا
٣ ـ نقطة مقابل نقطة	ألدس هكسل
٤ ـ الجغرافيا في مائة عام	ت . و . فريمان
٥ ـ الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
٦ ـ تاريخ العلم والتكنولوجيا . جـ ٢ . القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ر . ج . فوربس
٧ ـ الأرض الغامضة	ليستردل راى
٨ ـ الرواية الانجليزية	والتر الن
٩ ـ المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
١٠ ـ آلهة مصر	فرانسوا دوماس
١١ ـ الانسان المصرى على الشاشة	د. قدرى حفنى وآخرون
١٢ ـ القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	اولج فولكف
١٣ ـ الهوية القومية في السينما العربية	هاشم النحاس
١٤ ـ مجموعات النقود صيانتها .. تصنيفها .. عرضها	ديفيد وليام ماكدوال
١٥ ـ الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
١٦ ـ عصر الرواية ـ مقال في النوع الأدبي	د. محسن جاسم الموسوى
١٧ ـ ديلان توماس مجموعة مقالات نقدية	اشراف س. بى. كوكس
١٨ ـ الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
١٩ ـ الرواية الحديثة . الانجليزية ـ والفرنسية جـ ١	جول ويست
٢٠ ـ المسرح المصرى المعاصر . أصله وبدايته	د. عبد المعطى شعراوى
٢١ ـ على محمود طه . الشاعر والانسان	أنور المعداوى
٢٢ ـ القوة النفسية للأهرام	بيل شول آدتبيت
٢٣ ـ فن الترجمة	د. صفاء خلوصى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٤ ـ تولستوى	رالف فى ماتلو
٢٥ ـ ستندال	فيكتور برومبير
٢٦ ـ رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
٢٧ ـ الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
٢٨ ـ التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
٢٩ ـ فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف . ع . أدينكوف
٣٠ ـ أدب الأطفال « فلسفته ـ فنونه ـ وسائطه »	هادى نعمان الهيتى
٣١ ـ أحمد حسن الزيات « كاتبا وناقدا	د. عبد العزيز الدسوقى
٣٢ ـ أعلام العرب فى الكيمياء	د. فاضل أحمد الطائى
٣٣ ـ فكرة المسرح	جلال العشرى
٣٤ ـ الجحيم	هنرى باربوس
٣٥ ـ صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة	السيد عليوة
٣٦ ـ التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جاكوب برونوفسكى
٣٧ ـ هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د. روجر ستروجان
٣٨ ـ تربية الدواجن	كاتى ثير
٣٩ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	أ . سبنسر
٤٠ ـ النحل والطب	د. ناعوم بيتروفيتش
٤١ ـ سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٤٢ ـ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د. ليونارد تشابرزوايت
٤٣ ـ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د. جون شندلر
٤٤ ـ الصحافة	بيير البير
٤٥ ـ اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
٤٦ ـ الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د. رمسيس عوض

اسم المؤلف	اسم الكتاب
د· محمد نعمان جلال	٤٧ ـ حركة عدم الانحياز في عالم متغير
فرانكلين ل · باومر	٤٨ ـ الفكر الأوربي الحديث جـ ١
شوكت الربيعي	٤٩ ـ الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥
د· محيي الدين أحمد حسين	٥٠ ـ التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
تأليف : ج· داديلي أندرو	٥١ ـ نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	٥٢ ـ مختارات من الأدب القصصي
د· جوهان دورشنر	٥٣ ـ الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد ؟
د· محمد أسعد عبد الرؤف	٥٤ ـ حرب الفضاء طاقة من الفضاء الامريكي ؟
د· السيد عليوة	٥٥ ـ ادارة الصراعات الدولية
د· مصطفى عناني	٥٦ ـ الميكروكمبيوتر
اختيار وترجمة صبري الفضل	٥٧ ـ مختارات من الأدب الياباني (الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة)
فرانكلين ل · باومر	٥٨ ـ الفكر الأوربي الحديث · جـ ٢
جابرييل باير	٥٩ ـ تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة
أنطوني دي كرسبني	٦٠ ـ اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
فرانكلين ل · باومر	٦١ ـ الفكر الأوربي الحديث · جـ ٣
دوايت سوين	٦٢ ـ كتابة السيناريو للسينما
زالسكي ف · س	٦٣ ـ الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوي	٦٤ ـ أجهزة تكييف الهواء
بيتر د· داى رداى	٦٥ ـ الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
جوزيف داهموس	٦٦ ـ سبعة مؤرخين في العصور الوسطى
س · م بورا	٦٧ ـ التجربة اليونانية
د· عاصم محمد رزق	٦٨ ـ مراكز الصناعة في مصر الاسلامية
رونالد د· سيمبسون و نورمان د· اندرسون	٦٩ ـ العلم والطلاب والمدارس
د· أنور عبد الملك	٧٠ ـ الشارع المصري والفكر

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٧١ ــ حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت روستو
٧٢ ــ تبسيط الكيمياء	فرد ٠ س ٠ هيس
٧٣ ــ العادات والتقاليد المصرية	جسون بوركهارت
٧٤ ــ التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
٧٥ ــ التخطيط السياسى	سامى عبد المعطى
٧٦ ــ البلور الكونية	فريد هويل شندرا ويكراما سينج
٧٧ ــ دراما الشاشة جـ ١	حسين حلمى المهندس
٧٨ ــ الهيروين والايدز	نوى روبرتسون
٧٩ ــ صور افريقية دور كاس ماكلينتوك ل ٠	باومر فرانكلين ل ٠ باومر
٨٠ ــ لجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
٨١ ــ الفكر الأوربى الحديث جـ ٤	فرانكلين روند روبر رتسون
٨٢ ــ الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طه
٨٣ ــ دراما الشاشة جـ ٢	حسين حلمى المهندس
٨٤ ــ المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
٨٥ ــ وظائف الاعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
٨٦ ــ الهندسة الوراثية	وليــــام بينز
٨٧ ــ تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
٨٨ ــ كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد محمد الشنوانى
٨٩ ــ الفلسفة وقضايا العصر جـ ١	جمعها : جون ٠ ر ٠ بورر وميلتون جولدينجر
٩٠ ــ الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
٩١ ــ ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
٩٢ ــ التغذية فى البلدان النامية	م٠ كنج وآخرون
٩٣ ــ الفلسفة وقضايا العصر جـ ٢	جمعها : جون ٠ ر ٠ بورر وميلتون جولدينجر
٩٤ ــ بداية بلا نهاية	جورج جاموف

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٩٥ ـ الحرف والصناعات في مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
٩٦ ـ حوار حول النظامين الرئيسيين للكون جـ١	جاليليو جاليليه
٩٧ ـ حوار حول النظامين الرئيسيين للكون جـ٢	جاليليو جاليليه
٩٨ ـ حوار حول النظامين الرئيسيين للكون جـ٣	جاليليو جاليليه
٩٩ ـ الارهــــاب	اريك موريس ، وآلان هو
١٠٠ـ اخنــــاتون	ســـيريل الدريد
١٠١ـ القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
١٠٢ـ الفلسفة وقضايا العصر جـ ٣	جمعها : جون ر٠ بورر وميلتون جولدينجر
١٠٣ـ العلم والتكنولوجيا	د٠ج٠ لويس ،
١٠٤ـ الأساطير الافريقية	أ٠ج٠ ميكسترعوز كوفلان
١٠٥ـ التوافق النفسي	توماس أ٠ هاريس
١٠٦ـ الدليل الببليوجرافي	مجموعة من الباحثين
١٠٧ـ لغة الصورة	روى أرمز
١٠٨ـ الثورة الاصلاحية في اليابان	ناجـــاى متشيو
١٠٩ـ العالم الثالث غدا	بول هاريسون
١١٠ ـ الانقراض الكبير	ميكائيل ألبى جيمس لفلوك
١١١ ـ التحليل والتوزيع الاوركسترالي	اعداد محمد كمال اسماعيل
١١٢ ـ تاريخ النقــود	فيكتور مورجان
١١٣ ـ صناع الخلود	موريس بيربرابر
١١٤ ـ قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلي
١١٥ ـ العثمانيون في أوربا	بول كولز

رقم الايداع بدار الكتب ١٦١١١/١٩٩٢

ISBN — 977 — 01 — 3231 — 4

قبل بضعة قرون زحف العثمانيون بجحافل جيوشهم على أوروبا . فأخضعوا البلقان وزحفوا على وسطها حتى أحدقوا بفيينا عاصمة الهبسبرج وكادت قوتهم أن تعصف بأوروبا في أولى قرون النهضة ، ثم ما لبثت قوة العثمانيين أن تهاوت حتى باتت رجل أوروبا المريض .

ويحاول هذا الكتاب بالكلمة والصورة أن يرسم لوحة لهذا العصر ، لا بالسرد التاريخي فحسب ، بل بالتطرق إلى مختلف أبعاده الاجتماعية والاقتصادية ويصور في بعض منه نشأة المجتمعات الإسلامية في شرق أوربا والبلقان والتي وإن تتراجع عنها سلطان تركيا ، مازالت قائمة .



٤٧٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب